ومثله تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوى قلبه و يزيل خوفه فقال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا لانه كان فى لسانه حبسة اما فى أصل الخلقة واما لاجل انه وضع الجمرة فى فيه عند ما نتف لحية فرعون أما قوله فأرسله معى ردأ يصدقنى ففيه ابحاث (البحث الاول) الردء اسم ما يستعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به يقال ردأت الحائط اردؤه اذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط (البحث الثانى) قرأ نافع ردا بغير همز والباقون بالهمز وقرأ عاصم وحمزة يصدقنى برفع القاف و يروى ذلك أيضا عن أبى عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبى عمرو فمن رفع فالتقدير ردأ مصدقا لى ومن جزم كان على معنى الجزاء يعنى ان أرسلته صدقنى ونظيره قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى بجزم الثاء من يرثنى وروى السدى عن بعض شيوخه ردأ كيما يصدقنى (البحث الثالث) الجمهور على ان التصديق لهرون وقال مقاتل المعنى كى يصدقنى فرعون والمعنى أرسل معى أخى حتى يعاضدنى على اظهار الحجة والبيان فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون (البحث الرابع) ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل و يجيب عن الشبهات و يجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ألا ترى الى قوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى وفائدة الفصاحة انما تظهر فيما ذكرناه لا فى مجرد قوله صدقت (البحث الخامس) قال الجبائى انما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى والا كان لا يدرى هل يصلح هرون للبعثة أم لا فلم يكن ليسأل ما لا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة ويحتمل أيضا أن يقال انه سأله لا مطلقا بل مشروطا على معنى ان اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعى فى دعائه (البحث السادس) قال السدى ان نبيين وآيتين أقوى من نبى واحد وآية واحدة * قال القاضى والذى قاله من جهة العادة أقوى فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبى ونبيين لان المبعوث اليه ان نظر فى أيهما كان علم وان لم ينظر فالحالة واحدة هذا اذا كانت طريقة الدلالة فى المعجزتين واحدة فأما اذا اختلفت وأمكن فى احداهما ازالة الشبهة ما لا يمكن فى الاخرى فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك أن يقال انهما بمجموعهما أقوى من احداهما على ما قاله السدى لكن ذلك لا يتأتى فى موسى وهرون عليهما السلام لان معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة أما قوله سنشد عضدك بأخيك فاعلم ان العضد قوام اليد و بشدتها تشتد يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك وفى ضده فت الله فى عضدك ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به فاما أن يكون ذلك لان اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الامور واما لان الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة أما قوله ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما

...بالخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببالهما من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاء منا (بك و بمن معك) فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا أولم تزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم (قال طائركم) أى سببكم الذى منه ينالكم ما ينالكم من الشر (عند الله) وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى (بل أنتم قوم تفتنون) أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم الى ذكر ما هو الداعى اليه (وكان فى المدينة) وهى الحجر (تسعة رهط) أى اشخاص و بهذا الاعتبار وقع تمييزا للتسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه و بين النفر أنه من الثلاثة أو من السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم ابن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع بن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم ابن مخرمة وسبيط بن صدقة وشمعان ابن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الارض) لا فى المدينة فقط افسادا بحتا لا يخالطه شئ ما من الاصلاح كما ينطق به قوله تعالى (ولا يصلحون) أى لا يفعلون شيئا من الاصلاح أو لا يصلحون شيئا من الاشياء (قالوا) استئناف لبيان ما فعلوا من الفساد

فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فان قيل بين تعالى ان السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون اليهما لاجل الآيات أوليس فرعون قد وصل الى صلب السحرة وان كانت هذه الآيات ظاهرة قلنا ان الآية التى هى قلب العصا حية كما أنها معجزة فهى ايضا تمنع من وصول ضرر فرعون الى موسى وهرون عليهما السلام لانهم اذا علموا انه متى ألقاها صارت حية عظيمة وان أراد ارسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الاقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول اليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الامرين فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس فى القرآن ما يدل عليه وان سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال فلا يصلون اليكما فالمنصوص انهم لا يقدرون على ايصال الضرر اليهما وايصال الضرر الى غيرهما لا يقدح فيه ثم قال أنتما ومن اتبعكما الغالبون والمراد اما الغلبة بالحجة والبرهان فى الحال أو الغلبة فى الدولة والمملكة فى ثانى الحال والاول أقرب الى اللفظ أما قوله فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا فى سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد أما قوله قالوا ما هذا الا سحر مفترى فقد اختلفوا فى مفترى فقال بعضهم المراد انه اذا كان سحرا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى وقال الجبائى المراد انه منسوب الى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين أى ما حدثنا بكونه فيهم ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين فى ذلك وقد سمعوا مثله أو يريدوا انهم لم يسمعوا بمثله فى فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به واعلم ان هذه الشبهة ساقطة لان حاصلها يرجع الى التقليد ولان حال الاولين لا يخلو من وجهين اما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فان من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وانما وجد منه العناد صح أن يقول ربى أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويضم اليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله ومن تكون له عاقبة الدار من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن وقوله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فان قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لان الدنيا قد تكون خاتمتها بخير فى حق البعض وبشر فى حق البعض الآخر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر قلنا انه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا الى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها الا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف

أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غب ما أنذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام الخ (تقاسموا بالله) اما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله باضمار قد وقوله تعالى (لنبيتنه وأهله) أى لنباغتن صالحا وأهله ليلا ولنقتلنهم وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرئ بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض (ثم لنقولن لوليه) أى لولى صالح وقرئ بالتاء والياء كما قبله (ما شهدنا مهلك أهله) أى ما حضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلا أن تتولى اهلاكهم وقرئ مهلك بفتح اللام فيكون مصدرا (وانا الصادقون) من تمام القول أو حال أى نقول ما نقول والحال انا الصادقون فى ذلك لان الشاهد للشئ غير المباشر له عرفا أو لانا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين (ومكروا مكرا) بهذه المواضعة (ومكرنا مكرا) أى أهلكناهم اهلاكا غير معهود (وهم لا يشعرون) أو جازيناهم مكرهم من حيث لا يحتسبون (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) شروع فى بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى (انا دمرناهم) اما بدل من عاقبة مكرهم على أنه فاعل كان وهى تامة وكيف حال أى فانظر كيف

والعامل معنى الاشارة وقرئ خاوية بالرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التدمير العجيب
بظلمهم (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) أى ما من شأنه ان يعلم من الاشياء او لقوم يتصفون بالعلم (وأنجينا الذين آمنوا)
صالحا ومن معه من المؤمنين (وكانوا ✻ ٦٠٩ ✻ يتقون) أى الكفر والمعاصى اتقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاه (ولوطا)
منصوب بمضمر معطوف
على أرسلنا فى صدر قصة
صالح داخل معه فى حيز
القسم أى وارسلنا لوطا
وقوله تعالى (اذ قال لقومه)
ظرف للارسال على أن
المراد به أمر ممتد وقع
فيه الارسال وما جرى
بينه وبين قومه من الاقوال
والاحوال وقيل انتصاب
لوطا باضمار اذكر واذ بدل
منه وقيل بالعطف على
الذين آمنوا أى وأنجينا
لوطا وهو بعيد (أتأتون
الفاحشة) أى الفعلة
المتناهية فى القبح
والسماجة وقوله تعالى
(وأنتم تبصرون) جملة
حالية من فاعل تأتون
مفيدة لتأكيد الانكار
وتشديد التوبيخ فان
تعاطى القبيح من العالم
بقبحه أقبح وأشنع
وتبصرون من بصر
القلب اى أتفعلونها
والحال انكم تعلمون علما
يقينيا بكونها كذلك وقيل
يبصرها بعضكم من
بعض لما كانوا يعلنون بها
(أئنكم لتأتون الرجال
شهوة) تثنية للانكار
وتكرير للتوبيخ وبيان
لما يأتونه من الفاحشة بطريق ✻ ٧٧ س ✻ التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للايذان بان مضمونها
مما لا يصدق وقوعه احد لكمال

قالوا لولا أن موسى عليه السلام دعاه الى ذلك لما قال فرعون هذا القول والجواب
ان موسى عليه السلام دل فرعون بقوله رب السموات والارض ولم يقل هو الذى فى
السماء دون الارض فأوهم فرعون انه يقول ان الهه فى السماء وذلك أيضا من خبث
فرعون ومكره ودهائه (الثانى) اختلفوا فى ان فرعون هل بنى هذا الصرح
فقال قوم انه بناه قالوا انه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون
الف بناء سوى الاتباع والاجراء وامر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب
المسامير فشيدوه حتى بلغ مالم يبلغه بنيان احد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه
السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر
فرعون فقتلت ألف الف رجل وقطعة وقعت فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من
عماله الا وقد هلك ويروى فى هذه القصة ان فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء
فاراد الله ان يفتنهم فردت اليهم وهى ملطوخة بالدم فقال قد قتلت اله موسى فعند ذلك
بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه ومن الناس من قال انه لم يبن ذلك الصرح لانه
يبعد من العقلاء أن يظنوا انهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من
على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الارض ومن شك
فى ذلك خرج عن حد العقل وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم الى السماء
ورجوعه متلطخا بالدم فان كل من كان كامل العقل يعلم انه لا يمكنه ايصال السهم الى
السماء وان من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التى حكاها
الله تعالى فى القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعا وبابا لمن
أحب الطعن فى القرآن فالاقرب انه كان اوهم البناء ولم يبن او كان هذا من تتمة قوله
ما علمت لكم من اله غيرى يعنى لا سبيل الى اثباته بالدليل فان حركات الكواكب كافية فى
تغير هذا العالم ولا سبيل الى اثباته بالحس فان الاحساس به لا يمكن الا بعد صعود السماء
وذلك مما لا سبيل اليه ثم قال عند ذلك لهامان ابن لى صرحا ابلغ به اسباب السموات وانما
قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الاشياء قرر انه لا دليل على الصانع ثم انه رتب
النتيجة عليه فقال وانى لاظنه من الكاذبين فهذا التأويل اولى مما عداه (الثالث) انما
قال اوقد لى ياهامان على الطين ولم يقل اطبخ لى الآجر واتخذه لانه أول من عمل الآجر
فهو يعلمه الصنعة ولان هذه العبارة اليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وامر
هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر
والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد اما قوله واستكبر هو
وجنوده فى الارض بغير الحق فاعلم ان الاستكبار بالحق انما هو لله تعالى وهو المتكبر فى
الحقيقة أى المبالغ فى كبرياء الشان قال عليه السلام فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائى
والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما القيته فى النار وكل مستكبر سواه فاستكباره

حصل اى على اى وجه حدث تدميرنا اياهم واما خبر لمبتدا محذوف والجملة مبنية لما فى عاقبة مكرهم من الابهام أى هى تدميرنا اياهم (وقومهم) الذين لم يكونوا معهم فى مباشرة التبييت (أجمعين) بحيث لم يشذ منهم شاذ واما تعليل لماينبئ عنه الامر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار

فاذن عاقبتها الاصلية هى عاقبة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من نتائج تحريف الفجار ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله انه لايفلح الظالمون والمراد انهم لايظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية فى زجرهم عن العناد الذى ظهر منهم ❁ قوله تعالى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فاوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لايرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) اعلم ان فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى ان يتعلق فى دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر ههنا شبهتين (الاولى) قوله ما علمت لكم من اله غيرى وهذا فى الحقيقة يشتمل على كلامين (أحدهما) نفى اله غيره (والثانى) اثبات الهية نفسه فاما الاول فقد كان اعتماده على أن ما لادليل عليه لم يجز اثباته أما انه لادليل عليه فلان هذه الكواكب والافلاك كافية فى اختلاف أحوال هذا العالم السفلى فلا حاجة الى اثبات صانع وأما أن ما لادليل عليه لم يجز اثباته فالامر فيه ظاهر واعلم ان المقدمة الاولى كاذبة فانا لانسلم انه لادليل على وجود الصانع وذلك لانا اذا عرفنا بالدليل حدوث الاجسام عرفنا حدوث الافلاك والكواكب وعرفنا بالضرورة ان المحدث لابد له من محدث فحينئذ نعرف بالدليل ان هذا العالم له صانع والعجب ان جماعة اعتمدوا نفى كثير من الاشياء على أن قالوا لادليل عليه فوجب نفيه قالوا وانما قلنا انه لادليل عليه لانا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق الى أن كل ما لايعرف عليه دليل وجب نفيه وان فرعون لم يقطع بالنفى بل قال لادليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبا فى دعواه ففرعون على نهاية جهله أحسن حالا من هذا المستدل أما الثانى وهو اثباته الهية نفسه فاعلم انه ليس المراد منه انه كان يدعى كونه خالقا للسموات والارض والبحار والجبال وخالقا لذوات الناس وصفاتهم فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضى زوال العقل بل الاله هو المعبود فالرجل كان ينفى الصانع ويقول لاتكليف على الناس الا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لامره فهذا هو المراد من ادعائه الالهية لاماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والارض لاسيما وقد دللنا فى سورة طه فى تفسير قوله فمن ربكما ياموسى على أنه كان عارفا بالله تعالى وانه كان يقول ذلك ترويجا على الاغمار من الناس (الشبهة الثانية) قوله فاوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين وههنا ابحاث (الاول) تعلقت المشبهة بهذه الآية فى أن الله تعالى فى السماء

أى لانا دمرناهم الخ وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان فالاوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى انا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرئ انا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا مافعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم وقد ارسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولايرون راميا (فتلك بيوتهم) جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (خاوية) أى خالية أوساقطة متهدمة (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم ❁ قالوا ❁

الكفر والاشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بانوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق به قوله عز وجل ❁ ٦١١ ❁ وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أمره عليه الصلاة والسلام بان يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التى لا مطمع وراءها الطامع ولا مطمح من دونها لطامح و يسلم على كافة الانبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التى هى من جملة المعارف التى أوحيت اليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بان يحمده تعالى على اهلاك كفرة قومه و يسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده (آلله خير أم ما يشركون) اى آلله الذى ذكرت شؤنه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى من الاصنام ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم اذ من البين ان ليس فيما اشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه و بين من لا خير الا خيره ولا اله غيره وقرئ تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى الكفرة وهو الاليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبنى على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه

كل خير وقال ابن عباس رضى الله عنهما من المشوهين بسواد الوجه وزرقة العين وعلى الجملة فالاولون حملوا القبح على القبح الروحانى وهو الطرد والابعاد من رحمة الله تعالى والباقون حملوه على القبح فى الصور وقيل فيه انه تعالى يقبح صورهم و يقبح عليهم عملهم و يجمع بين الفضيحتين ثم بين تعالى ان الذى يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى والكتاب هو التوراة ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به فى باب الدين وهدى من حيث يستدل به ومن حيث ان المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب ووصفه بانه رحمة لانه من نعم الله تعالى على من تعبد به وروى ابو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما اهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الارض منذ انزل التوراة غير اهل القرية التى مسخها قردة اما قوله لعلهم يتذكرون فالمراد لكى يتذكروا قال القاضى وذلك يدل على ارادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك اولم يختره ففيه ابطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر الا ممن يتذكر فاما من لا يتذكر فقد ذكره ذلك منه ونص القرآن دافع لهذا القول قلنا اليس انكم حملتم قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم على العاقبة فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة فان عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك فى الآخرة ❁ قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) اعلم ان فى الآية سؤالات (السؤال الاول) الجانب موصوف والغربى صفة فكيف اضاف الموصوف الى الصفة الجواب هذه مسئلة خلافية بين النحويين فعند البصريين لا يجوز اضافة الموصوف الى الصفة الا بشرط خاص سنذكره وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقا حجة البصريين ان اضافة الموصوف الى الصفة تقتضى اضافة الشئ الى نفسه وهذا غير جائز فذاك أيضا غير جائز بيان الملازمة انك اذا قلت جاءنى زيد الظريف فلفظ الظريف يدل على شئ معين فى نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة فاذا نصصت على زيد عرفنا ان ذلك الشئ الذى حصلت له الظرافة هو زيد اذا ثبت هذا فلو أضفت زيدا الى الظريف كنت قد أضفت زيدا الى زيد واضافة الشئ الى نفسه غير جائزة فاضافة الموصوف الى صفته وجب أن لا تجوز الا انه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ وهى قوله تعالى فى هذه الآية وما كنت بجانب الغربى وقوله وذلك دين القيمة وقوله حق اليقين ولدار الآخرة ويقال صلاة الاولى ومسجد الجامع و بقلة الحمقاء فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربى ودين الملة القيمة وحق الشئ اليقين ودار السعادة الاخرة وصلاة الساعة الاولى ومسجد

بغير الحق (المسئلة الثانية) قال الجبائى الآية تدل على انه تعالى ما أعطاه الملك والالكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب لا كما ادعى ملوك بنى امية عند تغلبهم ان ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين فى كل غاصب لحكم الله انه أخذ ذلك بغير حق واعلم ان هذا ضعيف لان وصول ذلك الملك اليه اما ان يكون منه او من الله تعالى أو لا منه ولا من الله تعالى فان كان منه فلم يقدر عليه غيره فربما كان العاجز أقوى واعقل بكثير من المتولى للامر وان كان من الله تعالى فقد صح الغرض وان كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعى الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر واعلم ان هذا اظهر من ان يرتاب فيه العاقل أما قوله وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى الا انهم كانوا ينكرون البعث فلاجل ذلك تمردوا وطغوا اما قوله فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم من الكلام المفخم الذى دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم وان كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات اخذهن آخذ فى كفه فطرحهن فى البحر ونحو ذلك قوله والقينا فيها رواسى شامخات وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى وليس الغرض منه الا تصوير ان كل مقدور وان عظم فهو حقير بالقياس الى قدرته اما قوله وجعلناهم أئمة يدعون الى النار فقد تمسك به الاصحاب فى كونه تعالى خالقا للخير والشر قال الجبائى المراد بقوله وجعلناهم أى بينا ذلك من حالهم وسميناهم به ومنه قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وتقول أهل اللغة فى تفسير فسقه وبخله جعله فاسقا وبخيلا لا انه خلقهم أئمة لانهم حال خلقه لهم كانوا اطفالا (قال الكعبى) انما قال وجعلناهم أئمة من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر وذلك كقوله زادتهم رجسا لما ازدادوا عندها ونظير ذلك ان الرجل يسئل ما يثقل عليه وان أمكنه فاذا بخل به قيل للسائل جعلت فلانا بخيلا اى قد بخلته وقال أبو مسلم معنى الامامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين واعلم أن الكلام فيه قد تقدم فى سورة مريم فى قوله انا أرسلنا الشياطين على الكافرين ومعنى دعوتهم الى النار دعوتهم الى موجباتها من الكفر والمعاصى فان أحدا لا يدعو الى النار البتة وانما جعلهم الله تعالى أئمة فى هذا الباب لانهم بلغوا فى هذا الباب أقصى النهايات ومن كان كذلك استحق أن يكون اماما يقتدى به فى ذلك الباب ثم بين تعالى ان ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله ويوم القيامة لا ينصرون او يكون معناه ويوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الائمة الدعاة الى الجنة اما قوله واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة معناه لعنة الله والملائكة لهم وامره تعالى بذلك فيها للمؤمنين وبين انهم يوم القيامة من المقبوحين اى المبعدين الملعونين والقبح هو الابعاد قال الليث يقال قبحه الله اى نحاه عن

... بعنوان الرجولية لتربية التقبيح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التى علل بها الاتيان (من دون النساء) متجاوزين النساء اللاتى من محل الشهوة (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه او تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة القوم لكونهم فى حيز الخطاب (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) يتنزهون من افعالنا أو عن الاقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه استهزاء وقد مر فى سورة الاعراف ان هذا الجواب هو الذى صدر عنهم فى المرة الاخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالامر والنهى لانه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره (فأنجيناه واهله الا امرأته قدرناها) أى قدرنا أنها (من الغابرين) أى الباقين فى العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قد مر بيان كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) اثر ما قص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الانبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم وبين على ألسنتهم حقيقة الاسلام والتوحيد وبطلان ❊ كل ❊

المكان الجامع و بقلة الحبة الحمقاء ثم قالوا فى هذه المواضع المضاف اليه ليس هو النعت بل المنعوت الا انه حذف المنعوت واقيم النعت مقامه فههنا ينظران كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت حسن ذلك والا فلا الا ترى انه ليس لك أن تقول عندى جيد على معنى عندى درهم جيد و يجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه لان الفقيه يعلم انه لا يكون الا من الناس والجيد قد يكون درهما وقد يكون غيره واذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى لان الشئ الموصوف بالغربى الذى يضاف اليه الجانب لا يكون الا مكانا أو ما يشبهه فلاجرم حسنت هذه الاضافة وكذا القول فى البواقى والله أعلم (السؤال الثانى) ما معنى قوله اذ قضينا الى موسى الامر (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الالواح والامر المقضى الى موسى عليه السلام الوحى الذى أوحى اليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول وما كنت حاضر المكان الذى أوحينا فيه الى موسى عليه السلام ولا كنت من جملة الشاهدين للوحى اليه أو على الموحى اليه وهى لان الشاهد لابد وان يكون حاضرا وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات (السؤال الثالث) لما قال وما كنت بجانب الغربى ثبت انه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد أن يكون حاضرا فما الفائدة فى اعادة قوله وما كنت من الشاهدين (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى (السؤال الرابع) كيف يتصل قوله ولكنا انشأنا قرونا بهذا الكلام ومن أى وجه يكون استدراكا له الجواب معنى الآية ولكنا انشأنا بعد عهد موسى عليه السلام الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذى أنت فيه فاندرست العلوم فوجب ارسالك اليهم فارسلناك وعرفناك احوال الانبياء واحوال موسى فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا اوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال ان فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى اما قوله وما كنت ثاويا فى أهل مدين فالمعنى ما كنت مقيما فيه واما قوله تتلوا عليهم آياتنا ففيه وجهان (الاول) قال مقاتل يقول لم تشهد اهل مدين فتقرأ على اهل مكة خبرهم ولكنا كنا مرسلين أى ارسلناك الى اهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك يقول انك يا محمد لم تكن الرسول الى اهل مدين تتلوا عليهم الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا الى اهل مدين شعيبا وارسلناك الى العرب لتكون خاتم الانبياء أما قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ولكن

قوله تعالى فانبتنا الخ فانه صريح فى أن التبكيت من قبله عزوجل بالذات وحمله على انه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبارته كما فى قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم تعسف ظاهر من غير داع اليه وأم فى قوله تعالى (أم من خلق السموات والارض) منقطعة وما فيها من كلمة بل على القراءة الاولى للاضراب والانتقال من التبكيت تعريضا الى التصريح به خطابا على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد واما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الالزام كنظائرها الآتية والهمزة لتقريرهم اى حملهم على الاقرار بالحق على وجه الاضطرار فانه لا يتمالك احد ممن له ادنى تمييز ولا يقدر على ان لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وافاض على كل منها ما يليق به من منافعه من اخس تلك المخلوقات وأدناها بل بأن لا خيرية فيه بوجه من الوجوه قطعا ومن مبتدأ خبره محذوف مع ام المعادلة للهمزة تعويلا على ماسبق فى الاستفهام الاول خلا ان تشركون ههنا بتاء الخطاب على القرائتين معا وهكذا فى المواضع الاربعة الآتية والمعنى بل امن خلق فطرى العالم الجسمانى ومبدأى منافع ما بينهما (وانزل لكم) التفات الى خطاب الكفرة على القراءة الاولى لتشديد التبكيت والالزام اى انزل لاجلكم ومنفعتكم (من السماء ماء) اى نوعا منه هو المطر (فانبتنا به حدائق) اى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط (ذات بهجة) اى ذات حسن ورونق يبتهج به ﴿ رحمة ﴾

النظار (ماكان لكم) أى ماصح وما أمكن لكم (أن تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة خبر أم ماتشركون
وقرىء أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله وتقديم صلتى الانزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والالتفات
الى التكلم فى قوله تعالى فانبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والايذان بان انبات تلك الحدائق

المختلفة الاصناف والاوصاف والالوان والطعوم والروائح والاشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لايكاد يقدر عليه الاهو وحده حسبما ينبىء عنه تقييدها بقوله تعالى ماكان لكم الخ سواء كانت صفة لها أوحالا وتوحيد وصفها الاول أعنى ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال فى ضمير شجرها (أأله مع الله) أى أأله آخر كائن مع الله الذى ذكر بعض أفعاله التى لايكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة وهذا تبكيت لهم بنفى الالوهية عمايشركونه به تعالى فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بماذكر من الترديد فان أحدا ممن له تمييز فى الجملة كما لا يقدر على انكار انتفاء الخيرية عنه

بالمرة لايكاد يقدر على انكار انتفاء الالوهية عنه رأسا لاسيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال
فى المواقع الاربعة الآتية وقيل المراد نفى أن يكون معه تعالى اله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف

رحمة من ربك اى علمناك رحمة وقرأ عيسى بن عمر بالرفع اى هى رحمة وذكر المفسرون فى قوله اذ نادينا وجوها اخر (احدها) اذ نادينا أى قلنا لموسى ورحمتى وسعت كل شىء الى قوله أولئك هم المفلحون (وثانيها) قال ابن عباس اذ نادينا امتك فى اصلاب ابائهم يا امة محمد اجبتكم قبل ان تدعونى واعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل ان تستغفرونى قال وانما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه (وثالثها) قال وهب لما ذكر الله لموسى فضل امة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب ارنيهم قال انك لن تدركهم وان شئت اسمعتك اصواتهم قال بلى يارب فقال سبحانه يا امة محمد فأجابوه من اصلاب آبائهم فاسمعه الله تعالى اصواتهم ثم قال اجبتكم قبل ان تدعونى الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله وماكنت بجانب الطور اذ نادينا قال كتب الله كتابا قبل ان يخلق الخلق بالفى عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا امة محمد ان رحمتى سبقت غضبى اعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى من لقينى منكم يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ادخلته الجنة اما قوله لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك فالانذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) انه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله وما كنت بجانب الغربى وما كنت ثاويا فى أهل مدين وماكنت بجانب الطور فجمع تعالى بين كل ذلك لان هذه الثلاثة هى الاحوال العظيمة التى اتفقت لموسى عليه السلام اذ المراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر انزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا اول امره والمراد ناديناه وسط امره وهو ليلة المناجاة ولما بين تعالى انه عليه السلام لم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين تعالى انه بعثه وعرفه هذه الاحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث اليهم نذير منهم (وقال بعضهم) حجة الانبياء كانت قائمة عليهم ولكنه مابعث اليهم من يجدد تلك الحجة عليهم وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة فى التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرا للتكاليف وازالة لتلك الفترة اما قوله ولولا أن تصيبهم مصيبة الآية فقال صاحب الكشاف لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء فى قوله فيقولوا للعطف وفى قوله فنتبع جواب لولا لكونها فى حكم الامر من قبل ان الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا ارسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما ارسلنا اليهم يعنى انما ارسلنا الرسول ازالة لهذا العذر وهو كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ان تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك واعلم انه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما ارسلنا بل قال ولولا أن تصيبهم مصيبة فيقولوا هذا العذر لما ارسلنا وانما قال ذلك لنكتة وهى انهم لو لم

عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفي فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق
السموات والارض ليقولن الله بل باشراكهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيه فكأنه من لوازم الالوهية
كأنه قيل أإله آخر مع الله في خواص الالوهية حتى يجعل شريكا له تعالى في العبادة وقيل المعنى أغيره
يقرن به و يجعل له شريكا في العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين والاول هو الاظهر الموافق لقوله وما كان معه من اله والاوفق بحق المقام لافادته نفي وجود اله آخر معه تعالى رأسا لا نفي معيته في الخلق وفروعه فقط وقرئ آاله بتوسيط مدة بين الهمزتين و باخراج الثانية بين بين وقرئ أالها باضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون أو أتشركون (بل هم قوم يعدلون) اضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب الى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الامور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق

يعاقبوا مثلا وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك بل انما يقولون ذلك اذا نالهم العقاب
فيدل ذلك على انهم لم يذكروا هذا العذر تأسفا على كفرهم بل لانهم ما طاقوا العذاب
وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وفي
الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائي على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك
لم يكن لهم أن يقولوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك اذ من الجائز أن لا يبعث اليهم
وان كانوا لا يختارون الايمان الا عنده على قول من خالف في وجوب اللطف كما
من ان الجائز اذا كان في المعلوم لو خلق له لم يكن الا أن يفعل ذلك (المسئلة الثانية) احتج
الكعبي به على ان الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الامر كما يقوله أهل السنة من انه
تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا انه ليس المراد من قوله لا يسأل عما يفعل ما يظنه اهل
السنة واذا ثبت انه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى والا لكان
للكافر اعظم حجة على الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال القاضي فيه ابطال القول بالجبر
من جهات (احداها) ان اتباعهم وايمانهم موقوف على ان يخلق الله ذلك فيهم سواء ارسل
الرسول اليهم ام لا (وثانيتها) انه اذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء ارسل الرسول
أم لا (وثالثتها) اذا اراد ذلك وجب ارسل الرسول اليهم ام لا فاي فائدة في اقوالهم هذا
لو كانت افعالهم خلقا لله تعالى فيقال للقاضي هب انك نازعت في الخلق والارادة ولكنك
وافقت في العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا فان لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر
مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وان وجب لزمك ما أوردته علينا واعلم ان
الكلام وان كان قويا حسنا الا انه اذا توجه عليه النقض الذي لا محيص عنه فكيف
يرضى العاقل بان يعول عليه ✻ قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا اوتي مثل
ما اوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل
كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا
لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي
القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به
يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون
اجرهم مرتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا
اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) اعلم انه
تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك بين ايضا انه
بعد الارسال الى أهل مكة قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون
بشبهة و بعد البعثة يتعلقون بأخرى فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد اما قوله فلما
جاءهم الحق من عندنا أي جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا

الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذي هو الاشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد ✻ اوتى ✻
خال عن الافادة (أم من جعل الارض قرارا) قيل هو بدل من أم من خلق السموات الخ و كذا ما بعده من الجمل الثلاث

وحكم الكل واحد والاظهر أن كل واحدة منها اضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها الى التبكيت بوجه آخر ادخل
فى الالزام بجهة من الجهات أى جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها
حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلالها) أوساطها (أنهارا) جارية ينتفعون بها (وجعل لها رواسى)
أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها المعادن وينبع فى حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح مالا يحصى (وجعل بين البحرين) أى العذب والمالح أو خليجى فارس والروم (حاجزا) برزخا مانعا من الممازجة وقد مر فى سورة الفرقان والجعل فى المواقع الثلاثة الاخيرة ابداعى وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مرارا من التشويق (أاله مع الله) فى الوجود أو فى ابداع هذه البدائع على مامر (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيئا من الاشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ماهم عليه من الشرك مع كمال ظهوره (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد وألجأته الى اللجأ والضراعة الى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى
رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر واللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم اجابة كل مضطر
(ويكشف السوء) وهو الذى يعترى الانسان مما يسوءه (ويجعلكم خلفاء الارض) أى خلفاء فيها بأن

أوتى مثل ما أوتى موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا
حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن
ان الله كلمه وكتب له فى الالواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت
والعناد كما قالوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما اشبه ذلك (واعلم) ان الذى اقترحوه
غير لازم لانه لا يجب فى معجزات الانبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل اليهم
من الكتب أن يكون على وجه واحد اذ الصلاح قد يكون فى انزاله مجموعا كالتوراة ومفرقا
كالقرآن ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل
واختلفوا فى أن الضمير فى قوله أولم يكفروا الى من يعود وذكروا وجوها (احدها)
ان اليهود أمروا قريشا أن يسألوا محمدا ان يؤتى مثل ما أوتى موسى عليه السلام فقال
تعالى أولم يكفروا بما أوتى موسى يعنى اولم تكفروا ياهؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا
السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) ان الذين اوردوا هذا
الاقتراح كفار مكة والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام الا
انه تعالى جعلهم كالشئ الواحد لانهم فى الكفر والتعنت كالشئ الواحد (وثالثها) قال
الكلبى ان مشركى مكة بعثوا رهطا الى يهود المدينة ليسألوهم عن محمد وشانه فقالوا انا نجده
فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط اليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا انه كان ساحرا
كما ان محمدا ساحر فقال تعالى فى حقهم أولم يكفروا بما أوتى موسى (ورابعها) قال الحسن
قد كان للعرب أصل فى ايام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أولم يكفر آباؤهم بان قالوا
فى موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة أولم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى
موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) وهو
الاظهر عندى ان كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم انهم لما طلبوا من
الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى أولم يكفروا بما أوتى
موسى من قبل بل بما أوتى جميع الانبياء من قبل فعلمنا انه لاغرض لكم من هذا الاقتراح
الا التعنت ثم انه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتى موسى من وجهين (الاول) قولهم
ساحران تظاهرا قرأ ابن كثير وأبو عمرو واهل المدينة ساحران بالالف وقرأ أهل الكوفة
بغير الف وذكروا فى تفسير الساحرين وجوها (أحدها) المراد هرون وموسى عليهما
السلام تظاهرا اى تعاونا وقرئ أظاهرا على الادغام وسحران بمعنى ذوى سحر وجعلوهما
سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله سحران بان المراد
هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالالف لان المظاهرة بالناس وأفعالهم
أشبه منها بالكتب وجوابه انا بينا أن قوله سحران يمكن حمله على الرجلين وبتقدير
أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوى الآخر لم يبعد أن يقال
على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الاخبار وهذه التأويلات انما تصح اذا حملنا قوله

فان وجوده مما لامرد له بل عن وجوده بعنوان كونه الها وشريكا له تعالى أو عن اشراكهم (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده)
أى بل أمن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث (ومن يرزقكم من السماء والارض) أى بأسباب سماوية وأرضية
قدرتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين خيرأم ماتشركونه به فى العبادة

الله بن سلام (وثانيها) قال مقاتل نزلت فى اربعين رجلا من أهل الانجيل وهم أصحاب
السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رفاعة بن قرظة نزلت فى عشرة انا
احدهم وقد عرفت ان العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب فكل من حصل فى
حقه تلك الصفة كان داخلا فى الآية ثم حكى عنهم مايدل على تاكيد ايمانهم وهو
قولهم آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين فقوله انه الحق من ربنا يدل على
التعليل يعنى أن كونه حقا من عند الله يوجب الايمان به وقوله انا كنا من قبله مسلمين بيان
لقوله آمنا به لانه يحتمل أن يكون ايمانا قريب العهد و بعيده فاخبروا أن ايمانهم
به متقادم وذلك لما وجدوه فى كتب الانبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه
ثم انه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا
وذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم يؤتون أجرهم مرتين بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم
قبل بعثته و بعد بعثته وهذا هو الاقرب لانه تعالى لما بين انهم آمنوا به بعد البعثة وبين
ايضا انهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم اثبت الاجر مرتين وجب أن ينصرف الى ذلك
(وثانيها) يؤتون الاجر مرة بايمانهم بالانبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم
ومرة أخرى بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد
صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم اجران أجر على الصفح وأجر
على الايمان يروى انهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه قال السدى اليهود عابوا
عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال و يدرؤن بالحسنة السيئة والمعنى
بالطاعة المعصية المتقدمة ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الاذى ويحتمل
أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصى لان نفس الامتناع حسنة و يدفع
به ما لولاه لكان سيئة ويحتمل التوبة والانابة والاستقرار عليها ثم قال ومما رزقناهم
ينفقون واعلم انه تعالى مدحهم اولا بالايمان ثم بالطاعات البدنية فى قوله ويدرؤن
بالحسنة السيئة ثم بالطاعات المالية فى قوله ومما رزقناهم ينفقون (قال) القاضى دل هذا
المدح على أن الحرام لايكون رزقا جوابه ان كلمة من للتبعيض فدل على انهم استحقوا
المدح بانفاق بعض ما كان رزقا وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ثم لما بين كيفية
اشتغالهم بالطاعات والافعال الحسنة بين كيفية اعراضهم عن الجهال فقال واذا سمعوا
اللغو اعرضوا عنه واللغو ماحقه أن يلغى و يترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك
فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه اعراضا جميلا فلذلك قال تعالى وقالوا لنا أعمالنا ولكم
أعمالكم سلام عليكم وما أحسن ماقال الحسن رحمه الله فى أن هذه الكلمة تحية بين
المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين ونظير هذه الآية قوله تعالى وعباد الرحمن
الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد تعالى ذلك بقوله
حاكيا عنهم لانبتغى الجاهلين والمراد لانجازيهم بالباطل على باطلهم قال قوم نسخ ذلك

من جادلا يتوهم قدرته على شئ ما أصلا (أأله آخر موجود (مع الله) حتى يجعل شريكاله فى العبادة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم اثر تبكيت أى هاتوا برهانا عقليا أونقليا يدل على أن معه تعالى الها لاعلى أن غيره تعالى يقدر على شئ مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل فانهم لايدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الالوهية وان كان منها فى الحقيقة فطالبتهم بالبرهان عليه لاعلى صريح دعواهم مما لاوجه له وفى اضافة البرهان الى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ايهام أن لهم برهانا وأنى لهم ذلك (ان كنتم صادقين) أى فى تلك الدعوى (قل لايعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) بعدما حقق تفرده تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة
والرحمة الشاملة العامة عقبه بذكر ماهو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيدا
لما بعده من أمر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل

أولم يكفروا بما أوتى موسى اما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام ولاشك ان ذلك اليق بمساق الآية (الثانى) قولهم انا بكل كافرون أى بما انزل على محمد وموسى وسائر الانبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لايليق الابالمشركين لابااليهود وذلك مبالغة فى انهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذى يمنع من مثله فى محمد صلى الله عليه وسلم وان ظهرت حجته ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله قال الزجاج اتبعه بالجزم على الشرط ومن قرأ اتبعه بالرفع فالتقدير انا اتبعه ثم قال فان لم يستجيبوا لك قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج وقال مقاتل فان لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب افضل منهما وهذا اشبه بالآية فان قيل الاستجابة تقتضى دعاء فأين الدعاء ههنا قلنا قوله فأتوا بكتاب أمر والامر دعاء الى الفعل ثم قال فاعلم انما يتبعون اهواءهم يعنى قد صاروا ملزمين ولم يبق لهم شئ الااتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وانه لابد من الحجة والاستدلال ان الله لايهدى القوم الظالمين وهو عام يتناول الكافر لقوله ان الشرك لظلم عظيم واحتج الاصحاب به فى ان هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين (وقالت المعتزلة) الالطاف منها مايحسن فعلها مطلقا ومنها مالايحسن الابعد الايمان والدليل عليه قوله والذين اهتدوا زادهم هدى فقوله ان الله لايهدى القوم الظالمين محمول على القسم الثانى ولايجوز حمله على القسم الاول لانه تعالى لمابين فى الآية المتقدمة ان عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم فبان يكون عدم الهداية عذرالهم أولى ولمابين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال ولقد وصلنالهم القول وتوصيل القول هواتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض وهذا القول الموصل يحتمل ان يكون المراد منه انا انزلنا القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك اقرب الى التذكير والتنبيه فانهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب الى التذكر وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا أوتى محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتى موسى كتابه كذلك ويحتمل أن يكون المراد وصلنا اخبار الانبياء بعضها ببعض واخبار الكفار فى كيفية هلاكهم تكثيرا للمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون ثم انه تعالى لما اقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال الذين آتيناهم الكتاب من قبله أى من قبل القرآن اسلموا بمحمد فمن لايعرف الكتب أولى بذلك واختلفوا فى المراد بقوله الذين آتيناهم الكتاب وذكروا فيه وجوها (احدها) قال قتادة انها نزلت فى اناس من اهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد

ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم من الامم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط (أإله مع الله) الذى يفيض على كافة الانام هذه النعم الجسام (قليلا ماتذكرون) أى تذكرا قليلا أوزمانا قليلا تتذكرون ومامزيدة لتأكيد معنى القلة التى اريد بها العدم أومايجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى وفى تذييل الكلام بنفى التذكر عنهم ايذان بان مضمونه مركوز فى ذهن كل ذكى وغبى وأنه من الوضوح بحيث لايتوقف الاعلى التوجه اليه وتذكره وقرئ تتذكرون على الاصل ويذكرون وتذكرون بالتاء والياء مع الادغام (أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر) أى فى ظلمات الليالى فيهما على أن الاضافة للملابسة أوفى مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتى لامنار بها (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) وهى المطر ولئن صح أن السبب الاكثرى فى تكون الريح معاودة الادخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتموجها للهواء فلاريب فى أن الاسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عزوجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعا (أإله مع الله) نفى لأن يكون معه اله اخر وقوله تعالى (تعالى عما يشركون) تقرير وتحقيق له واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم أى تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية ﴿الله﴾ لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته عما يشركون أى عن وجود مايشركونه به تعالى لامطلقا

بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب وان كان القتال واجبا * قوله
تعالى (انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين وقالوا
ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل
شئ رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لايعلمون) اعلم أن فى قوله تعالى انك لاتهدى من أحببت
ولكن الله يهدى من يشاء مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية لادلالة فى ظاهرها على
كفر أبى طالب ثم قال الزجاج أجمع المسلمون على انها نزلت فى أبى طالب وذلك أن
اباطالب قال عند موته يامعشر بنى عبدمناف أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا
فقال عليه السلام ياعم تأمرهم بالنصح لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد ياابن أخى
قال أريد منك كلمة واحدة فانك فى آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لااله الا الله أشهد لك
بها عند الله تعالى قال ياابن أخى قد علمت انك صادق ولكنى أكره ان يقال خرع عند الموت
ولولا ان يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولاقررت بها عينك عند
الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ولكنى سوف أموت على ملة الاشياخ عبد
المطلب وهاشم وعبد مناف (المسئلة الثانية) انه تعالى قال فى هذه الآية انك لاتهدى
من أحببت وقال فى اية أخرى وانك لتهدى الى صراط مستقيم ولاتنافى بينهما فان الذى
اثبته وأضافه اليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدر وهو
نور يقذف فى القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا
الآية (المسئلة الثالثة) احتج الاصحاب بهذه الآية فى مسئلة الهدى والضلال فقالوا
قوله انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء يقتضى ان تكون الهداية
فى الموضعين بمعنى واحد لانه لو كان المراد من الهداية فى قوله انك لاتهدى شيئا وفى قوله
ولكن الله يهدى من يشاء شيئا آخر لاختل النظم ثم اما أن يكون المراد من الهداية بيان
الدلالة او الدعوة الى الجنة او تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة فى القلوب على سبيل
الالجاء او خلق المعرفة فى القلوب لا على سبيل الالجاء لاجائز ان يكون المراد بيان الادلة لانه
عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهى غير الهداية التى نفى الله عمومها وكذا القول
فى الهداية بمعنى الدعوة الى الجنة واما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهى ايضا غير
مرادة من الآية لانه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق
على المشيئة لانه واجب على الله تعالى والواجب لايكون معلقا على المشيئة فمن وجب عليه
اداء عشرة دنانير لايجوز ان يقول انى اعطى عشرة دنانير ان شئت واما الهداية بمعنى الالجاء
والقسر فغير جائز لان ذلك عندهم قبيح من الله تعالى فى حق المكلف وفعل القبيح مستلزم
للجهل او الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال
لايجوز تعليقه على المشيئة ولما بطلت الاقسام لم يبق الا ان المراد انه تعالى يخص البعض
بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ولايسأل عما يفعل ومتى اوردت الكلام على

على أن المراد بمن فى السموات و الارض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما فان ذلك معنى مجازى
عام له تعالى والاولى العلم من خلقه ومن موصولة او موصوفة * ٦١٨ * (وما يشعرون أيان يبعثون) أى متى ينشرون من
القبور مع كونه مما لابد لهم
منه ومن أهم الامور
عندهم وأيان مركبة
من أى وآن وقرئ
بكسر الهمزة والضمير
للكفرة وان كان عدم
الشعور بما ذكر عاما فلا
يلزم التفكيك بينه وبين
ما سيأتى من الضمائر
الخاصة بهم قطعا وقيل
الكل لمن واسناد خواص
الكفرة الى الجميع من
قبيل قولهم بنو فلان
فعلوا كذا والفاعل بعض
منهم (بل ادارك علمهم
فى الآخرة) لما نفى عنهم
علم الغيب واكد ذلك
بنفى شعورهم بوقت
ما هو مصيرهم لامحالة
بولغ فى تأكيده وتقريره
بأن أضرب عنه وبين
أنهم فى جهل أفحش من
جهلهم بوقت بعثهم
حيث لايعلمون أحوال
الآخرة مطلقا مع تعاضد
أسباب معرفتها على
أن معنى ادرك علمهم
فى الآخرة تدارك وتتابع
علمهم فى شأن الآخرة
التى ماذكر من البعث حال
من أحوالها حتى انقطع
ولم يبق لهم علم بشئ مما
سيكون فيها قطعا لكن لا على معنى أنه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيئا فشيئا بل على طريقة
المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية * هذا *

هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذرا عن ذلك اما قوله وهو أعلم بالمهتدين فالمعنى
انه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي ثم انه سبحانه بعد ان ذكر شبههم
وأجاب عنها بالاجوبة الواضحة وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي مالم ينضم اليه هداية الله
تعالى حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة باحوال الدنيا وهي قولهم ان نتبع الهدى معك
نتخطف من أرضنا قال المبرد الخطف الانتزاع بسرعة روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن
عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا لنعلم ان الذي تقوله حق ولكن يمنعنا من
ذلك تخطفنا من أرضنا أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من ارضنا فاجاب الله سبحانه
وتعالى عنها من وجوه (الاول) قوله أولم نمكن لهم حرما آمنا أي أعطيناكم مسكنا لاخوف
لكم فيه اما لان العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه فانه يروى
ان العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة وما كانوا يتعرضون البتة لسكان
الحرم أو لقوله تعالى ومن دخله كان آمنا اما قوله يجبى اليه ثمرات كل شيء فهو تعالى كما
بين كون ذلك الموضع خاليا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ومعنى يجبى يجمع
من قولهم جبيت الماء في الحوض اذا جمعته قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء وأهل الكوفة
وأبو عمرو بالياء وذلك ان تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي فيجوز تأنيثه
على اللفظ وتذكيره على المعنى ومعنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شيء وحاصل
الجواب انه تعالى لما جعل الحرم آمنا واكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة
الله تعالى مقبلين على عبادة الاوثان فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى قال القاضي
ولو أن الرسول قال لهم ان الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقا لم يكن عذرا لكم
في ان لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا أو قال لهم ان تخطفهم لكم بالقتل وغيره
وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضا ولو قال لهم ما قدر مضرة
التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه ان بقيتم على كفركم لانقطعوا لكنه
تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم في انهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال
البقعة بالعادة ان ذلك لا يجري ان آمنوا ومثل ذلك اذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من
سائر ما ذكرنا فلذلك قدمه الله تعالى والآية دالة على صحة الحجاج الذي يتوصل به الى ازالة
شبهة المبطلين بقي ههنا بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف في انتصاب رزقا ان جعلته
مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله لان معنى يجبى اليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل
شيء واحد وان يكون مفعولا له وان جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصيصها
بالاضافة كما ينتصب عن النكرة المخصصة بالصفة (الثاني) احتج الاصحاب بقوله رزقا
من لدنا في أن فعل العبد خلق الله تعالى وبيانه أن تلك الارزاق انما كانت تصل اليهم
لان الناس كانوا يحملونها اليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقا لله تعالى لما صحت تلك الاضافة
فان قيل سبب تلك الاضافة انه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك

والسمعية منزلة نفسه واجرائه اسقاطها عن درجة اعتبارهم كلا الاحظ وها مجرى تتابعها الى الانقطاع ثم أضرب وانتقل
عن بيان عدم علمهم بها الى بيان ماهو أسوأ منه وهو حيرتهم في ذلك حيث قيل (بل هم في شك منها) أي في شك مريب
من نفس الآخرة وتحققها لكن تحير في أمر لا يجد عليه دليلا فضلا عن الامور التي ستقع فيها ثم أضرب
عن ذلك الى بيان أن
ماهم فيه أشد وافظع
من الشك حيث قيل
(بل هم منها عمون)
بحيث لا يكادون يدركون
دلائلها لاختلال
بصائرهم بالكلية وقرئ
بل أدرك علمهم بمعنى
انتهى وفني وقد فسره
الحسن البصري باضمحل
علمهم وقيل كلتا
الصيغتين على معناهما
الظاهر أي تكامل
واستحكم أو تم أسباب
علمهم بأن القيامة
كائنة لا محالة من الآيات
القاطعة والحجج الساطعة
وتمكنوا من المعرفة
فضل تمكن وهم
جاهلون في ذلك وقوله
تعالى بل هم في شك
منها اضراب وانتقال
من وصفهم بمطلق
الجهل الى وصفهم
بالشك وقوله تعالى
بل هم منها عمون
اضراب من وصفهم
بالشك الى وصفهم
بما هو أشد منه وأفظع
من العمى وأنت خبير
بأن تنزيل أسباب العلم
منزلة العلم في سلوك
لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم
فيكون وصفا لهم بالجهل مبالغة والاضراب على ماذكروا أصل ادارك تدارك وبه قرأ أبي

الارزاق اليهم قلنا تلك الدواعى ان اقتضت الرجحان فقد بينا فى غير موضع انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب وحينئذ تحصل المقصود وان لم يحصل الرجحان انقطعت الاضافة بالكلية واعلم انه تعالى انما بين أن تلك الارزاق ماوصلت اليهم الا من الله تعالى لاجل انهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لايخافون أحدا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدا غير الله تعالى فيبقى نظرهم منقطعا عن الخلق متعلقا بالخالق وذلك يوجب كمال الايمان والاعراض بالكلية عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله تعالى ❊ قوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة وذلك لانه تعالى لما بين لاهل مكة ما خصوا به من النعم اتبعه بما انزله الله تعالى بالامم الماضية الذين كانوا فى نعم الدنيا فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا انا نخاف ان آمنا من زوال نعمة الدنيا فالله تعالى بين لهم أن الاصرار على عدم قبول الايمان هو الذى يزيل هذه النعم لا الاقدام على الايمان قال صاحب الكشاف البطر سوء احتمال الغنى وهو ان لايحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها اما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها واما تضمين بطرت معنى كفرت فاما قوله فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ففى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يسكنها الا المسافر ومار الطريق يوما وساعة (وثانيها) يحتمل ان شؤم معاصى المهلكين بقى اثره فى ديارهم فكل من سكنها من اعقابهم لم يبق فيها الا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك اهلها واذا لم يبق للشئ مالك معين قيل انه ميراث الله لانه الباقى بعد فناء خلقه ثم انه سبحانه لما ذكر انه اهلك تلك القرى بسبب بطر اهلها فكان سائلا اورد السؤال من وجهين (الاول) لماذا ما اهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع انهم كانوا مستغرقين فى الكفر والعناد (الثانى) لماذا ما اهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادى القوم فى الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم فأجاب عن السؤال الاول بقوله وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وحاصل الجواب انه تعالى قدم بيان ان عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم فوجب ان لايجوز اهلاكهم الا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين (احدهما) وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا أى فى القرية التى هى أمها وأصلها وقصبتها التى اعمالها وتوابعها رسولا لالزام الحجة وقطع المعذرة (الثانى) وماكان ربك مهلك القرى التى فى الارض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ومعنى يتلو عليهم آياتنا يؤدى ويبلغ وأجاب عن السؤال الثانى

بتاء مثناة وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادارك وقرئ بل ادرك وأصله افتعل وبل أأدرك بهمزتين وبل آأدرك بألف بينهما وبل ادرك بالتخفيف والنقل وبل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام وبلى ادرك وبلى أأدرك وأم تدارك ❊ ٦٢٠ ❊ وأم أدرك فهذه ثنتاعشرة قراءة ففيه استفهام صريح او مضمن من ذلك فهو انكار ونفى وما فيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسير له بالادراك على وجه التهكم الذى هو ابلغ وجوه النفى والانكار ومابعده اضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون اورد وانكار اشعورهم (وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم منها بحكاية انكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بمافى حيز صلته والاشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) أى أنخرج من القبور اذا كنا ترابا كما ينبئ عنه مخرجون ولامساغ لأن يكون هو العامل فى اذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الاخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد الموت مطلقا وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه الى الاخراج فى حالة منافية له وقوله تعالى ❊ بقوله ❊ وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل

مع الخبر مقام الفصل بالتاكيد وتكرير الهمزة فى أثنا للمبالغة والتشديد فى الانكار وتحلية الجملة بان واللام لتا كيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى

عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ اذا كنا بهمزة واحدة مكسورة وقرئ انا لمخرجون على الخبر (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج (نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لانه المقصود بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد التاكيد وقوله تعالى (ان هذا إلا اساطير الاولين) تقرير اثر تقرير (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بسبب تكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم اليه من الايمان بالله عزوجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة عاقبتهم مافيه كفاية لاولى الابصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم (ولا تحزن عليهم) لاصرارهم على الكفر والتكذيب

بقوله وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم انهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله انهم وان لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا * قوله تعالى (وما اوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى أفلا تعقلون افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) اعلم ان هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لان حاصل شبهتهم انهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ما عند الله خير وابقى أما انه خير فلوجهين (أحدهما) ان المنافع هناك اعظم (وثانيهما) انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر واما انها أبقى فلانها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهى بغير المتناهى كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس الى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس الى البحر فظهر من هذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال افلا تعقلون يعنى ان من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ورحم الله الشافعى حيث قال من اوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من اعطى القليل واخذ الكثير وماهم الا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله انما اخذه من هذه الآية ثم انه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهوانا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهى الى الانقطاع والفناء وماكانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف اذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى ان نعم الآخرة راجحة عليها وهذا هو المراد بقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه فهو يكون كمن اعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب والمقصود انهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى لكنت من المحضرين فانهم لمحضرون وفى لفظه اشعار به لان الاحضار مشعر بالتكليف والالزام وذلك لا يليق بمجالس اللذة انما يليق بمجالس الضرر والمكاره * قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ماكانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ

(ولا تكن فى ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فان الله تعالى يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد وهو أيضا مصدر ويجوز أن يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك اى

لاتكن فى أمر ضيق (و يقولون متى هذا الوعد) اى العذاب العاجل الموعود (ان كنتم صادقين) فى اخباركم باتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك (قل عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴿٦٢٢﴾ أوالفعل مضمن معنى فعل يعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه (بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وانما يطلقونها اظهار اللوقار واشعارا بأن الرمز من امثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك مجرى وعدالله تعالى ووعيده واشار ماعليه النظم الكريم على أن قال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقيق الوعد (وان ربك لذو فضل على الناس) أى لذو افضال وانعام على كافة الناس ومن جملة انعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على مايرتكبونه من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب (ولكن اكثرهم لايشكرون) لايعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء (وان ربك ليعلم ماتكن صدورهم) أى ماتخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت الشئ اذا سترته (ومايعلنون) من الافعال والاقوال التى من جملتها ماحكى عنهم من استعجال العذاب وفيه ايذان بان لهم قبائح غير مايظهرونه وأنه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن قدمر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولايعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون

فهم لايتساءلون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية انه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله و يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قدعرفوا بطلان ماكانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ماكنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون انه يشفع أين هو لينصركم و يخلصكم من هذا الذى نزل بكم ثم بين تعالى مايقوله من حق عليه القول والمراد من القول هو قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ومعنى حق عليه القول أى حق عليه مقتضاه واختلفوا فى أن الذين حق عليهم هذا القول من هم فقال بعضهم الرؤساء الدعاة الى الضلال وقال بعضهم الشياطين قوله ربنا هؤلاء الذين أغوينا هؤلاء مبتدأ والذين اغوينا صفته والراجع الى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ماغوينا والمراد كما ان غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعنى ان اغواءنا لهم ماألجأهم الى الغواية بل كانوا مختارين بالاقدام على تلك العقائد والاعمال وهذا معنى ماحكاه الله عن الشيطان انه قال ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم وقال تعالى لابليس ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فقوله الا من اتبعك يدل على ان ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لامن قبل الجاء الشيطان الى ذلك ثم قال تبرأنا اليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ماكانوا ايانا يعبدون انما كانوا يعبدون أهواءهم والحاصل انهم يتبرؤن منهم كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وأيضا فلا يمتنع فى قوله تعالى أين شركائى ان يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيرهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى واذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا الهنا هؤلاء ماعبدونا انما عبدوا أهواءهم الفاسدة (وثانيها) قوله تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم والاقرب أن هذا على سبيل التقريع لانهم يعلمون انه لافائدة فى دعائهم لهم فالمراد انهم لو دعوهم لم يوجد منهم اجابة فى النصرة وأن العذاب ثابت فيهم وكل ذلك على وجه التوبيخ وفى ذكره ردع وزجر فى دار الدنيا فاما قوله تعالى لوأنهم كانوا يهتدون فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولوأنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ماأبصروه فى الآخرة (وثانيها) لوانهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون اذا رأوا العذاب و يؤكد ذلك قوله تعالى لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وعندى أن الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (احدها) ان الله تعالى اذا

خاطبهم

(وما من غائبة فى السماء والارض) أى من خافية فيهما وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما فى الرواية أو اسمان
لما يغيب ويخفى والتاء للنقل الى الاسمية (الا فى كتاب مبين) أى بين أو مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل
هو القضاء العدل بطريق الاستعارة ﴿٦٢٣﴾ (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل اكثر الذى هم فيه
يختلفون) من جملته ما اختلفوا فى شان المسيح وتحزبوا فيه أحزابا وركبوا متن العتو والغلو فى الافراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكد فى أشياء حتى بلغ المشاقة الى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الامر لو كانوا فى حيز الانصاف (وانه لهدى ورحمة للمؤمنين) على الاطلاق فيدخل فيهم من آمن من بنى اسرائيل دخولا اوليا (ان ربك يقضى بينهم) أى بين بنى اسرائيل (بحكمه) بما يحكم به وهو الحق او بحكمة ويؤيده أنه قرئ بحكمة (وهو العزيز) فلا يرد حكمه وقضاؤه (العليم) بجميع الاشياء التى من جملتها ما يقضى به والفاء فى قوله تعالى (فتوكل على الله) لترتيب الامر على ما ذكر من شؤنه عز وجل فانها موجبة للتوكل عليه وداعية الى الامر به أى فتوكل على الله الذى هذا شانه فانه
موجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره اليه وقوله تعالى (انك على الحق المبين) تعليل صريح
للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين او الفاصل بينه وبين الباطل او بين المحق والمبطل
فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى

خاطبهم بقوله ادعوا شركاءكم فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شئ كالدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيأ فقال تعالى ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون شيأ اما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيأ لاجرم ما رأوا العذاب (وثانيها) انه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهى الاصنام انهم لا يجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون أى هذه الاصنام كانوا يشاهدون العذاب او كانوا من الاحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب فان قيل قوله ورأوا العذاب ضمير لا يليق الا بالعقلاء فكيف يصح عوده الى الاصنام قلنا هذا كقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وانما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقيقة هذا العذاب فى الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الامر الثالث) من الامور التى يسأل الله الكفار عنها قوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء أى فصارت الانباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لانهم يتساوون جميعا فى عمى الانباء عليهم والعجز عن الجواب وقرئ فعميت واذا كانت الانبياء لهول ذلك يتعتعون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوضون الامر الى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب فما ظنك بهؤلاء الضلال (قال) القاضى هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لان فعلهم لو كان خلقا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والارادة لما عميت عليهم الانباء ولقالوا انما اتينا فى تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لان الشيطان كان له أن يقول انما غويت بخلقك فى الغواية وانما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم فى ذلك قوية والعذر ظاهرا (والجواب) ان القاضى لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب الا ويعيد استدلاله بها وكما أن وجه استدلاله فى الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو ان علم الله تعالى بعدم الايمان مع وقوع الايمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الايمان اذا أمر بادخال الايمان فى الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين والذى اعتمد القاضى عليه فى دفع هذا الحرف فى كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول انه يمكن وخطأ قول من يقول انه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب الا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرا فثبت أن الاشكال مشترك والله أعلم ❊ قوله تعالى (فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى

ونصرته وتأييده لامحالة وقوله تعالى (انك لاتسمع الموتى) الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل الى الله تعالى
وتفويض الامر اليه والاعراض عن التشبث بما سواه وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاءه بالحق وعزته
وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام
على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى اعانته تعالى ﴿٦٢٤﴾ وتأييده للمحق ثم علل ثالثا بما يوجبه
لكن لابالذات بل بواسطة
ايجابه للاعراض عن
التشبث بما سواه تعالى
فان كونهم كالموتى
والصم والعمى موجب
لقطع الطمع عن مشايعتهم
ومعاضدتهم رأسا
وداع الى تخصيص
الاعتضاد به تعالى وهو
المعنى بالتوكل عليه تعالى
وانما شبهوا بالموتى لعدم
تأثرهم بما يتلى عليهم
من القوارع واطلاق
الاسماع عن المفعول
لبيان عدم سماعهم
لشئ من المسموعات ولعل
المراد تشبيه قلوبهم بالموتى
فيما ذكر من عدم الشعور
فان القلب مشعر من
المشاعر أشير الى بطلانه
بالمرة ثم بين بطلان
مشعرى الاذن والعين
كما فى قوله تعالى لهم
قلوب لايفقهون بها
ولهم أعين لايبصرون
بها ولهم آذان لايسمعون
بها والا فبعد تشبيه
أنفسهم بالموتى لايظهر
لتشبيههم بالصم والعمى
مزيد مزية (ولاتسمع الصم الدعاء) أى الدعوة الى أمر من الامور وتقييد النفى بقوله تعالى (اذا ولوا مدبرين ﴿الجزء
لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فانهم مع صممهم عن الدعاء الى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولاريب
فى أن الاصم لايسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريبا منه فكيف اذا كان خلفه بعيدا منه

عما يشركون وربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون وهو الله لااله الاهو له الحمد فى
الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون) اعلم انه تعالى لمابين حال المعذبين من
الكفار ومايجرى عليهم من التوبيخ اتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيبا فى التوبة
وزجرا عن الثبات على الكفر فقال فامامن تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من
المفلحين وفى عسى وجوه (أحدها) انه من الكرام تحقيق والله أكرم الاكرمين (وثانيها)
ان يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال فليطمع فى الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا
كذلك ان داموا على التوبة والايمان لجواز ان لايدوموا واعلم أن القوم كانوا يذكرون
شبهة اخرى ويقولون لولانزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم بعنوان الوليد بن
المغيرة أوأبامسعود الثقفى فأجاب الله تعالى عنه بقوله وربك يخلق مايشاء ويختار والمراد
انه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بماشاء لااعتراض عليه
البتة وعلى طريق المعتزلة لماثبت انه حكيم مطلق علم انه كل مافعله كان حكمة وصوابا
فليس لاحد أن يعترض عليه وقوله ماكان لهم الخيرة والخيرة اسم من الاختيار قام مقام
المصدر والخيرة أيضا اسم للمختار يقال محمد خيرة الله فى خلقه اذا عرفت هذا فنقول
فى الآية وجهان (الاول) وهو الاحسن أن يكون تمام الوقف على قوله ويختار ويكون
مانفيا والمعنى وربك يخلق مايشاء ويختار ليس لهم الخيرة اذليس لهم ان يختاروا على الله
أن يفعل (والثانى) أن يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله وربك يخلق مايشاء
ثم يقول ويختار ماكان لهم الخيرة (قال) أبو القاسم الانصارى وهذا متعلق المعتزلة
فى ايجاب الصلاح والاصلح عليه وأى صلاح فى تكليف من علم انه لايؤمن ولولم يكلفه
لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله فان قيل لما كلفه استوجب على الله ماهو الافضل
لان المستحق أفضل من المتفضل به قلنا اذا علم قطعا انه لايحصل ذلك الافضل فتوريطه
فى العقاب الابدى لايكون رعاية للمصلحة ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل
لان ذلك التفاوت انما يحصل فى حق من يستنكف من تفضله اما الذى ماحصل الذات
والصفات الابخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ثم قال سبحان الله
وتعالى عما يشركون والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والاذلال مفوض
اليه ليس لاحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ماتكن صدورهم من عداوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايعلنون من مطاوعتهم فيه وقولهم هلا اختير غيره فى النبوة
ولمابين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال وهو الله لااله الاهو وفيه تنبيه
على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات
يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع
للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ويحتمل أيضا انه لمابين فساد طريق المشركين من
قوله ويوم يناديهم فيقول أين شركائى ختم الكلام فى ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان ان

وقرئ ولايسمع الصم الدعاء (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) هداية موصلة الى
لاتهدى من أحببت فان الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى الصرف وقيل بالعمى يقال عمى
عن كذا وفيه بعد وايراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية وقرئ وما أنت تهدى العمى (ان تسمع)

الحمد والثناء لايليق الا به اما قوله له الحمد فى الاولى والآخرة فهو ظاهر على قولنا لان الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا واحسانا فله الحمد فى الاولى والآخرة ويؤكد ذلك قول أهل الجنة الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين اما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله أهل الجنة واما أهل النار فما انعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم قال القاضى انه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضا بما فعله بهم فى الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم لانهم باساءتهم لايخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر وهذا فيه نظر لان أهل الآخرة مضطرون الى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة ان التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة ان الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم فى استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة كلا بل لابد أن يتوبوا وان يشتغلوا بالشكر ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب اما قوله وله الحكم فهو اما فى الدنيا أو فى الآخرة فاما فى الدنيا فحكم كل أحد سواه انما نفذ بحكمه فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الامة حكم الرسول فهو الحاكم فى الحقيقة واما فى الآخرة فلاشك انه هو الحاكم لانه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة فينتصف للمظلومين من الظالمين اما قوله واليه ترجعون فالمعنى والى محل حكمه وقضائه ترجعون فان كلمة الى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة ۞ قوله تعالى

(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون فصل عقيب ذلك بعض ما يجب عليه مما لايقدر عليه سواه فقال لرسوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة فنبه على أن الوجه فى كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لان المرء فى الدنيا وفى حال التكليف مدفوع الى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لايتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه فاما فى الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم الى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات فبين تعالى انه لا قادر على ذلك الا الله تعالى وانما قال أفلا تسمعون أفلا تبصرون لان الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا

اى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا (الا من يؤمن بآياتنا) اى من من شأنهم الايمان بها وايراد الاسماع فى النفى والاثبات دون الهداية مع قربها بها بان يقال ان تهدى الا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو اسماع الآيات التنزيلية (فهم مسلمون) تعليل لايمانهم بها كأنه قيل فانهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله (واذا وقع القول عليهم) بيان لما أشير اليه بقوله تعالى بعض الذى تستعجلون من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجئ الساعة وما فيها من فنون الاهوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للايذان بشدة وقوعها وتأثيرها واسناده الى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث انها مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد
أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما فى قوله تعالى أتى أمر الله اى اذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه (أخرجنا لهم دابة من الارض) وهى الجساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد ابهامه بالتنوين التفخيمى

نزلوا منزلة من لايسمع ولايبصر قال الكلبى قوله افلا تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطا والضلال قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد فان قيل هلا قال بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة وانما قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لان غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ومن رحمته زواج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة لتسكنوا فى أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضله فى الآخر وهو النهار ولاداء الشكر على المنفعتين معا واعلم انه وان كان السكون فى النهار ممكنا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا الا أن الاليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به ❊ قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين أولا ثم ذكر التوحيد ودلائله ثانيا عاد الى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال ويوم يناديهم اى فى القيامة فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون والمعنى أين الذين ادعيتم الهيتهم لتخلصكم أو أين قولكم تقربنا الى الله زلفى وقد علموا أن لا اله الا الله فيكون ذلك زائدا فى غمهم اذا خوطبوا بهذا القول أما قوله تعالى ونزعنا من كل أمة شهيدا فالمراد ميزنا واحدا ليشهد عليهم ثم قال بعضهم هم الانبياء يشهدون بانهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا فى ايضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدا فى غمهم وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الانبياء وهذا أقرب لانه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بان ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الاحوال التى لم يوجد فيها النبى وهى أزمنة الفترات والازمنة التى حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله وضل عنهم غاب عنهم غيبة الشئ الضائع ما كانوا يفترون من الباطل والكذب ❊ قوله تعالى (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين قال انما أوتيته على علم عندى أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم

❊ موسى ❊

من الدلالة على غرابة شانها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى وقد ورد فى الحديث أن طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى أن لها أربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقى خلقها خلق الطير وروى عن على رضى الله عنه أنه قال ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير الى أنه رجل والمشهور أنها دابة وروى لا تخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن على رضى الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم الا ثلثها وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعنى المسجد الحرام وروى أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج باقصى اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرا طويلا فبينا الناس فى أعظم المساجد حرمة على الله تعالى واكرمها فما يهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة وقيل يخرج من الصفا وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب

موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدل على انه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضا حمله على القرابة قال الكلبي انه كان ابن عم موسى عليه السلام لانه كان قارون بن يصهر بن قاهث ابن لاوى وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق انه كان عم موسى عليه السلام لان موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث وعن ابن عباس انه كان ابن خالته ثم قيل انه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان اقرأ بنى اسرائيل للتوراة الا انه نافق كما نافق السامرى ❊ أما قوله فبغى عليهم ففيه وجوه (أحدها) انه بغى بسبب ماله وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الايمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله (والثانى) انه من الظلم قيل ملكه فرعون على بنى اسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال بغى عليهم اى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوافقهم فى أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب بغيه عليهم انه زاد عليهم فى الثياب شبر وهذا يعود الى التكبر (السابع) قال الكلبي بغيه عليهم انه حسد هرون على الحبورة يروى ان موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة فوجد قارون من ذلك فى نفسه فقال ياموسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست فى شئ ولا أصبر أنا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له وقال والله لا أصدقك أبدا حتى تأتينى بآية أعرف بها ان الله جعل ذلك لهرون قال فامر موسى عليه السلام رؤساء بنى اسرائيل أن يجئ كل رجل منهم بعصاه فجاؤا بها فالقاها موسى عليه السلام فى قبة له وكان ذلك بأمر الله تعالى فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى ياقارون أما ترى ما صنع الله لهرون فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون فيضعها فى المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها وأعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال والتبع من بنى اسرائيل فما كان يأتى موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى أبو امامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى ❊ أما قوله وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ففيه ابحاث (الاول) قال الكعبى ألستم تقولون ان الله لا يعطى الحرام فكيف أضاف الله مال قارون الى نفسه بقوله وآتيناه وأجاب بأنه لا حجة فى انه كان حراما ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك وكان هذا الظفر طريق التملك أو وصل اليه بالارث من جهات ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا (البحث الثانى) المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو

الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلى المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن فى مسجده بالعصا فتنكت نكتة بيضاء فتفشو حتى يضئ لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يافلان من أهل الجنة وأنت يافلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وروى أبو هريرة عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يارسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق قوله تعالى (تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) اى تكلمهم بانهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجئ الساعة ومباديها أو بجميع اياته التى من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التى من جملتها خروجها بين يدى الساعة والاول هو الحق كما ستحيط به علما وقرئ بان الناس الآية واضافة الآيات الى نون العظمة لانها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لانها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى واثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وانما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف اى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الايقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للايذان بانه كان من حقهم أن يوقنوا بها

مايفتح به وقيل هى الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم و يقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى فى اخوة يوسف عليه السلام ونحن عصبة وكانوا عشرة لان يوسف وأخاه لم يكونا معهم * اذا عرفت معنى الالفاظ فنقول ههنا قولان أحدهما ان المراد بالمفاتح المفاتيح وهى التى يفتح بها الباب قالوا كانت مفاتيحه من جلود الابل وكل مفتاح مثل اصبع وكان لكل خزانة مفتاح وكان اذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ومن الناس من طعن فى هذا القول من وجهين (الاول) ان مال الرجل الواحد لايبلغ هذا المبلغ ولوانا قدرنا بلدة مملوأة من الذهب والجواهر لكفاها اعداد قليلة من المفاتيح فأى حاجة الى تكثير هذه المفاتيح (الثانى) أن الكنوز هى الاموال المدخرة فى الارض فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح والجواب عن الاول ان المال اذا كان من جنس العروض لامن جنس النقد جاز أن يبلغ فى الكثرة الى هذا الحد وأيضا فهذا الذى يقال ان تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ليس مذكورا فى القرآن فلا تقبل هذه الرواية وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة وكان كل واحد منها معينا لشئ آخر فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد وعن الثانى أن ظاهر الكنز وان كان من جهة العرف ماقالوا فقد يقع على المال المجموع فى المواضع التى عليها أغلاق (القول الثانى) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار ابى مسلم أن المراد من المفاتح العلم والاحاطة كقوله وعنده مفاتح الغيب والمراد آتيناه من الكنوز ماأن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولى القوة والهداية اى هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها ثم انه تعالى بين انه كان فى قومه من وعظه بأمور (احدها) قوله لاتفرح ان الله لايحب الفرحين والمراد أن لايلحقه من البطر والتمسك بالدنيا مايلهيه عن أمر الآخرة أصلا وقال بعضهم انه لايفرح بالدنيا الامن رضى بها واطمأن اليها فامامن يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وماأحسن ماقال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ماقال تعالى لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بماآتاكم قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ماكان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة والظاهر انه كان مقرا بالآخرة والمراد أن يصرف المال الى مايؤديه الى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله ولاتنس نصيبك من الدنيا وفيه وجوه (احدها) لعله كان مستغرق الهم فى طلب الدنيا فلاجل ذلك ماكان يتفرغ

ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرئ ان الناس بالكسر على اضمار القول أواجراء الكلام مجراه والكلام فى الاضافة كالذى سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل اخراجها أو تكليمها ويرده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فانه صريح فى كونه حكاية لعدم ايقانهم السابق فى الدنيا والمراد بالناس اما الكفرة على الاطلاق أومشركو مكة وقد روى عن وهب أنها تخبر كل من تراه ان أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لايوقنون وقرئ تكلمهم من الكلم الذى هو الجرح والمراد به مانقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة أيضا منه لمعنى التكثير ولايخفى بعده (ويوم نحشر من كل امة فوجا) بيان اجمالى لحال المكذبين عندقيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ماوقع فيه من الحوادث قدمر بيان سره مرارا أى واذكر لهم وقت حشرنا اى جمعنا من كل امة من أمم الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لان كل امة منقسمة الى مصدق ومكذب قوله تعالى ﴿للتنعم﴾ (ممن يكذب بآياتنا) بيان للفوج أى فوجا مكذبين بها (فهم يوزعون) اى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد اطرافهم مالايخفى

للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال الى الاخرة بين له بهذا الكلام انه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الانفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل و يشرب قال عليه السلام فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده مابعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار (ورابعها) قوله وأحسن كما أحسن الله اليك لما أمره بالاحسان بالمال أمره بالاحسان مطلقا و يدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر وانما قال كما أحسن الله اليك تنبيها على قوله ولئن شكرتم لأزيدنكم (وخامسها) قوله ولا تبغ الفساد فى الارض والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل ان هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون بل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لوقبل لم يكن عليه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال انما أوتيته على علم عندى وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبى كان قارون اقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال انما أوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم و يوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبا (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) ان يكون قوله انما أوتيته على علم عندى اى الله أعطانى ذلك مع كونه عالما بى و بأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله عندى اى عندى ان الامر كذلك كما يقول المفتى عندى ان الامر كذلك اى مذهبى واعتقادى ذلك ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أولم يعلم أن الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعا وفيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون هذا اثباتا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لانه قد قرأه فى التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك كانه لما قال أوتيته على علم عندى فتصلف بالعلم وتعظم به قيل اعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين أما قوله وأكثر جمعا فالمعنى اكثر جمعا للمال أو اكثر جماعة وعددا وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطا العظيم وانه تعالى اذا أراد اهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه اضعافا فاما قوله ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به الى السؤال فان قيل كيف الجمع بينه و بين قوله

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدى أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الامم بين أيديهم الى النار (حتى اذا جاؤا) الى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب (قال) اى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة (أكذبتم بآياتى) الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى (ولم تحيطوا بها علما) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للانكار والتوبيخ اى أكذبتم بها بادئ الرأى غير ناظرين فيها نظرا يؤدى الى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى أن المراد بالآيات فيما سلف فى الموضعين هى الآيات القرآنية لانها المنطوية على دلائل الصحة و شواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا و يتدبروا فيها لانفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم اى أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها (أم ماذا كنتم تعملون) اى أم أى شئ كنتم تعملون بها أو أم أى شئ كنتم تعملون غير ذلك بمعنى انه لم يكن لهم عمل غير ذلك كأنهم لم يخلقوا الا للكفر و المعاصى مع أنهم ما خلقوا الا للايمان والطاعة يخاطبون بذلك تبكيتا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى (ووقع القول عليهم) اى حل بهم العذاب الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله (بما ظلموا)

بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقون) لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الاليم (ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) الرؤية قلبية لابصرية لان نفس الليل والنهار وان كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات اى ألم يعلموا أنا * ٦٣٠ * جعلنا الليل بما فيه من الاظلام

فوربك لنسألنهم أجمعين فلنا ان نحمل ذلك على وقتين على ما قررناه وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتقرير والتبكيت وقد يكون للاستعتاب وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون * قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أما قوله فخرج على قومه فى زينته فيدل على انه خرج باظهر زينة وأكملها وليس فى القرآن الا هذا القدر الا أن الناس ذكروا وجوها مختلفة فى كيفية تلك الزينة قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الارجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب وقال بعضهم بل خرج فى تسعين ألفا هكذا وقال آخرون بل على ثلثمائة والاولى ترك هذه التقريرات لانها متعارضة ثم ان الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب فى الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون من هذه الامور والاموال والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم لان الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاثة قال صاحب الكشاف ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى اما قوله ولا يلقاها الا الصابرون فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير فى يلقاها الى ماذا يعود فيه وجهان (احدهما) الى ما دل عليه قوله آمن وعمل صالحا يعنى هذه الاعمال لا يؤتاها الا الصابرون (والثانى) قال الزجاج يعنى ولا يلقى هذه الكلمة وهى قولهم ثواب الله خير الا الصابرون على اداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار واما قوله فخسفنا به وبداره الارض ففيه وجهان (احدهم) انه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الارض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك لان الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل ان قارون كان يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال ان موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت قال نبرطل فلانة البغى حتى تنسبه الى نفسها فيرفضه بنو اسرائيل فجعل لها طشتا من ذهب مملوأ ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يابنى اسرائيل من سرق قطعناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان أحصن

ليستريحوا فيه بالنوم والقرار (والنهار مبصرا) اى ليبصروا بما فيه من الاضاءة طرق التقلب فى أمور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الابصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الابصار (أن فى ذلك) اى فى جعلهما كما وصفا وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته فى الفضل (لآيات) اى عظيمة كثيرة (لقوم يؤمنون) دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وان من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة على حكم رائقة تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه * رجحناه الذى هو مثل الحياة قضى بان الساعة آتية لا ريب فيها

رجمناه فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يقولون انك
فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق
فتداركها الله تعالى فقالت كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي فخر
موسى ساجدا يبكي وقال يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله عز وجل اليه أن
مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يا بني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني
الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال
يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم
فأخذتهم الى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون الى موسى عليه السلام ويناشدونه
بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت الارض عليهم
فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم اما وعزتي
لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا
موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ثم ان قارون
يخسف به كل يوم مائة قامة قال القاضي اذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الارض
الى الارضين السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة في الزجر واما
قولهم انه تعالى قال لو استغاث بي لاغثته فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فاما
وهو ثابت على ما هو عليه مع انه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لان موسى عليه السلام
ما فعله الا عن أمره فبعيد وقولهم انه يتجلجل في الارض أبدا فبعيد لانه لا بد له من نهاية
وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها
قليلة الفائدة لانها من باب اخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسئلة مسئلة عملية
حتى يكتفى فيها بالظن ثم انها في أكثر الامر متعارضة مضطربة فالاولى طرحها والاكتفاء
بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب اما قوله وما كان
من المنتصرين فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال
نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع * قوله تعالى (وأصبح الذين تمنوا مكانه
بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا
لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا
في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته
لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه
السلام وداعيا الى الرضاء بقضاء الله تعالى وقسمته والى اظهار الطاعة والانقياد لانبياء
الله ورسله اما قوله ويكأن الله فاعلم ان وي كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند
التنبه للخطأ واظهار التندم فلما قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون ثم شاهدوا الخسف
تنبهوا لخطئهم فقالوا وي ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب

وأن الله يبعث من في القبور قضاء متقنا وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا انموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات
الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى (ويوم ينفخ في الصور)
اما معطوف على يوم يحشر منصوب بناصبه ﴿٦٣١﴾ أو بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذي ينفخ فيه
اسرافيل عليه السلام
عن أبي هريرة رضي الله
عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال لما فرغ الله
تعالى من خلق السموات
والارض خلق الصور
فأعطاه اسرافيل فهو
واضعه على فيه شاخص
بصره الى العرش متى
يؤمر قال قلت يا رسول الله
ما الصور قال القرن قال
قلت كيف هو قال عظيم
والذي نفسي بيده ان
عظم دارة فيه كعرض
السماء والارض فيؤمر
بالنفخ فيه فينفخ نفخة
لا يبقى عندها في الحياة
أحد غير من شاء الله تعالى
وذلك قوله تعالى ونفخ
في الصور فصعق من في
السموات ومن في الارض
الا من شاء الله ثم يؤمر
بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى
معها ميت الا بعث وقام
وذلك قوله تعالى ثم نفخ
فيه أخرى فاذا هم قيام
ينظرون والذي يستدعيه
سياق النظم الكريم
وسياقه أن المراد بالنفخ
ههنا هي النفخة الثانية
وبالفزع في قوله تعالى
(ففزع من في السموات
ومن في الارض) ما يعتري الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الامور الهائلة الخارقة للعادات في الانفس

مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه و يضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل
لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيبويه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال ان وى
مفصولة من كأن وان القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ماسلف منهم وى وذكر الفراء
وجهين (احدهما) ان المعنى ويلك فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام
وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله وهذا قول قطرب حكاه عن
يونس (الثانى) وى منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وى أما ترى ما بين
يديك فقال الله وى ثم استأنف كأن الله يبسط فالله تعالى انما ذكرها تعجيبا لخلقه قال
الواحدى وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها مفصلة ولو كان على ماقالوه
لكتبوها منفصلة وأجاب الاولون بان خط المصحف لايقاس عليه ثم قالوا لولا أن من الله
علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون وهذا تأكيد لماقبله أما قوله تلك الدار الآخرة
فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق
الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلب اليهما وعن على عليه
السلام ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل
تحتها قال صاحب الكشاف والطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله ان فرعون علا
فى الارض والفساد لقارون لقوله ولا تبغ الفساد فى الارض ويقول من لم يكن مثل فرعون
وقارون فله تلك الدار الآخرة ولايتدبر قوله والعاقبة للمتقين كما تدبره على بن أبى طالب
عليه السلام ۞ قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى
الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى
معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين وما كنت ترجو أن يلقى اليك
الكتاب الارحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ
انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن مشركين ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل
شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) اعلم أنه تعالى لما بين ان الدار الآخرة
ليست لمن يريد علوا فى الارض ولا فسادا بل هى للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم
فقال من جاء بالحسنة فله خير منها وفيه وجوه (احدها) المعنى من جاء بالحسنة حصل له
من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شئ هو أفضل من تلك الحسنة ومعناه انهم
يزادون على ثوابهم وقدمر تفسيره فى آخر النمل واما قوله ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين
عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون فظاهره أن لا يزادوا على ما يستحقون واذا صح ذلك
فى السيئات دل على ان المراد فى الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على
الثواب قال صاحب الكشاف تقدير الآية ومن جاء بالسيئة فلا يجزون الا ما كانوا يعملون
لكنه كرر ذلك لان فى اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة

والا فاق من الرعب والتهيب الضرور بين الجبليين وايراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه أعنى ينفخ مضارعا للدلالة
على تحقق وقوعه اثر النفخ ولعل تأخير بيان الاحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان مايقع بعدها من حشر المكذبين
من كل أمة لتثنية التهويل بتكرير التذكير ايذانا بان كل واحد منهما ﴿٦٣٢﴾ طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة
بالتذكير على حيالها
ولوروعى الترتيب الوقوعى
لربما توهم أن الكل داهية
واحدة وقد أمر بذكرها
كما مر فى قصة البقرة (الا
من شاء الله) اى أن لا يفزع
قيل هم جبريل وميكائيل
واسرافيل وعزرائيل
عليهم السلام وقيل الحور
والخزنة وحملة العرش
(وكل) اى كل واحد
من المبعوثين عند النفخة
(أتوه) حضروا الموقف
بين يدى رب العزة جل
جلاله للسؤال والجواب
والمناقشة والحساب
وقرئ أتاه باعتبار لفظ
الكل كما أن القراءة الاولى
باعتبار معناه وقرئ أتوه
اى حاضروه (داخرين)
اى صاغرين وقرئ
دخرين وقوله تعالى
(وترى الجبال) عطف
على ينفخ داخل فى حكم
التذكير وقوله عزوجل
(تحسبها جامدة) اى
ثابتة فى أماكنها اما
بدل منه أو حال من ضمير
ترى أو من مفعوله وقوله
تعالى (وهى تمر مر
السحاب) حال من ضمير
الجبال فى تحسبها أوفى
جامدة اى تراها رأى العين ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب التى تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك أن ﴿ تبغيض ﴾
الاجرام العظام اذا تحركت نحو سمت لاتكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال

تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين وهذا من فضله العظيم انه لا يجزى بالسيئة الا مثلها ويجزى بالحسنة عشر أمثالها وههنا سؤالان (السؤال الاول) قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها كرر ذلك الاحسان واكتفى بذكر الاساءة بمرة واحدة وفي هذه الآية كرر ذكر الاساءة مرتين واكتفى في ذكر الاحسان بمرة واحدة فما السبب الجواب لان هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب لان المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة الى الآخرة واما الآية الاخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم اولى (السؤال الثاني) كيف قال لا تجزى السيئة الا مثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا مات في الحال عذب أبد الآباد والجواب لانه كان على عزم انه لو عاش أبدا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه (قال الجبائي) وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الاطفال عذابا دائما بغير جرم قلنا لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه ثم انه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال أبو على الذى فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت الى معاد وتنكير المعاد لتعظيمه كأنه قال الى معاد وأى معاد أى ليس لغيرك من البشر مثله وقيل المراد به مكة ووجهه أن يراد برده اليها يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لاهلها واظهار عز الاسلام واذلال حزب الكفر والسورة مكية فكان الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده اليها ظاهرا ظافرا وقال مقاتل انه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع الى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة واشتاق اليها وذكر مولده ومولد أبيه فنزل جبريل عليه السلام وقال تشتاق الى بلدك ومولدك فقال عليه السلام نعم فقال جبريل عليه السلام فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد يعنى الى مكة ظاهرا عليهم وهذا أقرب لان ظاهر المعاد انه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لا يليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا أحد ما يدل على نبوته لانه اخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا ثم قال قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ووجه تعلقه بما قبله ان الله تعالى لما وعد رسوله الرد الى معاد قال قل للمشركين ربى أعلم من جاء بالهدى يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب في المعاد والاعزاز بالاعادة الى مكة ومن هو في ضلال مبين يعنيهم وما يستحقون من العقاب في معادهم ثم قال لرسوله وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ففي كلمة الا وجهان (أحدهما) انها للاستثناء ثم قال صاحب الكشاف هذا كلام محمول على

نار عن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج وقد ادمج في هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما في قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وهذا أيضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عزوجل الارض غير الارض ﴿٦٣٣﴾ ويغير هيآتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهي وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعي وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعي الذي هو اسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لا يكون الا بعد النفخة الثانية وقد قالوا في تفسير قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم ان صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل ان المراد هي النفخة الاولى والفزع هو الذي يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما في قوله تعالى ﴿٨٠ س﴾ فصعق من في السموات ومن في الارض الآية فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم وجوز ان يراد بالاتيان داخرين

رجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى أن ذلك مما ينبغى أن ينزه ساحة التنزيل عن أمثاله وابعد من هذا ما قيل
ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق وهى التى أريدت بقوله تعالى ما ينظر هؤلاء الاصيحة
واحدة مالها من فواق فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر ﴿٦٣٤﴾ مر السحاب فتكون سرابا وترج الارض بأهلها
رجا فتكون كالسفينة
الموثقة فى البحر أو
كالقنديل المعلق ترجحه
الارواح فانه مما لا ارتباط
له بالمقام قطعا والحق
الذى لا محيد عنه ما
قدمناه وماهو نص فى
الباب ماسيأتى من قوله
تعالى وهم من فزع
يومئذ آمنون (صنع الله)
مصدر مؤكد لمضمون
ماقبله أى صنع الله ذلك
صنعا على انه عبارة عما
ذكر من النفخ فى الصور
وما ترتب عليه جميعا
قصد به التنبيه على عظم
شان تلك الافاعيل
وتهويل أمرها والايذان
بأنها ليست بطريق
اخلال نظام العالم وافساد
أحوال الكائنات بالكلية
من غير أن يدعو اليها
داعية أو يكون لها عاقبة
بل هى من قبيل بدائع
صنع الله تعالى المبنية على
أساس الحكمة المستتبعة
للغايات الجميلة التى لاجلها
رتبت مقدمات الخلق
ومبادى الابداع على
الوجه المتين والنهج
الرصين كما يعرب عنه
قوله تعالى (الذى أتقن
كل شئ) أى أحكم خلقه وسواه على ماتقتضيه الحكمة وقوله تعالى (انه خبير بما يفعلون) تعليل ﴿ قوامهم ﴾
لكون ماذكر صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر

المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ويمكن أيضا اجراؤه على ظاهره
أى وما كنت ترجوا الا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك أى ما كنت ترجو الاعلى
هذا (والوجه الثانى) ان الا بمعنى لكن للاستدراك أى ولكن رحمة من ربك ألقى اليك
ونظيره قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك خصصك به ثم انه كلفه
بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهرا للكفار فقال فلا تكونن ظهيرا للكافرين
(وثانيها) انه قال ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك الميل الى المشركين قال
الضحاك وذلك حين دعوه الى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرا من مالهم أى لا تلتفت
الى هؤلاء ولا تركن الى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله وادع الى
ربك أى الى دين ربك واراد التشدد فى دعاء الكفار والمشركين فلذلك قال ولا تكونن
من المشركين لان من رضى بطريقتهم أومال اليهم كان منهم (ورابعها) قوله ولا تدع مع
الله الها آخر وهذا وان كان واجبا على الكل الا أنه تعالى خاطبه به خصوصا لاجل
التعظيم فان قيل الرسول كان معلوما منه ان لا يفعل شيئا من ذلك البتة فما فائدة هذا
النهى قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله
ولا تتخذ غيره وكيلا فى أمورك فان من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه فى
التوحيد ثم بين انه لا اله الا هو أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع الا هو كقوله رب
المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه ثم قال كل شئ هالك
الا وجهه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله كل شئ هالك فمن الناس من
فسر الهلاك بالعدم والمعنى ان الله تعالى يعدم كل شئ سواه ومنهم من فسر الهلاك
باخراجه عن كونه منتفعا به اما بالاماتة أو بتفريق الاجزاء وان كانت اجزاؤه باقية فانه
يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء اجزائه بل خروجه عن كونه منتفعا به
ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته فان كل ماعداه ممكن
الوجود لذاته وكل ماكان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك فأطلق
عليه اسم الهلاك نظرا الى هذا الوجه واعلم ان المتكلمين لما أرادوا اقامة الدلالة على
ان كل شئ سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا ثبت ان العالم محدث وكل ماكان
محدثا فان حقيقته قابلة للعدم والوجود وكل ماكان كذلك وجب أن يبقى على هذه
الحالة أبدا لان الامكان من لوازم الماهية ولازم الماهية لا يزول قط الا انا لما نظرنا فى
هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض لانهم انما أقاموا الدلالة على حدوث
الاجسام والاعراض فلو قدروا على اقامة الدلالة على ان ماسوى الله تعالى اما متحيز
أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم الا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فالدليل
الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ماسوى الله تعالى الا بعد قيام
الدلالة على نفى ذلك القسم الثالث ولهم فى نفى هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما)

أفعال المكلفين و بواطنها مما يدعو الى اظهارها و بيان كيفياتها على ماهى عليه من الحسن والسوء وترتيب اجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والارض والجبال على وفق مانطق به التنزيل ليحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد الله حق لاريب فيه وقرئ خبير بما يفعلون وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان لما أشير اليه باحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها أى من جاء منكم أومن أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ماهو خير منها إما باعتبار أنه أضعافها واما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) أى الذين جاؤا بالحسنات (من فزع) أى عظيم هائل لايقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيأت وهو الذى فى قوله تعالى لايحزنهم الفزع الاكبر وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت (يومئذ) أى يوم اذ ينفخ فى الصور (آمنون) لايعتريهم ذلك الفزع الهائل ولايلحقهم ضرره أصلا وأما الفزع الذى يعترى كل من فى السموات ومن فى الارض غير من استثناه الله تعالى فانما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهى والاهوال ولايكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وان كان

قولهم لادليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها فى الكتب الكلامية (والثانى) قولهم لووجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى فى نفى المكان والزمان والامكان ولوكان كذلك لصار مثلا لله تعالى وهو ضعيف لاحتمال أن يقال انهما وان اشتركا فى هذا السلب الا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة واذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلى لايفى باثبات ان كل شئ هالك الاوجهه والذى يعتمد عليه فى هذا الباب ان نقول ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته والا لاشتركا فى الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ومابه المشاركة غير مابه المما يزة فيكون كل واحد منهما مركبا عمابه المشاركة وعمابه المما يزة وكل مركب ممكن مفتقر الى جزئه ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين فى الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضا ويلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر اليهما أولى أن لايكون واجبا فثبت ان واجب الوجود واحد وان كل ماعداه فهو ممكن وكل ممكن فلابد له مرجح وافتقاره الى المرجح اماحال عدمه أوحال وجوده فان كان الاول ثبت انه محدث وان كان الثانى فافتقار الموجود الى المؤثر اماحال حدوثه أوحال بقائه والثانى باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت ان الافتقار لايحصل الاحال الحدوث وثبت ان كل ماسوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزا أوقائما بالمتحيز أولامتحيزا ولاقائما بالمتحيز فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته فاعلم ان هناك فرقا قويا واذا ثبت حدوث كل ماسواه وثبت ان كل ماكان محدثا كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر ان كل شئ هالك الاوجهه بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ثم ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لانه سبحانه حكم بكونها هالكة فى الحال وعلى ماقلناه فهى هالكة فى الحال وعلى ماقلتموه انها ستهلك لانها هالكة فى الحال فكان قولنا أولى وأيضا فالممكن اذا وجد من حيث هولم يكن مستحقا الا الوجود ولا للعدم من ذاته فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالانسان الفقير الذى استعار ثوبا من رجل غنى فان الفقير لايخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هى هى وانما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح انها ابدا هالكة من حيث هى هى أما الذين حملوه على انها ستعدم فقد احتجوا بان قالوا الهلاك فى اللغة له معنيان أحدهما خروج الشئ عن ان يكون منتفعا به والثانى الفناء والعدم لاجائز حمل اللفظ على الاول لان هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال لانها وان تفرقت اجزاؤها فانها منتفع بها لان النفع المطلوب كونها بحيث يمكن ان يستدل بها على وجو الصانع القديم وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أومجتمعة وسواء بقيت موجودة أوصارت معدومة واذا تعذر حمل الهلاك

آمنا من لحوق الضرر والامن يستعمل بالجار وبدونه كما فى قوله تعالى أفأمنوا مكر الله وقرئ من فزع يومئذ بالاضافة مع كسر الميم وفتحها أيضا والمراد هو الفزع المذكور فى القراءة الاولى لا جميع الافزاع الحاصلة يومئذ ومدار الاضافة كونه أعظم الافزاع وأكبرها كأن ماعداه ليس ﴿ ٦٣٦ ﴾ بفزع بالنسبة اليه (ومن جاء بالسيئة) قيل هو الشرك

على هذا الوجه وجب حمله على الفناء أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال هلاك الشئ خروجه عن المنفعة التى يكون الشئ مطلوبا لاجلها فاذا مات الانسان قيل هلك لان الصفة المطلوبة منه حياته وعقله واذا تمزق الثوب قيل هلك لان المقصود منه صلاحيته للبس فاذا تفرقت اجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التى لاجلها كانت منتفعا بها انتفاعا خاصا فلا جرم صح اطلاق اسم الهالك عليها فاما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هى شمس والقمر من حيث هو قمر فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء اجزاء العالم بقوله يوم تبدل الارض غير الارض وهذا صريح بان تلك الاجزاء باقية الا انها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما فى هذا الموضع (المسئلة الثانية) أحتج أهل التوحيد بهذه الآية على ان الله تعالى شئ قالوا لانه استثنى من قوله كل شئ استثناء يخرج مالولاه اوجب أولصح دخوله تحت اللفظ فوجب كونه شيأ يؤكده ماذكرناه فى سورة الانعام وهو قوله قل أى شئ أكبر شهادة قل الله واحتجاجهم على انه ليس بشئ بقوله ليس كمثله شئ والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شئ ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيأ جوابه ان الكاف صلة زائدة (المسئلة الثالثة) استدلت المجسمة بهذه الآية على ان الله تعالى جسم من وجهين الاولى قالوا الآية صريحة فى اثبات الوجه وذلك يقتضى الجسمية والثانى قوله واليه ترجعون وكلمة الى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل الا فى الاجسام والجواب لوصح هذا الكلام يلزم ان يفنى جميع اعضائه وان لا يبقى منه الا الوجه وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة وهو بيان بن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الامر كذا أى حقيقته ومنهم من قال الوجه صلة والمراد كل شئ هالك الا هو وأما كلمة الى فالمعنى والى موضع حكمه وقضائه يرجعون (المسئلة الرابعة) استدلت المعتزلة به على ان الجنة والنار غير مخلوقتين قالوا لان الآية تقتضى فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا وهذا يناقض قوله تعالى فى صفة الجنة أكلها دائم والجواب هذا معارض بقوله تعالى فى صفة الجنة أعدت للمتقين وفى صفة النار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ثم اما أن يحمل قوله كل شئ هالك على الاكثر كقوله وأوتيت من كل شئ أو يحمل قوله أكلها دائم على ان زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة الى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه (المسئلة الخامسة) قوله كل شئ هالك يدل على ان الذات ذات بالفعل لانه حكم بالهلاك على الشئ فدل على ان الشئ فى كونه شيأ قابل للهلاك فوجب أن لا يكون المعدوم شيأ والله أعلم والحمد لله رب العالمين

(فكبت وجوههم فى النار) أى كبوا فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) على الالتفات للتشديد أو على اضمار القول أى مقولا لهم ذلك (انما أمرت أن اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ذلك مابين لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيها لهم على أنه قد أتم امر الدعوة بما لامزيد عليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا ام رشدوا صلحوا اوفسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بامور أنفسهم ولا يتوهموا من شدة اعتنائه عليه الصلاة والسلام بامر دعوتهم أنه عليه الصلاة والسلام يظهر لهم ما يلجئهم الى الايمان لا محالة و يشتغلوا بتدارك أحوالهم و يتوجهوا نحو التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هى مكة المعظمة وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شأنها واجلال ﴿سورة﴾

سورة العنكبوت مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها الى رأس
عشر بمكة و باقيها بالمدينة أو نزل الى آخر العشر بالمدينة
و باقيها بمكة بالعكس وهى سبعون أو تسع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون) فى تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الاول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وكان المراد منه أن يرده الى مكة ظاهرا غالبا على الكفار ظافرا طالبا للثار وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو انه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الطعان والحراب والضراب لان النبى عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال أحسب الناس ان يتركوا (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة كل شئ هالك الا وجهه ذكر بعده مايبطل قول المنكرين للحشر فقال له الحكم واليه ترجعون يعنى ليس كل شئ هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع الى الله اذا تبين هذا فاعلم ان منكرى الحشر يقولون لافائدة فى التكاليف فانها مشاق فى الحال ولافائدة لها فى المآل اذ لامآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال فلافائدة فيها فلما بين الله انهم اليه يرجعون بين ان الامر ليس على ماحسبوه بل حسن التكليف ليثيب الشكور و يعذب الكفور فقال أحسب الناس ان يتركوا غير مكلفين من غير عمل يرجعون به الى ربهم (المسئلة الثانية) فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى ولنقدم عليه كلاما كليا فى افتتاح السور بالحروف فنقول الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الاشغال يقدم على الكلام المقصود شيأ غيره ليلتفت المخاطب بسببه اليه و يقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود اذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل اسمع واجعل بالك الى وكن لى وقد يكون شيأ هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل ازيد و يازيد وألا يازيد وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف انسان ليلتفت اليه وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الانسان بيديه ليقبل السامع عليه ثم ان موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود أكثر ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يازيد والغافل ينبه أولا فيقال ألا يازيد اذا ثبت هذا فنقول ان النبى صلى الله عليه وسلم وان كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شان فكان يحسن من الحكيم ان يقدم

مكانها والتعرض لتحريمه تعالى اياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم اثر تعظيم مع مافيه من الأشعار بعلة الامر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ومن الرمز الى غاية شناعة مافعلوا فيها ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وارادة الالحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الالحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الاوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله أنى يؤفكون وقرئ حرمها بالتخفيف وقوله تعالى (وله كل شئ) أى خلقا وملكا وتصرفا من غير أن يشاركه شئ فى شئ من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على أن افراد مكة بالاضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الاسلام والتوحيد أى الذين أسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله (وأن أتلو القرآن) أى أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيأ فشيأ أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الارشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والارشاد من غير حاجة الى اظهار معجزة أخرى فمعنى قوله تعالى (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) حينئذ فمن اهتدى بالايمان به

والعمل بما فيه من الشرائع والاحكام وعلى الاول فمن اهتدى باتباعه اياى فيماذكر من العبادة والاسلام وتلاوة القرآن فانما منافع اهتدائه عائدة اليه لا الى (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عن العمل بما فيه أو بهما فتى فيماذكر (فقل) فى حقه (انما أنا من المنذرين) وقد خرجت عن عهدة ﴿٦٣٨﴾ الانذار فليس على من وبال ضلاله شئ وانما هو عليه فقط (وقل الحمد لله) أى على ما أفاض على من نعمائه التى أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل اعبائها وتبليغ أحكامها الى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى (سيريكم آياته) من جملة الكلام المأمور به أى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القران كخروج الدابة وسائر الاشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه قوله تعالى (فتعرفونها) أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفه لانهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا ﴿ فكان ﴾ للكفرة تغليبا أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيآت فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرئ عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض

على الكلام المقصود حروفا هى كالمنبهات ثم ان تلك الحروف اذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى افادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى لان تقديم الحروف اذا كان لاقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما وقولا مفهوما فاذا سمعه السامع ربما يظن انه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما اذا سمع منه صوتا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بان ما سمعه ليس هو المقصود فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة فان قال قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف فنقول عقل البشر عن ادراك الاشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الاشياء لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فان فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى الم ذلك الكتاب الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل اليك يس والقرآن ص والقرآن ق والقرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل الكتاب الا ثلاث سور كهيعص الم أحسب الناس الم غلبت الروم والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى ان القرآن عظيم والانزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا وكل سورة فى أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظا أو لم يكن فكان الواجب أن يكون فى أوائل كل سورة منبه وأيضا فقد وردت سور فيها ذكر الانزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وقوله سورة أنزلناها وقوله تبارك الذى نزل الفرقان وقوله انا أنزلناه فى ليلة القدر لانا نقول جوابا عن الاول لا ريب فى ان كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فان قوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن مع انها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما وكتاب آخر يرد منه عليه فيه أنا كتبنا اليك كتابا فيه أوامرنا فامتثلها لا شك ان عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الاول وعن الثانى ان قوله الحمد لله وتبارك الذى تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج الى منبه بخلاف الاوامر والنواهى وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح وسورة أنزلناها قد بينا انها بعض من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل وأما قوله تعالى انا أنزلناه فنقول هذا ليس واردا على مشغول القلب بشئ غيره بدليل انه ذكر الكناية فيها وهى ترجع الى مذكور سابق أو معلوم وقوله انا أنزلناه الهاء راجع الى معلوم عند النبى صلى الله عليه وسلم

والمعنى ومار بك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وابراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام

ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادي لا اله الا الله

فكان متنبها له فلم ينبه واعلم ان التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وقوله يا أيها النبي اتق الله و يا أيها النبي لم تحرم لانها أشياء هائلة عظيمة فان تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيها وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن وذلك لان القرآن ثقله وعبؤه بما فيه من التكاليف والمعاني وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الاوامر والنواهي فان قيل مثل هذا الكلام وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور وهو ان هذا ابتداء كلام ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال أحسب وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في اثنائه وأما الم غلبت الروم فسيجئ في موضعه ان شاء الله تعالى هذا تمام الكلام في الحروف (المسئلة الثالثة) في اعراب الم وقد ذكر تمام ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المنقولة في تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه ان الحروف لا اعراب لها لانها جارية مجرى الاصوات المنبهة (المسئلة الرابعة) في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال الاول انها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة الثاني انها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون الثالث انها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر (المسئلة الخامسة) في التفسير قوله أحسب الناس ان يتركوا يعني اظنوا انهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لا يفتنون لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية واختلف أئمة النحو في قوله أن يقولوا فقال بعضهم ان يتركوا بأن يقولوا وقال بعضهم أن يتركوا يقولون آمنا ، مقتضى ظاهر هذا انهم يمنعون من قولهم آمنا كما يفهم من قول القائل تظن انك تترك أن تضرب زيدا أي تمنع من ذلك وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحدا من أن يقول آمنت ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم (المسئلة السادسة) في الفوائد المعنوية وهي ان المقصود الاقصى من الخلق العبادة والمقصد الاعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر لا يزال العبد يتقرب الي بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله لكن للقلب ترجمان وهو اللسان وللسان مصدقات هي الاعضاء ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان فلابد له من شهود فاذا استعمل الاركان في الاتيان بما عليه ببنان

* (سورة القصص مكية وقيل الا قوله الذين آتيناهم الكتاب الى قوله الجاهلين وهي ثمان وثمانون آية) *

* بسم الله الرحمن الرحيم *

(طسم تلك آيات الكتاب المبين) قد مر ما يتعلق به من الكلام بالاجمال والتفصيل في أشباهه (نتلو عليك) أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز أن تكون التلاوة مجازا من التنزيل (من نبأ موسى وفرعون) مفعول نتلو أي بعض نبئهما (بالحق) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل نتلو أو من مفعوله أو صفة لمصدره أي نتلو عليك بعض نبئهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق (لقوم يؤمنون) متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لانهم المنتفعون به (ان فرعون علا في الارض) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أي انه تجبر وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان (وجعل أهلها شيعا) أي فرقا يشيعونه في كل ما يريده من الشر والفساد

كذلك فهل يقع فى ذهن أحد ان المرآة فى كونها حديدا تغيرت أو يقع له انها فى تدويرها تبدلت أو يذهب فهمه الى انها فى صقالتها اختلفت أو يخطر بباله انها عن مكانها انتقلت لا يقع لاحد شئ من هذه الاشياء و يقطع بان المتغير الخارجات فافهم علم الله من هذا المثال بل اعلى من هذا المثال فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله فليعلمن الله الذين صدقوا يعنى يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم وليعلمن الكاذبين يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك و يعلم من قال ذلك وكان منافقا كذلك يبين وفى قوله الذين صدقوا بصيغة الفعل وقوله الكاذبين باسم الفاعل فائدة مع ان الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة وهى ان اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الامر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك اذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل ايجاب التكاليف وعن قوم مستديمين الكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر الكاذبين بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال يوم ينفع الصادقين صدقهم بلفظ اسم الفاعل وذلك لان فى اليوم المذكور الصدق قد رسخ فى قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الاسلام ✱ ثم قال تعالى (أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون) لما بين حسن التكليف بقوله احسب الناس ان يتركوا بين ان من كلف بشئ ولم يأت به يعذب وان لم يعذب فى الحال فيعذب فى الاستقبال ولا يفوت الله شئ فى الحال ولا فى المآل وهذا ابطال مذهب من يقول التكاليف ارشادات والايعاد عليه ترغيب و ترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزا عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب و يثيب من يثيب بحكم الوعد والايعاد والله لا يخلف الميعاد وأما الامهال فلا يفضى الى الاهمال والتعجيل فى جزاء الاعمال شغل من يخاف الفوت اولا الاستعجال ثم قال تعالى ساء ما يحكمون يعنى حكمهم بأنهم يعصون و يخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم شئ فان الحكم الحسن لا يكون الا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فان الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة ✱ ثم قال (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم) لما بين بقوله أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى و بين فى قوله أم حسب الذين يعملون السيآت ان من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن من يعترف بالآخرة و يعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله

حالتهم السابقة المباينة لها (ونجعلهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين بعد ان كانوا أتباعا مسخرين لآخرين (ونجعلهم الوارثين) لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم كما ينبئ عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها

عليه زمانا لانحطاط رتبتها عن الامامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه أعنى قوله تعالى (ونمكن لهم فى الارض) الخ أى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤن وأصل التمكين أن تجعل للشئ مكانا يتمكن فيه (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم) أى من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) و يجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرئ يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية (وأوحينا الى أم موسى) بالهام أو رؤيا (أن ارضعيه) ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بان يحس به الجيران عند بكائه و ينموا عليه (فألقيه فى اليم) فى البحر وهو النيل (ولا تخافى) عليه ضيعة بالغرق ولا شدة (ولا تحزنى انا رادوه اليك) عن قريب بحيث تامنين عليه (وجاعلوه من المرسلين) والجملة تعليل للنهى عن الخوف والحزن وايثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أى انا فاعلون لرده

وجعله من المرسلين لامحالة روى أن بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى اسرائيل كانت مصافية لام موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى

أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته أو اصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل و يسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير
ذلك من الاعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم
(يستضعف طائفة منهم) وهم بنو اسرائيل والجملة اما حال من فاعل جعل أو صفة لشيعا أو استئناف وقوله
تعالى (يذبح أبناءهم
و يستحيى نساءهم) بدل
منها وكان ذلك لما أن
كاهنا قال له يولد فى بنى
اسرائيل مولود يذهب
ملكك على يده وماذاك
الالغاية حمقه اذ لو صدق
فما فائدة القتل وان كذب
فما وجهه (انه كان من
المفسدين) أى الراسخين
فى الافساد ولذلك اجترأ
على مثل تلك العظيمة
من قتل المعصومين من
أولاد الانبياء عليهم
الصلاة والسلام (ونريد
أن نمن) أى نتفضل
(على الذين استضعفوا
فى الارض) على الوجه
المذكور بانجائهم من
بأسه وصيغة المضارع
فى نريد حكاية حال ماضية
وهو معطوف على ان
فرعون علا الخ لتناسبهما
فى الوقوع فى حيز التفسير
للنبأ أو حال من يستضعف
بتقدير المبتدا أى
يستضعفهم فرعون
ونحن نريد أن نمن عليهم
وليس من ضرورة مقارنة
الارادة للاستضعاف
مقارنة المراد له لما أن
تعلق الارادة للمن تعلق
استقبالى على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت فى شرف الوقوع جاز أجراؤها مجرى الواقع ﴿كذلك﴾
المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لابانة قدر النعمة فى المنة بذكر

الايمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله وزكى
بترك ماسواه أعماله زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله فيحرر فى جرائد المحبين اسمه
ويقرر فى أقسام المقربين قسمه واليه الاشارة بقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا
آمنا يعنى أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين بل لابد من
ذلك جميعه ليكونوا من المحبين * (فائدة ثانية) * وهى ان أدنى درجات العبد أن يكون
مسلما فان مادونه دركات الكفر فالاسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه
المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون
ناهضا فى شغله ماضيا فى فعله فينقل من خدمة الى خدمة أعلى منها مرتبة ومنهم من يكون
كسلانا متخلفا فينقل من خدمة الى خدمة أدنى منها ومنهم من يترك على شغله من غير
تغيير ومنهم من يقطع رسمه ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك عباد الله قد يكون المسلم
عابدا مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين الى درجة الموقنين
وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالخلاعة فينقل الى مرتبة
دونه وهى مرتبة العصاة ومنزلة الفساة وقد يستصغر العيوب و يستكثر الذنوب فيخرج
من العباد محروما و يلحق بأهل العناد مرجوما ومنهم من يبقى فى أول درجة الجنة وهم
البله فقال الله بشارة للمطيع الناهض أحسب الناس أن يتركوا يعنى أظنوا انهم يتركون
فى أول المقامات لا بل ينقلون الى أعلى الدرجات كما قال تعالى و الذين أوتوا العلم
درجات فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ۞ وقال بضده للكسلان أحسب
الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعنى اذا قال آمنت و يتخلف بالعصيان و يترك و يرضى
منه لا بل ينقل الى مقام أدنى وهو مقام العاصى أو الكافر ۞ ثم قال تعالى (ولقد فتنا الذين
من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال
كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم آمنا بل فرض عليهم الطاعات
وأوجب عليهم العبادات وفى قوله فليعلمن الله الذين صدقوا وجوه (الاول) قول مقاتل
فليرين الله الثانى فليظهرن الله الثالث فليميزن الله فالحاصل على هذا هو أن المفسرين
ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل
الامتحان فكيف يمكن أن يقال يعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها
وذلك ان علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع فقبل التكليف كان الله يعلم
ان زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصى ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر
عاص و بعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شئ من الاحوال وانما
المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الاعلى وهو ان المرآة الصافية
الصقيلة اذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسا
ثوبا أبيض ظهر فيها زيد فى ثوب أبيض واذا عبر عليها عمرو فى لباس أصفر يظهر فيها

ابن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى اسرائيل
من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلى وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست
على شاطئ النيل فاذا بتابوت فى النيل تضرب به الامواج ﴿٦٤٣﴾ فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا

وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ولمرئيه
ما لا عين رأت ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة * ثم
قال تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين) لما بين ان التكليف
حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طلب الله ذلك من المكلف
ليس لنفع يعود اليه فانه غنى مطلقا ليس شئ غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير
فى القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم
وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان اكثار
العبد من العمل الصالح واتقانه له وذلك لان من يفعل فعلا لاجل ملك و يعلم ان الملك
يراه و يبصره يحسن العمل و يتقنه واذا علم ان نفعه له مقدر بقدر عمله يكثر منه فاذ قال
الله انه سميع عليم فالعبد يتقن عمله و يخلصه له واذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه
(المسئلة الثانية) لقائل أن يقول هذا يدل على ان الجزاء على العمل لان الله تعالى لما قال
من جاهد فانما يجاهد لنفسه فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول
هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق و بيانه هو ان الله تعالى لما بين ان المكلف
اذا جاهد يثيبه فاذا أتى به هو يكون جهادا نافعا له ولا نزاع فيه وانما النزاع فى ان الله
يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ولا يجوز أن يحسن الى أحد الا بالعمل ولا دلالة
للآية عليه (المسئلة الثالثة) قوله فانما يقتضى الحصر فينبغى أن يكون جهاد المرء لنفسه
فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه حتى ان
الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع
للاب والحصر ههنا معناه ان جهاده لا يصل الى الله منه نفع و يدل عليه قوله تعالى ان الله
لغنى عن العالمين وفيه مسائل (الاولى) تدل الآية على ان رعاية الاصلح لا يجب على الله
لانه بالاصلح لا يستفيد فائدة والا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهى غيره وهى من العالم
فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجا اليه وهو غنى عن العالمين وأيضا أفعاله غير معللة
لما بينا (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه ليس فى مكان وليس على العرش على الخصوص
فانه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله فى مكان لان الداخل
فى المكان يشار اليه بانه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال ومايشار اليه بأنه ههنا أو
هناك يستحيل ان لا يوجد لا ههنا ولا هناك والا لجوز العقل ادراك جسم لا فى مكان وانه
محال (المسئلة الثالثة) لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم والا لكان هو فى
قادريته محتاجا الى قدرة هى غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجا وهو غنى
نقول لم قلتم ان قدرته من العالم وهذا لان العالم كل موجود سوى الله بصفاته أى كل
موجود هو خارج عن مفهوم الاله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم
والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر والعلم ليس خارجا عن مفهوم العالم (المسئلة

بالسفن فأحضروه
بين يديه فعالجوا فتحه
فلم يقدروا عليه
وقصدوا كسره
فاعياهم فنظرت آسية
فرأت نورا فى جوف
التابوت لم يره غيرها
فعالجته ففتحته فاذا
هى بصبى صغير فى مهده
واذا نور بين عينيه
وهو يمص ابهامه
لبنا فالقى الله تعالى
محبته فى قلوب القوم
وعمدت ابنة فرعون
الى ريقه فلطخت به
برصها فبرأت من
ساعته وقيل لما نظرت
الى وجهه برأت فقالت
الغواة من قوم فرعون
انا نظن أن هذا هو الذى
نحذر منه رمى فى البحر
فرقا منك فاقتله فهم
فرعون بقتله فاستوهبته
اسية فتركه كما سيأتى
واللام فى قوله تعالى
(ليكون لهم عدوا
وحزنا) لام العاقبة ابرز
مدخولها فى معرض العلة
لالتقاطهم تشبيها له
فى الترتب عليه بالغرض
الحامل عليه وقرئ
حزنا وهما لغتان كالسقم
والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن ايذانا بقوة سببيته لحزنهم ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا
خاطئين) أى فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى أن قتلوا لاجله ألوفا ثم آخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا
يحذرون روى أنه ذبح فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف وليد أو كانوا

... اليوم [illegible] فلما وقع الى الارض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت
ماجئتك الا لاقبل مولودك وأخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ماوجدت مثلها لاحد فاحفظيه فلما خرجت
جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة فألقته فى تنور مسجور لم تعلم ماتصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا
شيئا فخرجوا وهى لاتدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله تعالى اليها ما أوحى وقد روى انها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والفاء فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ماقبلها من الامر بالالقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وايذانا بكمال سرعة الامتثال أى فألقته فى اليم بعد ماجعلته فى التابوت حسبما أمرت به فالتقطه آل فرعون أى أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من اكرم الناس اليه وكان بها برص شديد عجزت الاطباء عن علاجه فقالوا لاتبرأ الا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الانس يوم كذا وساعة كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم

وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا فى مواضع ان الاصول الثلاثة وهى الاول وهو الله تعالى ووحدانيته والاصل الآخر وهو اليوم الآخر والاصل المتوسط وهو النبى المرسل من الاول الموصل الى الآخر لايكاد ينفصل فى الذكر الالهى بعضها عن بعض فقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا فيه اشارة الى الاصل الاول يعنى أظنوا أنه يكفى الاصل الاول وقوله وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم يعنى بارسال الرسل وايضاح السبل فيه اشارة الى الاصل الثانى وقوله أم حسب الذين يعملون السيئات مع قوله من كان يرجو لقاء الله فيه اشارة الى الاصل الثالث وهو الآخر (المسئلة الثانية) ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله انه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى ان جمادين اذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر (المسئلة الثالثة) قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله من كان يرجو لقاء الله من كان يخاف الله وهو أيضا ضعيف فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لاغير ولانا أجمعنا على ان الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله واذا كان واردا لهذا لايكون لغيره دفعا للاشتراك (المسئلة الرابعة) يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الاخبار وذلك لان القائل اذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه ان متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى انه لووصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل أما قلت ماقلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال واذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء (المسئلة الخامسة) قوله من كان يرجو شرط وجزاؤه فان أجل الله لآت والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لايرجو لقاء الله لايكون أجل الله آتيا له وهذا باطل فالجواب عنه نقول المراد من ذكر اتيان الاجل وعد المطيع بما يعده من الثواب يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولاشك ان من لايرجوه لايكون أجل الله آتيا على وجه يثاب هو (المسئلة السادسة) قال وهو السميع العليم ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما وذلك لانه سبق القول فى قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا وسبق الفعل بقوله وهم لايفتنون وبقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله أم حسب الذين يعملون السيئات ولاشك ان القول يدرك بالسمع والعمل منه مالا يدرك بالبصر ومنه مايدرك به كالقصود والعلم يشملهما فقال وهو السميع يسمع ماقالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال ممن كذب وأيضا عليم يعلم مايعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهى ان العبد له ثلاثة أمور هى أصناف حسناته أحدها عمل قلبه وهو التصديق وهو لايرى ولايسمع وانما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه

مذنبين فعاقبهم الله تعالى بان ربى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم اولبيان الموجب لما ابتلوا به
وقرئ خاطين على انه تخفيف خاطئين أو على انه بمعنى متعدين الصواب الى الخطا (وقالت امرأة فرعون) أى لفرعون
حين أخرجته من التابوت (قرة عين لى ولك) أى هو قرة عين لنا لما انهما رأياه أحباه اولما ذكر من برء

ابنته من البرص بريقه
وفى الحديث انه قال لك
لالى ولو قال لى كما هولك
لهداه الله تعالى كما
هداها (لاتقتلوه)
خاطبته بلفظ الجمع
تعظيما ليساعدها فيما
تريده (عسى أن ينفعنا)
فان فيه مخايل اليمن
ودلائل النجابة وذلك
لما رأت فيه من العلامات
المذكورة (أو نتخذه
ولدا) أى نتبناه فانه
خليق بذلك (وهم
لايشعرون) حال من
آل فرعون والتقدير
فالتقطه ال فرعون
ليكون لهم عدوا وحزنا
وقالت امرأته كيت وكيت
وهم لايشعرون بانهم
على خطأ عظيم فيما
صنعوا من الالتقاط
ورجاء النفع منه والتبنى له
وقوله تعالى ان فرعون
الآية اعتراض وقع
بين المعطوفين لتأكيد
خطئهم وقيل حال من
أحد ضميرى نتخذه على
أن الضمير للناس أى وهم
لايعلمون انه لغيرنا وقد
تبنيناه (واصبح فؤاد
أم موسى فارغا) صفرا
من العقل لما دهمهما من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون كقوله تعالى وأفئدتهم هواء ✻ بنفسه ✻
أى خلاء لاعقول فيها ويعضده أنه قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أن هدر وقيل فارغا من الهم والحزن
لغاية وثوقها بوعد الله تعالى اولسماعها ان فرعون

الرابعة) الآية فيها بشارة فيها انذار اما الانذار فلان الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو
أهلك عباده بعذابه فلا شئ عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم واما البشارة
فلانه اذا كان غنيا فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لاشئ عليه لاستغنائه عنه
وهذا يوجب الرجاء التام ✻ ثم قال تعالى (والذين امنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم
سيأتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون) لما بين اجمالا أن من يعمل صالحا
فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل ان جزاء المطيع الصالح عمله فقال والذين آمنوا وفى
الآية مسائل (المسئلة الاولى) انها تدل على أن الاعمال مغايرة للايمان لان العطف
يوجب التغاير (المسئلة الثانية) انها تدل على أن الاعمال داخلة فيما هو المقصود من
الايمان لان تكفير السيأت والجزاء بالاحسن معلق عليها وهى ثمرة الايمان ومثال هذا
شجرة مثمرة لاشك فى أن عروقها وأغصانها منها والماء الذى يجرى عليها والتراب الذى
حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لاتحصل الابذلك الماء والتراب الخارج فكذلك
العمل الصالح مع الايمان وأيضا الشجرة لواحتفت بها الحشائش المفسدة والاشواك
المضرة ينقص ثمرة الشجرة وان غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب
تفعل بالايمان (المسئلة الثالثة) الايمان هو التصديق كما قال وما أنت بمؤمن لنا أى
بمصدق واختص فى استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ان علم مفصلا انه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل
الاجمال فيما لم يعلم والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحا بأمره ولو نهى
عنه لما كان صالحا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل فى نفسه وقالت المعتزلة ذلك
من صفات الفعل و يترتب عليه الامر والنهى فالصدق عمل صالح فى نفسه و يأمر الله
به لذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الامر والنهى وعندهم
الامر والنهى يترتب على الحسن والقبح والمسئلة بطولها فى الاصول (المسئلة الرابعة)
العمل الصالح باق لان الصالح فى مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال فسدت
الزروع اذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع و يقال هى بعد صالحة أى باقية على
ما ينبغى اذا علم هذا فنقول العمل الصالح لايبقى بنفسه لانه عرض ولا يبقى بالعامل أيضا
لانه هالك كما قال تعالى كل شئ هالك فبقاؤه لابد من أن يكون بشئ باق لكن الباقى هو
وجه الله لقوله كل شئ هالك الا وجهه فينبغى أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون
صالحا وما لايكون لوجهه لايبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحا فالعمل
الصالح هو الذى أتى به المكلف مخلصا لله (المسئلة الخامسة) هذا يقتضى أن تكون النية
شرطا فى الصالحات من الاعمال وهى قصد الايقاع لله و يندرج فيها النية فى الصوم
خلافا لزفر وفى الوضوء خلافا لابى حنيفة رحمه الله (المسئلة السادسة) العمل الصالح
مرفوع لقوله تعالى والعمل الصالح يرفعه لكنه لايرتفع الا بالكلم الطيب فانه يصعد

عطف عليه وثبتناه وقرئ موسى بالهمز اجراء للضمة فى جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما فى جوه (ان كادت لتبدى به) أى انها كادت لتظهر بموسى أى بامره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والثبات (لتكون من المؤمنين) ❊ ٦٤٥ ❊ أى المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواثقين بحفظه لا بتبنى فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه (وقالت لاخته) مريم والتعبير عنها باخوته عليه الصلاة والسلام دون ان يقال ابنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالامر (قصيه) اى اتبعي أثره وتتبعي خبره (فبصرت به) أى ابصرته (عن جنب) عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى (وهم لا يشعرون) انها تقصه وتتعرف حاله او انها أخته (وحرمنا عليه المراضع) اى منعناه أن يرتضع من المرضعات و المراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو مرضع وهو الرضاع أو موضعه أعنى الثدى (من قبل) أى من قبل قصها أثره (فقالت) عند رؤيتها لعدم قبوله الثدى واعتناء فرعون بامره وطلبهم من يقبل ثديها (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) اى لاجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون فى ارضاعه وتربيته روى ان هامان لما سمعه منها قال انها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فامرها فرعون بان تأتى بمن يكفله فأتت بامه وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله

بنفسه كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا قدم الايمان على العمل وههنا لطيفة وهى ان أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وانما ترتفع بغيرها والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين فى الآية وعمل القلب وهو الفكر ينزل اليه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب والتائب النادم بقلبه وكذلك قوله عليه السلام يقول الله عز وجل انا عند المنكسرة قلوبهم يعنى بالفكرة فى عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر فى آلاء الله وجد الله وحضر فى ذهنه فعلم ان العمل القلب يأتى الله وعمل اللسان يذهب الى الله وعمل الاعضاء يوصل الى الله وهذا تنبيه على فضل عمل القلب (المسئلة السابعة) ذكر الله من أعمال العبد نوعين الايمان والعمل الصالح وذكر فى مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيآت والجزاء بالاحسن حيث قال لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن فتكفير السيآت فى مقابلة الايمان والجزاء بالاحسن فى مقابلة العمل الصالح وهذا يقتضى أمورا (الاول) المؤمن لا يخلد فى النار لان بايمانه تكفر سيآته فلا يخلد فى العذاب (الثانى) الجزاء الاحسن المذكور ههنا غير الجنة وذلك لان المؤمن بايمانه يدخل الجنة اذ تكفر سيآته ومن كفرت سيآته أدخل الجنة فالجزاء الاحسن يكون غير الجنة وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يبعد أن يكون هو الرؤية (الامر الثالث) هو ان الايمان يستقبح الذنوب فى الدنيا فيستر الله عيوبه فى الاخرى والعمل الصالح يحسن حال الصالح فى الدنيا فيجزيه الله الجزاء الاحسن فى العقبى فالايمان اذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصى ويسترها ويحمل صاحبها على الندم والله أعلم (المسئلة الثامنة) قوله لنكفرن عنهم سيآتهم يستدعى وجود السيآت حتى تكفر والذين آمنوا وعملوا الصالحات بأسرها من أين يكون لهم سيئة فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان وعد الجميع بأشياء لا يستدعى وعد كل واحد بكل واحد من تلك الاشياء مثاله اذا قال الملك لاهل بلد اذا أطعتمونى أكرم آباكم واحترم أبناءكم وانعم عليكم وأحسن اليكم لا يقتضى هذا انه يكرم آباء من توفى أبوه أو يحترم ابن من لم يولد له ولد بل مفهومه انه يكرم أب من له أب ويحترم ابن من له ابن فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثانى) مامن مكلف الاوله سيئة أما غير الانبياء فظاهر واما الانبياء فلان ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (المسئلة التاسعة) قوله ولنجزينهم أحسن يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم وعلى الوجه الاول معناه نقدر أعمالهم أحسن ماتكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزى عليه ويترك الباقى وعلى الوجه

فدفعه اليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدي الا ثديك فقالت اني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي الا قبلني فقرره في يدها واجرى عليها فرجعت به الى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه كي تقر عينها) بوصول ولدها اليها (ولا تحزن) ﴿٦٤٦﴾ بفراقه (ولتعلم ان وعد الله) ي جميع ماوعده من رده وجعله من المرسلين (حق) لاخلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن أكثرهم لايعلمون) ان الامر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الاصلي من الرد علمها بذلك وماسواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون (ولما بلغ اشده) اى المبلغ الذى لايزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين الى أربعين سنة فان العقل يكمل حينئذ وروى انه لم يبعث نبي الا على رأس الاربعين (واستوى) اى اعتدل قده أو عقله (آتيناه حكما) اى نبوة (وعلما) بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل مايستجهل فيه وهو أوفق لنظم القصة لانه تعالى استنباه بعد الهجرة في المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وامه (نجزى المحسنين على احسانهم (ودخل المدينة) أي مصر من قصر فرعون وقيل منف اوحابين أو عين شمس ﴿ عنكم ﴾ من نواحيها (على حين غفلة من اهلها) في وقت لايعتاد دخولها اولا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته) اى ممن

الثاني معناه قريب من معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقوله فله خير منها (المسئلة العاشرة) ذكر حال المسيء مجملا بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن مجملا بقوله ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ومفصلا بهذه الآية ليكون ذلك اشارة الى ان رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله ❊ ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وفي الآية مسائل (الاولى) ماوجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها وبين ثواب من حقق التكاليف اصولها وفروعها تحريضا للمكلف على الطاعة ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه فقال الانسان ان انقاد لاحد ينبغي أن ينقاد لابويه ومع هذا لو أمراه بالمعصية لايجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شيء من طاعة الله ولا يتبعن أحدا من يأمر بمعصية الله (المسئلة الثانية) في القراءة قرئ حسنا واحسانا وحسنا أظهر ههنا ومن قرأ احسانا فمن قوله تعالى وبالوالدين احسانا والتفسير على القراءة المشهورة هو ان الله تعالى وصى الانسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتي بالفعل والقول ونكر حسنا ليدل على الكمال كما يقال ان لزيد مالا (المسئلة الثالثة) في قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا دليل على أن متابعتهم في الكفر لاتجوز وذلك لان الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن الى الوالدين فاتباع العبد أبويه لاجل الاحسان اليهما يفضي الى ترك الاحسان اليهما ومايفضي وجوده الى عدمه باطل فالاتباع باطل وأما اذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والاحسان اليهما من الطاعة فيأتي به فترك هذا الاحسان صورة يفضي الى الاحسان حقيقة (المسئلة الرابعة) الاحسان بالوالدين مأمور به لانهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازا والله تعالى سبب له في الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ثم قال تعالى وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما فقوله ماليس لك به علم يعني التقليد في الايمان ليس بجيد فضلا عن التقليد في الكفر فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لايطيعهما أصلا لان العلم بصحة قولهما محال الحصول فاذا لم يشرك تقليدا ويستحيل الشرك مع العلم فالشرك لايحصل منه قط ثم قال تعالى الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يعني عاقبتكم ومآلكم الى وان كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والاولاد والاقارب والعشائر ولاشك ان من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لايترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر ثم قوله تعالى فأنبئكم فيه لطيفة وهي ان الله تعالى يقول لاتظنوا أني غائب

شايعة على دينه وهم بنو اسرائيل (وهذا من عدوه) اى من مخالفيه دينا وهم القبط والاشارة على الحكاية (فاستغاثه الذى من شيعته) اى سأله ان يغيثه بالاعانة كما ينبئ عنه تعديته بعلى وقرئ استعانه (على الذى من عدوه

عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتمادا على غيبتى وعدم علمى بمخالفتكم اياى فانى حاضر معكم أعلم ماتفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه ❊ ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى اعادة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة أخرى نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتديا وضالا بقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولما تمم ذلك ذكر قسمين آخرين هاديا ومضلا فقوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا يقتضى أن يهتدى بهما وقوله وان جاهداك لتشرك بيان اضلالهما وقوله الى مرجعكم فأنبئكم بطريق الاجمال تهديد المضل وقوله والذين آمنوا على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة لبيان حال المهتدى ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال أولا لنكفرن عنهم سيئاتهم وقال ثانيا لندخلنهم فى الصالحين والصالحون هم الهداية لانه مرتبة الانبياء ولهذا قال كثير من الانبياء ألحقنى بالصالحين (المسئلة الثانية) قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون و بقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الامور الدنيوية فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل (المسئلة الثالثة) قيل فى معنى قوله لندخلنهم فى الصالحين لندخلنهم فى مقام الصالحين أى دار الصالحين والاولى ان يقال لاحاجة الى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء (المسئلة الرابعة) قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد ومافيه يتطرق اليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد و يتكون منه هواء وعالم السموات لا كون فيه ولافساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابا بخلاف الانسان فانه يصير ترابا أو شيئا آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى لندخلنهم فى الصالحين أى فى المجردين الذين لافساد لهم ❊ ثم قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أوليس الله بأعلم بمافى صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ❊ وكافر مجاهر بكفره وعناده ❊ ومذبذب بينهما يظهر الايمان بلسانه و يضمر الكفر فى فؤاده ❊ والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين و بين أحوالهما بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات الى قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات بين القسم الثالث وقال ومن الناس من يقول آمنا بالله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ومن الناس من يقول آمنا ولم يقل آمنت

فوكزه موسى) أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرئ فلكزه اى فضرب به صدره (فقضى عليه) فقتله وأصله انهى حياته من قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر (قال هذا من عمل الشيطان) لانه لم يكن مأمورا بقتل الكفار أو لانه كان مأمونا فيما بينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وانما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه جريا على سنن المقربين فى استعظام مافرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة والاضلال (قال) توسيطه بين كلاميه عليه الصلاة والسلام لابانة ما بينهما من المخالفة من حيث انه مناجاة ودعاء بخلاف الاول (رب انى ظلمت نفسى) أى بقتله (فاغفرلى) ذنبى (فغفرله) ذلك (انه هو الغفور الرحيم) أى المبالغ فى مغفرة

ذنوب عباده ورحمتهم (قال رب بما أنعمت على) اما قسم محذوف الجواب اى اقسم بانعامك على بالمغفرة لاتوبن (فلن اكون) بعد هذا أبدا (ظهيرا للمجرمين) واما استعطاف

اى بحق انعامك على اعصمنى فلن اكون معينا لمن تؤدى معاونته الى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلى به مرة أخرى وهذا يؤيد الاول وقيل معناه بما أنعمت على من القوة

مع انه وحد الافعال التى بعده كقوله تعالى فاذا أوذى فى الله وقوله جعل فتنة الناس وذلك لان المنافق كان يشبه نفسه بالمؤمن و يقول ايمانى كايمانك فقال آمنا يعنى أنا والمؤمن حقا آمنا اشعارا بان ايمانه كايمانه وهذا كما ان الجبان الضعيف اذا خرج مع الابطال فى القتال وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم فيصح من السامع لكلامه ان يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا وهذا الرد يدل على انه يفهم من كلامه ان خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم لانه لا يصح الانكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال وكذا قول القائل انا والملك ألفينا فلانا واستقبلنا ينكر لان المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا اظهار كون ايمانهم كايمان المحققين كان الواحد يقول آمنا أى أنا والمحق (المسئلة الثانية) قوله فاذا أوذى فى الله وهو فى معنى قوله وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى غير ان المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا لم يصبروا عليها فقال هناك أوذوا فى سبيلى وقال ههنا أوذى فى الله ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه ان الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه وكان يمكنه ان يظهر موافقتهم ان بلغ الايذاء الى حد الاكراه و يكون قلبه مطمئنا بالايمان فلا يترك الله ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة (المسئلة الثالثة) قوله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما ان عذاب الله صارف عن الكفر وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله و بالجملة معناه انهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الاليم الدائم حتى ترددوا فى الامر وقالوا ان آمنا نتعرض للتأذى من الناس وان تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد الا عند التساوى ومن أين الى أين تعذيب الناس لا يكون شديدا ولا يكون مديدا لان العذاب ان كان شديدا كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب وان كان مديدا كالحبس والحصر لا يكون شديدا وعذاب الله شديد وزمانه مديد وأيضا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وأيضا عذاب الناس عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عذاب أليم والمشقة اذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابا (المسئلة الرابعة) قال فتنة الناس ولم يقل عذاب الناس لان فعل العبد ابتلاء وامتحانا من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذا اشارة الى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحانا من الانسان كالصبر على العبادات (المسئلة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع

أعين أوليائك فلن استعملها فى مظاهرة أعدائك (فاصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة او الاجناد (فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه) أى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ (قال له موسى انك لغوى مبين) اى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما ان أراد) موسى (ان يبطش بالذى هو عدو لهما) أى لموسى والاسرائيلى اذ لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا اعداء ابنى اسرائيل على الاطلاق وقرئ يبطش بضم الثاء (قال) أى الاسرائيلى ظانا انه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبما يوهمه تسميته اياه غويا (ياموسى اتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس) قالوا لما سمع القبطى قول الاسرائيلى علم ان موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى فانطلق الى فرعون فاخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطى (ان تريد) أى ماتريد

(الآن تكون جبارا في الأرض) وهو الذي يفعل كل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب وقيل المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس بالقول والفعل (وجاء رجل من أقصى المدينة) أي كائن من آخرها أو جاء من آخرها (يسعى) أي يسرع صفة لرجل أو حال منه على أن الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فان تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ﴿ ٦٤٩ ﴾ وقيل شمعون وقيل شمعان (قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) أي يتشاورون بسببك فان كلا من المتشاورين يأمر الآخرين ويأتمر (فاخرج) أي من المدينة (انى لك من الناصحين) اللام للبيان لأن معمول الصلة لا يتقدمها (فخرج منها) أي من المدينة (خائفا يترقب) لحوق الطالبين (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم (ولما توجه تلقاء مدين) أي نحو مدين وهي قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لا يعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فاخذ في الوسطى وجاء الطلاب فشرعوا في الآخريين وقيل خرج حافيا لا يعيش الا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدميه وقيل جاءه ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به الى مدين (ولما ورد ماء مدين) أي وصل اليه وهو بئر كانوا يسقون منها (وجد عليه) أي ﴿ ٨٢ ﴾ س فوق شفيرها (أمة) جماعة كثيفة (من الناس يسقون) أي مواشيهم (ووجد من دونهم) أي في موضع أسفل منهم (امرأتين تذودان) أي تمنعان ما معهما من الاغنام عن التقدم الى البئر كيلا تختلط باغنامهم مع عدم الفائدة في التقدم (قال

المؤمن من اظهار كلمة الكفر بالاكراه لان من أظهر كلمة الكفر بالاكراه احترازا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله فنقول ليس كذلك لان من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لان عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في باطنه الايمان ثم قال تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم يعني دأب المنافق انه ان رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية وفيه فوائد نذكرها في مسائل (الاولى) قال ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله مع ان ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله أوذي في الله وقوله كعذاب الله وذلك لان الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة (المسئلة الثانية) لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال ولئن جاء نصر من ربك والنصر أو جاءهم ما كانوا يقولون انا كنا معكم وهذا يقتضى ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء النصر لكن النصر لا يجئ الا للمؤمن كما قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولان غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر لان النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل ان أحد الجيشين ان انهزم في الحال ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم المنصور الا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وان كسر في الحال فالعاقبة للمتقين فالنصر لهم في الحقيقة (المسئلة الثالثة) في ليقولن قراءتان احداهما الفتح حملا على قوله من يقول آمنا يعنى من يقول آمنا اذا أوذى يترك ذلك القول واذا جاء النصر يقول انا كنا معكم وثانيتهما الضم على الجمع اسنادا للقول الى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فان المنافقين كانوا جماعة ثم بين الله تعالى انهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لان التلبيس انما يكون عندما يخالف القول القلب فالسامع يبنى الامر على قوله ولا يدرى ما في قلبه فيلتبس الامر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور وهو أعلم بما في صدر الانسان من الانسان فلا يلتبس عليه الامر وهذا اشارة الى أن الاعتبار بما في القلب فالمنافق الذي يظهر الايمان ويضمر الكفر كافر والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الايمان مؤمن والله أعلم بما في صدور العالمين ولما بين انه أعلم بما في قلوب العالمين بين انه يعلم المؤمن المحق وان لم يتكلم والمنافق وان تكلم فقال وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقد سبق تفسيره لكن فيه مسئلة واحدة وهي ان الله قال هناك فليعلمن الذين صدقوا وقال ههنا وليعلمن الله الذين آمنوا فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر والكافر في قوله كاذب فانه يقول الله أكثر من واحد والمؤمن في قوله صادق فانه كان يقول الله واحد ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادق وكاذب

عليه السلام لهما حين رآهما على ماهما عليه من التأخر والذود (ماخطبكما) ماشأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود لم لا
تباشران السقي كدأب هؤلاء (قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء) اي عادتنا أن لانسقي حتى يصرف الرعاء مواشيهم بعد ريها من الماء
عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة الرجال لا أنا لانسقي اليوم الى تلك الغاية وحذف مفعول السقي والذود والاصدار لما أن
الغرض هو بيان تلك الافعال أنفسها اذ هي التي دعت موسى عليه السلام الى ماصنع في حقهما من المعروف فانه
عليه الصلاة والسلام انما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقي غير مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم ابلا مثلا وقرئ لانسقي من الاسقاء و يصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال وأما الرعاء فجمع قياسي كصيام وقيام وقوله تعالى (وأبونا شيخ كبير) ابلاء منهما العذر اليه عليه السلام في توليهما للسقي بأنفسهما كأنهما قالتا انا امرأتان ضعيفتان مستورتان لانقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم ومالنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقي الى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة عليهما والكلام في حذف مفعوله كما مر آنفا وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لايقله الا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فاقله وحده مع ماكان به من الوصب والجراحة
والجوع ولعله عليه الصلاة والسلام زاحمهم في السقي لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة ❋ قبله ❋
والسلام عن ذلك فان الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ماشاهد حالهما سارع الى السقي لهما وقد روي
أنه دفعهم عن الماء الى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروي أنه عليه

وكان ههنا المنافق صادقا في قوله فانه كان يقول الله واحد فاعتبر أمر القلب في المنافق
فقال وليعلمن المنافقين واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال وليعلمن الله الذين
آمنوا ❋ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم
وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ انهم لكاذبون) لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة
وأحوالهم وذكر أن الكافر يدعون من يقول آمنت الى الكفر بالفتنة وبين ان عذاب الله
فوقها وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الايذاء لاي شئ ولم لاتدفع عن
نفسك الذل والعذاب بموافقتنا فكان جواب المؤمن أن يقول خوفا من عذاب الله على
خطيئة مذهبكم فقالوا لاخطيئة فيه وان كان فيه خطيئة فعلينا وفي الآية مسائل
(المسئلة الاولى) ولنحمل صيغة أمر والمامور غير الآمر فكيف يصح أمر النفس من
الشخص فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي ان اتبعتمونا حملنا خطاياكم قال
صاحب الكشاف هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود فيقول ليكن منك
العطاء وليكن مني الدعاء فقوله ولنحمل أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب
وايجاب (المسئلة الثانية) قال وماهم بحاملين من خطاياهم وقال بعد هذا وليحملن أثقالهم
وأثقالا مع أثقالهم فهناك نفي الحمل وههنا أثبت الحمل فكيف الجمع بينهما فنقول قول
القائل فلان حمل عن فلان يفيد ان حمل فلان خف واذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه
شيئا فكذلك ههنا ماهم بحاملين من خطاياهم يعني لايرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون
أوزارا بسبب اضلالهم و يحملون أوزارا بسبب ضلالتهم كما قال النبي عليه السلام من
سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شئ (المسئلة
الثالثة) الصيغة أمر والامر لايدخله التصديق والتكذيب فكيف يفهم قوله انهم
لكاذبون نقول قد تبين ان معناه شرط وجزاء فكأنهم قالوا ان تبعتمونا نحمل خطاياكم
وهم كذبوا في هذا فانهم لايحملون شيئا ❋ ثم قال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم
وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه
(أحدها) كان قولهم ولنحمل خطاياكم صادرا لاعتقادهم أن لاخطيئة في الكفر ثم يوم
القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) ان قولهم ولنحمل
خطاياكم كان عن اعتقاد أن لاحشر فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون
ويقال لهم أما قلتم أن لاحشر (وثالثها) انهم لما قالوا ان تبعتمونا نحمل يوم القيامة
خطاياكم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسئلون ويقال لهم لم افتريتم ❋ ثم قال
تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) وجه
تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد
المؤمن الصادق بالثواب العظيم وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الاليم وكان
قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصا بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك بل

فاستقى بها وصبها فى الحوض الصلاة والسلام سالهم دلوا من ماء فاعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا ينزعها الا أربعون ودعا بالبركة وروى غنمهما وأصدرهما (ثم تولى الى الظل) الذى كان هناك (فقال رب انى لما أنزلت الى) أى أى شئ أنزلته الى (من خير) جل أو قل وحمله الاكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) أى محتاج ولتضمنه معنى السؤال والطلب جئ بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما انزلت الى من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا فى الدنيا لانه كان فى سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام اظهارا للتبجح والشكر على ذلك (فجاءته احداهما) قيل هى كبراهما واسمها صفوراء او صفراء وقيل صغراهما واسمها صفيراء أى جاءته عقيب مارجعتا الى أبيهما روى أنهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس وأغنامهما احفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحدهما اذهبى فادعيه لى وقوله تعالى (تمشى) حال من فاعل جاءت وقوله تعالى (على استحياء) متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشى أى جاءته تمشى كائنة على استحياء فمعناه انها كانت على استحياء حالتى المشى والمجئ معا لا عند المجئ فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة اى شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها (قالت) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيئها اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت (ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) اى جزاء سقيك لنا أسندت الدعوة الى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روى انه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهى امامه فالزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليهما

قبله كان كذلك كما قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبى عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ثم قال تعالى فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما وفى الآية مسائل (الاولى) ما الفائدة فى ذكر مدة لبثه نقول كان النبى عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الاسلام واصرارهم على الكفر فقال ان نوحا لبث ألف سنة تقريبا فى الدعاء ولم يؤمن من قومه الا قليل وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك و كثرة عدد أمتك وأيضا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغى أن يغتروا فان العذاب يلحقهم (المسئلة الثانية) قال بعض العلماء الاستثناء فى العدد تكلم بالباقى فاذا قال القائل لفلان على عشرة الا ثلاثة فكأنه قال على سبعة اذا علم هذا فقوله ألف سنة الا خمسين عاما كقوله تسعمائة وخمسين سنة فما الفائدة فى العدول عن هذه العبارة الى غيرها فنقول قال الزمخشرى فيه فائدتان (احداهما) ان الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فان من قال عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريبا لا تحقيقا فاذا قال الا شهرا أو الا سنة يزول ذلك التوهم و يفهم منه التحقيق (الثانية) هى ان ذكر لبث نوح عليه السلام فى قومه كان لبيان انه صبر كثيرا فالنبى عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه واذا كان كذلك فذكر العدد الذى فى أعلى مراتب الاعداد التى لها اسم مفرد موضوع فان مراتب الاعداد هى الآحاد الى العشرة والعشرات الى المائة والمآت الى الالف ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ومائة ألف وألف ألف (المسئلة الثالثة) قال بعض الاطباء العمر الانسانى لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذى فى الانسان ممكن لذاته والا لما بقى ودوام تاثير المؤثر فيه ممكن لان المؤثر فيه ان كان واجب الوجود فظاهر الدوام وان كان غيره فله مؤثر و ينتهى الى الواجب وهو دائم فتأثيره يجوز أن يكون دائما فاذا البقاء ممكن فى ذاته فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم والا لما بقى هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا و بينهم لانهم يقولون العمر الطبيعى لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعيا بل هو عطاء الهى وأما العمر الطبيعى فلا يدوم عندنا ولا لحظة فضلا عن مائة أو أكثر ✻ قوله تعالى (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) فيه اشارة الى لطيفة وهى ان الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم والا لعذب من ظلم وتاب فان الظلم وجد منه وانما يعذب على الاصرار على الظلم فقوله وهم ظالمون يعنى أهلكهم وهم على ظلمهم ولو كانوا تركوه لما أهلكهم ✻ قوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) فى الراجع اليه الهاء فى قوله جعلناها وجهان (أحدهما) انها راجعة الى السفينة المذكورة وعلى هذا فى كونها آية وجوه (أحدها) انها اتخذت قبل

... المقصوص فانه مصدر سمى به المفعول كالعلل (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام انما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام و يستظهر برأيه لا ليأخذ بمعروفه أجرا حسبما صرحت به الآية الى ماروى أن شعيبا لما قدم اليه طعاما قال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الارض ذهبا ولا نأخذ

على المعروف ثمنا ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف و يكرم لا سيما فى دار نبى من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الاجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روى عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعهما ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله عليه السلام انما فعله ليكون ذريعة الى استدعائه لا الى استيفاء الاجر (قالت احداهما) وهى التى استدعته الى أبيها وهى التى زوجها من موسى عليهما السلام (ياأبت استأجره) أى لرعى الغنم والقيام بأمرها (ان خير من استأجرت القوى الامين) تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فى ذلك جعل خير اسما لان وذكر الفعل على صيغة الماضى للدلالة على أنه أمين مجرب روى أن شعيبا عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ماشاهدت منه عليه السلام من اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه ﴿ وقال ﴾ (قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى) أى تكون أجيرا لى او تثيبنى من أجرت كذا اذا

ظهور الماء ولولا اعلام الله نوحا وانباؤه اياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) ان نوحا أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ثم ان الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) ان الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثانى) انها راجعة الى الواقعة والى النجاة أى جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين ﴿ ثم قال تعالى (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) لما فرغ من الاشارة الى حكاية نوح ذكر حكاية ابراهيم وفى ابراهيم وجهان من القراءة أحدهما النصب وهو المشهور والثانى الرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم والاول فيه وجهان أحدهما انه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم والثانى انه منصوب بمذكور وهو قوله ولقد أرسلنا فيكون كأنه قال وأرسلنا ابراهيم وعلى هذا فى الآية مسائل (الاولى) قوله اذ قال لقومه ظرف أرسلنا أى أرسلنا ابراهيم اذ قال لقومه لكن قوله لقومه اعبدوا الله دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله وأرسلنا ابراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الارسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا وهذا كما يقول القائل وقفت للامير اذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج لكن لما كان الوقوف ممتدا الى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثانى) هو ان ابراهيم بمجرد هداية الله اياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم الى الرشاد قبل الارسال ولما كان هو مشتغلا بالدعاء الى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله اعبدوا الله واتقوه اشارة الى التوحيد لان التوحيد اثبات الاله ونفى غيره فقوله اعبدوا الله اشارة الى الاثبات وقوله واتقوه اشارة الى نفى الغير لان من يشرك مع الملك غيره فى ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ويمكن أن يقال اعبدوا الله اشارة الى الاتيان بالواجبات وقوله واتقوه اشارة الى الامتناع عن المحرمات ويدخل فى الاول الاعتراف بالله وفى الثانى الامتناع من الشرك ثم قوله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يعنى عبادة الله وتقواه خير والامر كذلك لان خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتبارا أما عقلا فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنا قطعا للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل اذ لنا الله وأما التشريك فبطلانه عقلا وكون خلافه خيرا هو أن شريك الواجب ان لم يكن واجبا فكيف يكون شريكا وان كان واجبا لزم وجود واجبين فيشتركان فى الوجوب ويتباينان فى الالهية وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل وأما اعتبارا فلأن الشرف لمن يكون ملكا أو قريب ملك لكن الانسان لا يكون ملكا للسموات والارضين فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى واسجد واقترب

أثبته اياه فقوله تعالى (ثمانى حجج) على الاول ظرف وعلى الثانى
عن المبرد انه يقال أجرت دارى ومملوكى غير ممدود واجرت ممدودا والاول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثانى محذوفا
والمعنى على أن تأجرنى نفسك وقوله تعالى ثمانى حجج ظرف كالوجه الاول (فان أتممت عشرا) فى الخدمة والعمل
(فمن عندك) أى فهو من عندك بطريق التفضل لا من عندى بطريق الالزام عليك وهذا
من شعيب عرض لرأيه على
موسى عليهما السلام
واستدعاء منه للعقد لا انشاء
وتحقيق له بالفعل (وما أريد
أن أشق عليك) بالزام اتمام
العشر أو المناقشة فى مراعاة
الاوقات واستيفاء الاعمال
واشتقاق المشقة من الشق
فان ما يصعب عليك يشق
عليك اعتقادك فى اطاقته
و يوزع رأيك فى مزاولته
(ستجدنى ان شاء الله من
الصالحين) فى حسن المعاملة
ولين الجانب والوفاء بالعهد
ومراده عليه الصلاة والسلام
بالاستثناء التبرك به وتفويض
أمره الى توفيقه تعالى
لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى
(قال ذلك بينى وبينك)
مبتدأ وخبر أى ذلك الذى
قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى
عليه قائم وثابت بيننا جميعا
لا يخرج عنه واحد منا لا أنا
عما شرطت على ولا أنت عما
شرطت على نفسك وقوله
تعالى (أيما الاجلين) أى
أكثرهما واقصرهما (قضيت)
أى وفيتكه بأداء الخدمة فيه
(فلا عدوان على) تصريح
بالمراد وتقرير لامر الخيرة
أى لا عدوان على بطلب الزيادة على ما قضيته من الاجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الاجلين بصدد المشارطة
مع عدم تحقق العدوان فى أكثرهما رأسا للقصد الى التسوية بينهما فى الانتفاء أى كما لا أطالب بالزيادة على العشر
لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الاجلين قضيت فلا اثم على يعنى كما لا اثم على فى قضاء الاكثر لا اثم على فى

وقال ان يتقرب المتقربون الى بمثل اداء ما افترضت عليهم وقال لا يزال العبد يتقرب
بالعبادة الى فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده بملك فلا مرتبة له أصلا واما
التشريك فلان من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء
خسيسة فاذن من يقول ان ربى لا يماثله شئ أعلى مرتبة ممن يقول سيدى صنم منحوت
عاجز مثله فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أى خير للناس ان كانوا يعلمون
ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات ✵ ثم قال تعالى (انما تعبدون من دون الله أوثانا
وتخلقون افكا) ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه وذلك لان المعبود انما يعبد لاحد أمور
اما لكونه مستحقا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذى اشتراه سواء أطعمه من الجوع
أو منعه من الهجوع واما لكونه نافعا فى الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله اليه
كالمستخدم باجره واما لكونه نافعا فى المستقبل كمن يخدم غيره متوقعا منه أمرا فى
المستقبل واما لكونه خائفا منه فقال ابراهيم انما تعبدون من دون الله أوثانا اشارة الى
انها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانا لا شرف لها ✵ قوله تعالى (ان الذين تعبدون
من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه
ترجعون) اشارة الى عدم المنفعة فى الحال وفى المآل وهذا لان النفع اما فى الوجود واما
فى البقاء لكن ليس منهم نفع فى الوجود لان وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها
ولا نفع فى البقاء لان ذلك بالرزق وليس منهم ذلك ثم بين ان ذلك كله حاصل من الله فقال
فابتغوا عند الله الرزق فقوله الله اشارة الى استحقاق عبوديته لذاته وقوله الرزق اشارة
الى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفى الآية مسائل (الاولى) قال لا يملكون لكم رزقا
نكرة وقال فابتغوا عند الله الرزق معرفا فما الفائدة فنقول قال الزمخشرى قال لا يملكون
لكم رزقا نكرة فى معرض النفى أى لا رزق عندهم أصلا وقال معرفة عند الاثبات عند
الله أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه وفيه وجه آخر وهو ان الرزق من الله معروف بقوله
وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير معلوم فقال لا يملكون
لكم رزقا لعدم حصول العلم به وقال فابتغوا عند الله الرزق الموعود به ثم قال فاعبدوه أى
اعبدوه لكونه مستحقا للعبادة لذاته واشكروا له أى لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها
بالرزق واليه ترجعون أى اعبدوه لكونه مرجعا منه توقع الخير لا غير ✵ ثم قال تعالى
(وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) لما فرغ من بيان
التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال وان تكذبوا وفى المخاطب فى هذه الآية وجهان
(أحدهما) انه قوم ابراهيم والآية حكاية عن قوم ابراهيم كأن ابراهيم قال لقومه ان
تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما على من التبليغ فان الرسول ليس عليه
الا البلاغ والبيان (والثانى) انه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه ان الحكايات
أكثرها انما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيرا ما يقول الحاكى

وقرئ أى الأجلين ما قضيت بما مزيدة لتاكيد القضاء كأنها فى القراءة الاولى مزيدة لتاكيد ابهام

أى وشباعها وقرئ ايما بسكون الياء كقول من قال تنظرت نصرا والسماكين أيهما * على من الغيث استهلت مواطره

(والله على ما نقول) من الشروط الجارية بيننا (وكيل) شاهد وحفيظ فلا سبيل لاحد منا الى الخروج عنه أصلا

وليس ما حكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ﴿ ٦٥٤ ﴾ ماجرى بينهما من الكلام فى انشاء عقد النكاح

وعقد الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة اجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين فى تلك الشريعة تفصيلا روى أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الانبياء يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده الا هى سبع مرات فعلم أن له شأنا وقيل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا وقيل أودعها شعيبا ملك فى صورة رجل فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع فى يدها غيرها فدفعها اليه ثم ندم لانها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله تعالى عنه ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبى رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح

لاى شئ حكيت هذه الحكاية فالنبى عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب فقال فى اثناء حكاياتهم ياقوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ماجا على غيركم وعلى الوجه الاول فى الآية مسائل (الاولى) ان قوله فقد كذب أمم كيف نفهم مع ان ابراهيم لم يسبقه الا قوم نوح وهم امة واحدة والجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قبل نوح كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم (والثانى) ان نوحا عاش الفا واكثر وكان القرن يموت ويجئ أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمما (المسئلة الثانية) ما البلاغ وما المبين فنقول البلاغ هو ذكر المسائل والابانة هى اقامة البرهان عليه (المسئلة الثالثة) الآية تدل على ان تاخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتيا بما عليه ✱ ثم قال تعالى (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير) لما بين الاصل الاول وهو التوحيد وأشار الى الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله وما على الرسول الا البلاغ المبين شرع فى بيان الاصل الثالث وهو الحشر وقد ذكرنا مرارا ان الاصول الثلاثة لا تكاد تنفصل بعضها عن بعض فى الذكر الالهى فاينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث وفى الآية مسائل (الاولى) الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدأ الله فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والا لما كان الخلق الاول خلقا أول فهو من الله هذا ان قلنا ان المراد اثبات نفس الخلق وان قلنا ان المراد بالبدء خلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا فنقول العاقل لا يخفى عليه ان خالق نفسه ليس الا قادر حكيم يصور الاولاد فى الارحام ويخلقه من نطفة فى غاية الاتقان والاحكام فذلك الذى خلق أولا معلوم ظاهر فاطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية وقال اولم يروا أى ألم يعلموا علما ظاهرا واضحا كيف يبدئ الله الخلق يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم فان من نحت حجارات ووضع شيأ بجنب شئ ففرقه أمرما فانه يقول وضعه شيأ بجنب شئ فى هذه النوبة أسهل على لان الحجارات منحوتة ومعلوم ان آية واحدة منها تصلح لان تكون بجنب الاخرى وعلى هذا المخرج خرج كلام الله فى قوله وهو أهون واليه الاشارة بقوله ان ذلك على الله يسير (المسئلة الثانية) قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال أولم يروا ان الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم وهو انه خلقه ولم يك شيأ مذكورا وانه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بامكان الاعادة فان الاعادة مثله (المسئلة الثالثة) لم قال ثم يعيده ان ذلك على الله يسير فابرز اسمه مرة أخرى ولم يقل ان ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابراز نقول مع اقامة البرهان على انه يسير فاكده

قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما اذا بلغت مفرق الطريق فلا تاخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها اكثر الا أن فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على اثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشأن ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فاوحى اليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة الا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه والفاء فى قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل) فصيحة أى فعقدا العقدين و باشر موسى ما التزمه فلما أتم الاجل (وسار بأهله) نحو مصر باذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى أبعد الاجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود الى مصر فاستأذنه فى ذلك فأذن له فخرج بأهله (آنس من جانب الطور) أى أبصر من الجهة التى تلى الطور (نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) أى بخبر الطريق وقد كانوا اضلوه (أو جذوة) أى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار أو لا قال قائلهم

* باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا دعر * وقال والقى على قبس من النار جذوة * شديدا عليها حرها والتهابها ولذلك بين بقوله تعالى (من النار) وقرئ بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها (نودي من شاطئ الوادى الايمن) أى اتاه النداء

باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ العالم بعلم محيط بذرات كل جسم نافذ الارادة لا راد لما أراده يقطع بجواز الاعادة * ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير) الآية المتقدمة كانت اشارة الى العلم الحدسى وهو الحاصل من غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه وقال فى هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى اقطار الارض لتعلموا بالعلم الفكرى وهذا لان الانسان له مراتب فى الادراك بعضهم يدرك شيأ من غير تعليم واقامة برهان له وبعضهم لا يفهم الا ببيانه و بعضهم لا يفهمه أصلا فقال ان كنتم لستم من القبيل الاول فسيروا فى الارض أى سيروا فكركم فى الارض وأجيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل (الاولى) قال فى الآية الاولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين والرؤية اتم من النظر لان النظر يفضى الى الرؤية يقال نظرت فرأيت و يفضى الى الشئ دون ذلك الشئ فقال فى الاول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الارض لتحصل لكم الرؤية (المسئلة الثانية) ذكر هذه الآية بصيغة الامر وفى الآية الاولى بصيغة الاستفهام لان العلم الحدسى ان حصل فالامر به تحصيل الحاصل وان لم يحصل فلا يحصل الا بالطلب لان بالطلب يصير الحاصل فكريا فيكون الامر به تكليف ما لا يطاق واما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الامر به (المسئلة الثالثة) أبرز اسم الله فى الآية الاولى عند البدء حيث قال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال ثم الله ينشئ لان فى الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف يبدئ الله ثم قال ثم يعيده كما يقول القائل ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد اكتفاء بالاول وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل اما علمت كيف خرج زيد اسمع منى كيف خرج ولا يظهر اسم زيد واما اظهاره عند الانشاء ثانيا حيث قال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفى أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا ان مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسمه ليفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرا مبرزا ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته و يعترف بوقوع بدئه وجواز اعادته فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة نقول لوجهين أحدهما ان الله كان مظهرا مبرزا بقرب منه وهو فى قوله كيف يبدئ الله الخلق ولم يكن بينهما الا لفظ الخلق واما ههنا فلم يكن مذكورا عند البدء فاظهره وثانيهما ان الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لان الدلائل منحصرة فى الآفاق وفى الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى

الآفاق وفى انفسهم وفى الآية الاولى اشار الى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه وفى الآية الثانية اشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا فى الارض وعندهما تم الدليلان فاكده باظهار اسمه وأما الدليل الاول فاكده بالدليل الثانى فلم يقل ثم الله يعيده (المسئلة الرابعة) فى الآية الاولى ذكر بلفظ المستقبل فقال اولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضى فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدأ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم ببدء الخلق فقال ان كان ليس لكم علم بان الله فى كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بان الله بدأ خلقا ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال فى هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال فى الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول هو الدليل النفسى وهو وان كان موجبه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم العام لانه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته الى الله ووجوده منه وبالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بان كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هى انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل أن القائل يقول فى حق من يحمل مائة من انه قادر عليه ولا يقول انه سهل عليه فاذا سئل عن حمله عشرة أمنان يقول ان ذلك عليه سهل يسير فنقول قال الله تعالى ان لم يحصل لكم العلم التام بان هذه الامور عند الله سهل يسير فسيروا فى الارض لتعلموا انه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف فى امكان الاعادة ✺ ثم قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلا وحكمة واثابة أهل الانابة فضلا ورحمة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكيا عنه سبقت رحمتى غضبى فنقول ذلك لوجهين أحدهما ان السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة وكما ذكر بعد اثبات الاصل الاول هو التوحيد التهديد بقوله وان تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد اثبات الاصل الآخر التهديد بذكر التعذيب وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا يحقق قوله سبقت رحمتى غضبى وذلك لان الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا لتخويف العاصى وتفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله يعذب من يشاء لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى

من الشاطئ الايمن بالنسبة الى موسى عليه السلام (فى البقعة المباركة) متصل بالشاطئ أو صلة لنودى (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ لانها كانت نابتة على الشاطئ (أن ياموسى انى انا الله رب العالمين) وهذا وان خالف لفظا لما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد (وأن ألق عصاك) عطف على أن ياموسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ﴿٦٥٦﴾ تعويلا على دلالة الحال عليها واشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فلما رآها تهتز (كأنها جان) أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها (ولى مدبرا) أى منهزما من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع (ياموسى) أى قيل ياموسى (أقبل ولا تخف انك من الآمنين) من المخاوف فانه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أى أدخلها فيه (تخرج بيضاء من غير سوء) أى عيب (واضمم اليك جناحك) اى يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع بادخال اليمنى تحت العضد الايسر واليسرى تحت الايمن او بادخالهما فى الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر هو ان يكون ذلك فى وجه العدو اظهار جراءة ومبدأ الظهور معجزة ويجوز ان يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الطائر فانه اذا خاف نشر ﴿لا أكون﴾ جناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه (من الرهب) أى من أجل الرهب اى اذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك وقرئ بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات (فذانك) اشارة الى العصا واليد وقرئ بتشديد النون فالمخفف مثنى ذاك والمشددة مثنى ذلك

لا أكون ممن يشاء الله عذابه فنقول هذا أبلغ فى التخويف وذلك لان الله أثبت بهذا
انفاذ مشيئته اذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم
الوعد والايعاد انه شاء تعذيب أهل العناد فلزم منه الخوف التام بخلاف مالو قال
يعذب العاصى فانه لا يدل على كمال مشيئته لانه لا يفيد انه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه فاذا لم
يفد هذا فيقول الكافر اذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة
أخرى وانضرب له مثلا فنقول اذا قيل ان الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال
من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه واذا قيل انه قادر على ضرب
المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف
انه لا يقدر على ضرب فلان المطيع فلا يقدر على أيضا لكونى مثله وفى هذا فائدة أخرى
وهو الخوف العام والرجاء العام لان الامن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى الى
صيرورة المطيع عاصيا (المسئلة الثالثة) قال ثم اليه تقلبون مع أن هذه المسئلة قد سبق
اثباتها وتقريرها فلم أعادها فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين
فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا انه فات فان اليه ايابكم وعليه حسابكم وعنده
يدخر ثوابكم وعقابكم ولهذا قال بعدها وما أنتم بمعجزين يعنى لا تفوتون الله بل الانقلاب
اليه ولا يمكن الانفلات منه وفى تفسير هذه الآية لطائف (احداها) هى اعجاز المعذب عن
التعذيب اما بالهرب منه أو بالثبات له والمقاومة معه للدفع وذكر الله القسمين فقال
وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء يعنى بالهرب لو صعدتم الى محل السماك فى
السماء أو هبطتم الى موضع السموك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع
فى الاعجاز بالهرب وأما بالثبات فكذلك لان الاعجاز اما أن يكون بالاستناد الى ركن
شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم
يقوم معه بالدفع وكلاهما محال فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا
نصير يدفع فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال ما أنتم بمعجزين ولم يقل
لا تعجزون بصيغة الفعل وذلك لان نفى الفعل لا يدل على نفى الصلاحية فان من قال
ان فلانا لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله انه ليس بخياط (الثالثة) قدم الارض على
السماء والولى على النصير لان هربهم الممكن فى الارض فان كان يقع منهم هرب يكون
فى الارض ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السما وأما الدفع فان
العاقل ما أمكنه الدفع باجمل الطرق فلا يرتقى الى غيره والشفاعة أجمل ولان ما من أحد
فى الشاهد الا ويكون له شفيع يتكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر
يعادى الملك لاجله ❊ ثم قال تعالى (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى
واولئك لهم عذاب أليم) لما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان وهدد من
خالفه على سبيل التفصيل فقال والذين كفروا بآيات الله ولقائه اشارة الى الكفار

(برهانان) حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل اذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل اذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء
برهاء وبرهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لانارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى (من
ربك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنان منه تعالى (الى فرعون وملائه) واصلان ومنتهيان اليهم (انهم
كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود الظلم والعدوان ❊ ٦٥٧ ❊ فكانوا أحقاء بأن نرسلك اليهم بهاتين المعجزتين
الباهرتين (قال رب انى قتلت
منهم نفسا فأخاف أن يقتلون)
بمقابلتها (وأخى هرون هو
أفصح منى لسانا فأرسله معى
ردأ) أى معينا وهو فى الاصل
اسم ما يعان به كالدفء وقرئ
ردا بالتخفيف (يصدقنى)
بتلخيص الحق وتقرير الحجة
بتوضيحها وتزييف الشبهة
(انى أخاف أن يكذبون)
ولسانى لا يطاوعنى عند
المحاجة وقيل المراد تصديق
القوم لتقريره وتوضيحه لكنه
أسند اليه اسناد الفعل الى
السبب وقرئ يصدقنى
بالجزم على أنه جواب الامر
(قال سنشد عضدك باخيك)
أى سنقويك به فان قوة
الشخص بشدة اليد على
مزاولة الامور ولذلك يعبر
عنه باليد وشدتها بشدة
العضد (ونجعل لكما
سلطانا) أى تسلطا وغلبة
وقيل حجة وليس بذاك
(فلا يصلون اليكما) باستيلاء
أو محاجة (بآياتنا) متعلق
بمحذوف قد صرح به فى مواضع
أخر أى اذهبا بآياتنا أو بنجعل
أى نسلطكما بآياتنا أو بمعنى
لا يصلون أى تمتنعون منهم
بها وقيل هو قسم وجوابه ❊ ٨٣ ❊ س لا يصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى (أنتما ومن اتبعكما
الغالبون) بمعنى أنه صلة لما يبينه او صلة له على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أى
واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد اذهما اللتان أظهرهما

موسى عليه السلام اذذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر سره فى سورة طه (قالوا ماهذا الاسحر مفترى) اى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله او سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى او سحر موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر (وماسمعنا بهذا) أى السحر او ادعاء النبوة (فى ابائنا الاولين) أى واقعا فى أيامهم (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد به نفسه وقرئ قال بغير واو لانه جواب عن مقالهم ووجه العطف أن المراد * حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز ٦٥٨ *

صحيحهما من الفاسد (ومن تكون له عاقبة الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الاصلية هى الجنة لانها خلقت مجازا الى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيآت الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية (انه لايفلح الظالمون) أى لايفوزون بمطلوب ولاينجون عن محذور (وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) قاله اللعين بعدما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من أمرهم ما كان (فأوقد لى ياهامان على الطين) أى اصنع آجرا (فاجعل لى منه (صرحا) أى قصرا رفيعا (لعلى اطلع الى اله موسى) كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما فى السماء يمكن الرقى اليه ثم قال (وانى لاظنه من الكاذبين) أو أراد أن يبنى له رصدا يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها مايدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولافى الارض فان معناه بما ليس ﴿ لم فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم انتفاؤها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذه

بالله فان لله فى كل شئ آية دالة على وحدانيته فاذا أشرك كفر بآيات الله واشارة الى المنكر للحشر فان من انكره كفر بلقاء الله فقال أولئك يئسوا من رحمتى لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لان من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لاغير يرحم واذا كان له جهات متعددة لايبقى محلا للرحمة فاذا جعلوا الهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة الى طريق متعين فيأسوا من رحمة الله ولما أنكروا الحشر وقالوا لاعذاب فناسب تعذيبهم تحقيقا للامر عليهم وهذا كما ان الملك اذا قال أعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لايصل الى فاذا أحضره بين يديه يحسن منه أن يعذبه و يقول هل قدرت وهل عذبت أم لا فاذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الاشراك والعذاب الاليم يناسب انكار الحشر ثم ان فى الآية فوائد (احداها) قوله أولئك يئسوا حتى يكون مبتدأ عن حصر الناس فيهم وقال أيضا وأولئك لهم عذاب أليم لذلك ولو قال اولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتى ولهم عذاب أليم ماكان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله أولئك مرة واحدة كان يكفى فى افادة ماذكر ثم قلنا لا وذلك لانه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب كان يذهب وهم أحد الى أن هذا المجموع منحصر فيهم فلا يوجد المجموع الافيهم ولكن واحد منهما وحده يمكن ان يوجد فى غيرهم فاذا قال أولئك يئسوا واولئك لهم عذاب افاد ان كل واحد لايوجد الافيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة اضافها الى نفسه فقال رحمتى وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته واعلاما لعباده بعموم اهلهم ولزوم اهماله (الثالثة) أضاف اليأس اليهم بقوله أولئك يئسوا فحرمها عليهم ولو طمعوا لاباحها لهم فلو قال قائل ماذكرت من مقابلة الامرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لايكون العذاب الاليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر أو لايكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول معنى الآية انهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ولاشك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لايكون الا للكافر بالحشر واما الآخر فالكافر بالحشر لايكون مؤمنا بالله لان الايمان به لايصح الا اذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك * ثم قال تعالى (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لما أتى ابرهيم عليه السلام ببيان الاصول الثلاثة وأقام البرهان عليه بقى الامر من جانبهم اما الاجابة أو الاتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا الا بقولهم اقتلوه أو حرقوه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) كيف سمى قولهم اقتلوه جوابا مع انه ليس بجواب فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا اقابله بالجواب وانما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لاتجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثانى) هو ان الله أراد بيان ضلالتهم وهو انهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع انه ليس بجواب فتبين انهم

على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظيم ولذلك نادى هامان باسمه يا فى وسط الكلام (واستكبر هو وجنوده فى الارض) أرض مصر (بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا انهم الينا لا يرجعون) بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والاول من رجع رجعا وهو الانسب بالمقام (فاخذناه وجنوده) عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات (فنبذناهم فى اليم) فقد مر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الاخذ وتهويله واستحقار المأخوذين المنبوذين ما لا يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وبينها للناس ليعتبروا بها (وجعلناهم) أى صيرناهم فى عهدهم (أئمة يدعون) الناس (الى النار) الى ما يؤدى اليها من الكفر والمعاصى أى قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم الى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة الى النار كما فى قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا فالانسب حينئذ أن يكون الجعل بعدهم فيما بين الامم وتكون الدعوة الى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الالطاف الصارفة عن ذلك (ويوم القيامة لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا وابعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفا عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قاله ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه اذا جعله قبيحا وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة اما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف

لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لان من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم انه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات اما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (المسئلة الثانية) القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضا هم فيكون الآمر نفس المأمور فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه فحصل الامر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد لان كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو ان الجواب لا يكون الا من الاكابر والرؤساء فاذا قال اعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت الى عدم قول العبيد والارذال فكان جواب قومه وهم الرؤساء ان قالوا الاتباعهم وأعوانهم اقتلوه لان الجواب لا يباشره الا الاكابر والقتل لا يباشره الا الاتباع (المسئلة الثالثة) أو يذكر بين أمرين الثانى منهما ينفك عن الاول كما يقال زوج أو فرد ويقال هذا انسان أو حيوان يعنى ان لم يكن انسانا فهو حيوان ولا يصح ان يقال هذا حيوان أو انسان اذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيوانا فهو انسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو انسان الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون أو مستعملا فى موضع بل كما يقول القائل أعطيته دينارا أو دينارين وكما يقول القائل اعطه دينارا بل دينارين قال الله تعالى قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثانى) هو انا نسلم ما ذكرتم والامر هنا كذلك لان التحريق فعل مفض الى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من أتى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات فكذلك ههنا قالوا اقتلوه ولا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار وان ترك مقالته فخلوا سبيله وان أصر فخلوا فى النار مقيله ثم قال تعالى فأنجاه الله من النار اختلف العقلاء فى كيفية الانجاء بعضهم قال برد النار وهو الاصح الوافق لقوله تعالى يا نار كونى بردا وبعضهم قال خلق فى ابراهيم كيفية استبرد منها النار وقال بعضهم ترك ابراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع اذى النار عنه والكل ممكن والله قادر عليه وأنكر بعض الاطباء الكل أما سلب الحرارة عن النار قالوا الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الاربعة لا يمكن أن تفارقها وأما خلق كيفية تستبرد النار فلان المزاج الانسانى له طرفان تفريط وافراط فلو خرج عنهما لا يبقى انسانا أو لا يعيش مثلا المزاج ان كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون انسانا فان صار أحد عشر لا يكون انسانا وان صارت الاجزاء الباردة خمسة يبقى انسانا فاذا صارت أربعة لا يبقى انسانا لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل فى الانسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة فى النار والنار كما هى والقطنة كما هى ولا تحترق فنقول الآية

لا بمعنى الذى او بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى
التوراة (من بعد ما اهلكنا القرون الاولى) هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون ايتائها بعد
اهلاكهم للاشعار بمساس الحاجة الداعية اليه تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن الكريم على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الاولى من موجبات ﴿ ٦٦٠ ﴾ اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها
المؤديين الى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الامم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الامم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى ايتائها (بصائر للناس) أى أنوار القلوب بهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميا عن الفهم والادراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر (وهدى) أى هداية الى الشرائع والاحكام التى هى سبل الله تعالى (ورحمة) حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف اى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة (لعلهم يتذكرون) ليكونوا على حال يرجى منه التذكر
وقد مر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى (وما كنت بجانب ﴿ النار ﴾
الغربى) شروع فى بيان أن انزال القرآن الكريم أيضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة
وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله

ردعليهم والعقل موافق للنقل اما الاول فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل
الاشتداد والضعف فان النار فى الفحم اذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وان لم ينفخ
لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة كانت فى النار فاذا أمكن عدم البعض
جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها الى أن ينتهى الى حد لا يؤذى الانسان ولا كذلك
الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثانى) وهو ان فى أصول الطب ذكر أن النار لها
كيفية حارة كما ان الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء
فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارا وهو نور غير محرق واما الثانى فأيضا ممكن
وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله
قادر على أن يخلق النفس الانسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجمد (وثانيهما) ان نقول
على أصلكم لا يلزم المحال لان الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالاجزاء الرشية
عليه ولا يتأتى الى القلب والاعضاء الرئيسة الا ترى ان الانسان اذا مس الجمد زمانا ثم
مس جمرة نارا لا تؤثر النار فى احراق يده مثل ما تؤثر فى احراق يد من اخرج يده من جيبه
ولهذا تحترق يده قبل يد هذا فاذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار
فيه بالاحراق زمانا فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق واما الثالث
فمجرد استبعاد ببيان عدم الاعتياد ونحن نسلم ان ذلك غير معتاد لانه معجز والمعجز ينبغى أن
يكون خارقا للعادة ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون يعنى فى انجائه من النار
لآيات وهنا مسائل (المسئلة الاولى) قال فى انجاء نوح وأصحاب السفينة جعلناها آية
وقال ههنا لآيات بالجمع لان الانجاء بالسفينة شئ تسع له العقول فلم يكن فيه من الآية
الا بسبب اعلام الله اياه بالاتخاذ وقت الحاجة فانه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى
الغيب وبسبب ان الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة وأما الانجاء من
النار فعجيب فقال فيه آيات (المسئلة الثانية) قال هناك آية للعالمين وقال ههنا لقوم
يؤمنون خص الآيات بالمؤمنين لان السفينة بقيت اعواما حتى مر عليها الناس ورأوها
فحصل العلم بها لكل أحد واما تبريد النار لم يبق فلم يظهر لمن بعده الا بطريق الايمان به
والتصديق وفيه لطيفة وهى ان الله لما برد النار على ابراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته
لابناء جنسه وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم اسوة حسنة فى ابراهيم فحصل للمؤمنين بشارة
بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة فقال ان فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون
(المسئلة الثالثة) قال هناك جعلناها وقال ههنا جعلناه لان السفينة ما صارت آية فى
نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها فالله تعالى جعل السفينة بعد
وجودها آية وأما تبريد النار فهو فى نفسه آية اذا وجدت لا يحتاج الى أمر آخر كخلق
الطوفان حتى يصير آية ❁ ثم قال تعالى (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة
بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم

النار ومالكم من ناصرين) لما خرج ابراهيم من النار عاد الى عذل الكفار و بيان فساد ماهم عليه وقال اذا بينت لكم فساد مذهبكم وماكان لكم جواب ولا ترجعون عنه فليس هذا الا تقليدا فان بين بعضكم و بعض مودة فلا يريد أحدكم ان يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة أو بينكم و بين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله انما اتخذتم مودة بينكم يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق وهو ان يقال قوله انما اتخذتم مودة بينكم أى مودة بين الاوثان و بين عبدتها وتلك المودة هى ان الانسان مشتمل على جسم وعقل و لجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ثم ان من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت الى اللذات العقلية ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت الى اللذات الجسمانية كالمجنون اذا احتاج الى قضاء حاجة من أكل أوشرب أو اراقة ماء وهو بين قوم من الاكابر فى مجمع يحصل مافيه لذة جسمه من الاكل واراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت الى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الاوصاف ومكرمة الاخلاق والعاقل يحمل الالم الجسمانى و يحصل اللذة العقلية حتى لوغلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والالم العقلى اذا ثبت هذا فهم كانوا قليلى العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ولا يمينهم ولا يسارهم ولا قدامهم ولا وراءهم ولا يكون جسما من الاجسام ولا شيأ يدخل فى الاوهام ورأوا الاجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودوها فاتخاذهم الاوثان كان مودة بينهم و بين الاوثان ثم قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعنى يوم يزول عمى القلوب وتتبين الامور للبيب والعقول يكفر بعضكم ببعض و يعلم فساد ماكان عليه فيقول العابد ماهذا معبودى و يقول المعبود ماهؤلاء عبدتى و يلعن بعضكم بعضا و يقول هذا لذاك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى و يقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك و يريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى ومأواكم النار ثم قال تعالى ومالكم من ناصرين يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها ابراهيم ونصره فأنتم فى النار ولا ناصر لكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال قبل هذا ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير على لفظ الواحد وقال ههنا على لفظ الجمع ومالكم من ناصرين والحكمة فيه انهم لما أرادوا احراق ابراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر الهتنا كما حكى الله تعالى عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم فقال انتم ادعيتم ان لهؤلاء ناصرين فمالكم ولهم اى للاوثان وعبدتها من ناصرين واما هناك ماسبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله ولا نصير (المسئلة الثانية) قال هناك مالكم من دون الله من ولى ولا نصير وماذكر الولى ههنا فنقول قد بينا ان المراد بالولى الشفيع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الاوثان أى مالكم

عز وجل ببيان أن الوقوف على مافصل من الاحوال لا يتسنى الا بالمشاهدة او التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لا محالة على طريقة قوله تعالى وماكنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم الآية أى وماكنت بجانب الجبل الغربى او المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات على حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه او الجانب الغربى على اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع (اذ قضينا الى موسى الامر) أى عهدنا اليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وايتاء التوراة (وماكنت من الشاهدين) أى من جملة الشاهدين للوحى وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ماجرى من أمر موسى فى ميقاته وكتبة التوراة له فى الالواح فتخبره للناس (ولكنا انشأنا قرونا) أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة (فتطاول عليهم العمر) وتمادى الامد فتغيرت الشرائع والاحكام وعميت عليهم الانباء لاسيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا اليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر مايوجبه و يدل عليه وقوله تعالى (وماكنت ثاويا فى أهل مدين) نفى لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها أى وماكنت مقيما فى أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى (تتلو عليهم) أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم (اياتنا) الناطقة بالقصة اما حال من المستكن فى ثاويا او خبر ثان لكنت (ولكنا كنا مرسلين) اياك وموحين اليك تلك الآيات ونظائرها (وماكنت بجانب الطور اذ نادينا) أى وقت ندائنا موسى انى أنا الله رب العالمين واستنبائنا اياه وارسالنا له الى فرعون (ولكن رحمة من ربك) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر و بغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه

والالتفات الى اسم الرب للاشعار بعلة الرحمة وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالاضافة وقد اكتفى فى ذكر المستدرك ههنا بذكر مايوجبه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الاول بذكر مايوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصا على ماهو المقصود واشعارا بأنه المراد فيهما أيضا ولله درشان التنزيل وقوله تعالى (لتنذر قوما) متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ماذكرنا من ارساله عليه الصلاة ﴿ ٦٦٢ ﴾ والسلام بالقرآن حتما لما انه المعلل بالانذار لا تعليم ماذكر وقرئ رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (ماأتاهم من نذير من قبلك) صفة لقوما أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة او بينك و بين اسمعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى اسرائيل (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون بانذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الامر والنواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو ذكر أولا نفى ثوائه عليه الصلاة والسلام فى أهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الامر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل دليل واحد على ماذكر كما مر فى قصة البقرة (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة (بما قدمت أيديهم) أى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى (فيقولوا) عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء مايجاب به ﴿ العذاب ﴾ هو امتناعه لا امتناع المعطوف عليه وانما ذكره فى حيزها للايذان بأنه السبب الملجئ لهم الى قولهم (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا) أى هلا أرسلت الينا رسولا مؤيدا من عندك بآيات (فنتبع آياتك) الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية (ونكون من المؤمنين) بها وجواب لولا الاولى محذوف ثقة بدلالة الحال

كالكم لم يقل شفيع لانهم كانوا معترفين ان كلهم ليس لهم شافع لانهم كانوا يدعون ان آلهتهم شفعاء كما قال تعالى عنهم هؤلاء شفعاؤنا والشفيع لا يكون له شفيع فانفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة الى نفيه لاعترافهم به واما هناك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون ان لانفسهم شفعاء ففى (المسئلة الثالثة) قال هناك مالكم من دون الله فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرا ووليا هو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال ههنا مالكم من ناصرين من غير استثناء فنقول كان ذلك واردا على انهم فى الدنيا فقال لهم فى الدنيا الا انظروا انكم تعجزون الله فمالكم أحد ينصركم بل الله تعالى ينصركم ان تبتم فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وعدم الناصر عام لان التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقا ثم قال تعالى (فآمن له لوط) يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) ابراهيم (انى مهاجر الى ربى) أى الى حيث أمرنى بالتوجه اليه (انه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن ايذائى بعزته وحكيم لا يأمرنى الا بما يوافق لكمال حكمته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله آمن له لوط أى بعد مارأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية وبقاؤه الى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى ان أبابكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان نير القلب قبله قبل الكل من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر فنقول ان لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته واما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته واليه اشار بقوله فآمن له لوط وماقال فآمن لوط (المسئلة الثانية) ماتعلق قوله وقال انى مهاجر الى ربى بما تقدم فنقول لما بالغ ابراهيم فى الارشاد ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لان الهادى اذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لانه ان دام على الارشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا واذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة (المسئلة الثالثة) قال مهاجر الى ربى ولم يقل مهاجر الى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة الى الرب توهم الجهة فنقول قوله مهاجر الى حيث امرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله الى ربى لان الملك اذا صدر منه أمر برواح الاجناد الى الموضع الفلانى ثم ان واحدا منهم سافر اليه لغرض نفسه يصيبه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصا لوجهه فقال مهاجر الى ربى يعنى توجهى الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة انما هو طلب لله ❁ ثم قال تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم ان اثر رحمة الله فى أمرين فى الامان من سوء

بلسم

عليه والمعنى لولاقولهم هذا عنداصابة عقوبة جناياتهم التى قدموها ماأرسلناك لكن لماكان قولهم ذلك محققالامحيد
عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم بالكلية (فلماجاءهم) اى أهل مكة (الحق من عندنا) وهو القرآن المنزل عليه عليه
الصلاة والسلام (قالوا) تعنتا واقتراحا (لولاأوتى) يعنونه عليه الصلاة والسلام (مثل ماأوتى موسى) من الكتاب
المنزل جلة وأما اليد والعصا فلاتعلق ﴿٦٦٣﴾ لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى
(أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) رد عليهم واظهار لكون ماقالوه تعنتا محضا لاطلبا لمايرشدهم الى الحق أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بماأوتى موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى (قالوا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الانكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى (سحران) خبرلمبتدأ محذوف أى هما يعنون ماأوتى محمد وماأوتى موسى عليهما السلام سحران (تظاهرا) أى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الاخر وذلك أنهم بعثوا رهطا منهم الى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا انانجده فى التوراة بنعته وصفته فلمارجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى (وقالوا
انابكل) اى بكل واحد من الكتابين (كافرون) تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا
وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرئ ساحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم
هذا هوالذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ماقيل وقيل الاترى الى قوله تعالى (قل فأتوا بكتاب
من عندالله هو أهدى منهما) مما أوتياه من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين

العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل الى المؤمن فى الدار الاخرة قطعا بحكم
وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك واثبات الثواب لاثباته الواحد ولكن هذا
ليس بواجب الحصول فى الدنيافان كثيرامايكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه
متفكرا فى أمر غده لكنهما مطلوبان فى الدنيا امادفع العذاب العاجل فلانه ورد
فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم قوله وقنا عذاب الفقر والنار فعذاب الفقر اشارة
الى دفع العذاب العاجل واما ثواب العاجل ففى قوله ربنا آتنا فى الدنيا حسنة
وفى الاخرة حسنة اذاعلم هذا فنقول ان ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا
دفع الله عنه عذاب الدنيا وهوعذاب النار ولماأتى به مرة بعد مرة مع اصرار القوم
على التكذيب واضرارهم به بالتعذيب أعطاه الجزاء الآخر وهو الثواب العاجل
وعدده عليه بقوله ووهبناله اسحق و يعقوب وفى الآية لطيفة وهى ان الله بدل جميع
أحوال ابراهيم فى الدنيا باضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدا فريدا
فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولماكان أولاقومه وأقاربه القريبة
ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله أقاربه باقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين
جعل فيهم النبوة والكتاب وكان اولالاجاه له ولامال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه
الله أجره من المال والجاه فكثر ماله حتى كان له من المواشى ماعلم الله عدده حتى قيل
انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس باطواق ذهب واما الجاه فصار بحيث يقرن
الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصارمعروفا بشيخ المرسلين بعد
ان كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لايقال
الافى مجهول بين الناس ثم ان الله تعالى قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين يعنى ليس له
هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أوأملى له استدراجا ليكثر
من سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من
الصالحين فان كون العبد صالحا أعلى مراتبه لمابينا أن الصالح هو الباقى على ماينبغى
يقال الطعام بعدصالح اى هو باق على ماينبغى ومن بقى على ماينبغى لايكون فى عذاب
و يكون له كل مايريد من حسن ثواب وفى الآية مسئلتان (احداهما) أن اسمعيل كان من
اولاده الصالحين وكان قداسلم لامر الله بالذبح وانقاد لحكم الله فلم يذكر فيقال هو
مذكور فى قوله وجعلنا فى ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله
عليه بهبة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحد وهو الاكبر ومن الاحفاد واحد
وهو الاظهر كما يقول القائل ان السلطان فى خدمته الملوك والامراء الملك الفلانى
والاميرا لفلانى ولايعدد الا لان ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لالخصوصيته ولوذكر
غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر فيظن انه ليس معه غيرالمذكورين (المسئلة
الثانية) ان الله تعالى جعل فى ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوى

فانه نص فيماذكر وقوله تعالى (اتبعه) جواب للامر أي ان تأتوا به اتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته لان الاتيان بما هو اهدى من الكتابين امر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والافحام (ان كنتم صادقين) اى فى انهما سحران مختلفان وفى ايراد كلمة ان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أى فان لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب اهدى منهما ❊ ٦٦٤ ❊ كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايذانا بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن امره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والاستجابة تتعدى الى الدعاء بنفسه والى الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذلك غالبا ولا يكاد يقال استجاب الله له دعاءه (فاعلم أنما يتبعون اهواءهم) الزائغة من غير ان يكون لهم متمسك ما اصلا اذ لو كان لهم ذلك لاتوا به (ومن اضل ممن اتبع هواه) استفهام انكارى للنفى اى لا اضل ممن اتبع هواه (بغير هدى من الله) اى هو اضل من كل ضال وان كان ظاهر السبك لنفى الاضل لا لنفى المساوى كما مر فى نظائره مرارا وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والاشباع فى التشنيع والتضليل والا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا انفسهم بالانهماك فى اتباع ❊ عنه ❊ الهوى والاعراض عن الآيات الهادية الى الحق المبين (ولقد وصلنا لهم القول) وقرئ بالتخفيف اى انزلنا القران عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة اومتتابعا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ونصائح (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون بما فيه (الذين آتيناهم الكتاب من قبله)

بين ولديه فكيف صارت النبوة فى اولاد اسحق أكثر من النبوة فى اولاد اسمعيل فنقول الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه انبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليه السلام ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو اسمعيل واحدا جمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين اولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار * ثم قال تعالى (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرنى على القوم المفسدين) الاعراب فى لوط والتفسير كما ذكرنا فى قوله وابراهيم اذ قال لقومه وههنا مسائل (الاولى) قال ابراهيم لقومه اعبدوا الله وقال عن لوط ههنا انه قال لقومه لتأتون الفاحشة فنقول لما ذكر الله لوطا عند ذكر ابراهيم وكان لوط فى زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالتوحيد مع ان الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها الله على سبيل الاختصار فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ولم يذكر عنه الامر بالتوحيد وان كان قاله فى موضع آخر حيث قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره لان ذلك كان قد أتى به ابراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصا بلوط فان ابراهيم لم يظهر ذلك ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره (المسئلة الثانية) لم سمى ذلك الفعل فاحشة فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ثم ان الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله فى الانسان فمصلحة الشهوة الفرجية هى بقاء النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لا تحصل الا بوجود الولد وبقائه بعد الاب فانه لو وجد ومات قبل الاب كان يفنى النوع بفناء القرن الاول لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى الى بقاء النوع لانا بينا ان البقاء بالوجود و بقاء الولد بعد الاب لكن الزنا وان كان يفضى الى وجود الولد ولكن لا يفضى الى بقائه لان المياه اذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع و يهلك فلا يحصل مصلحة البقاء فاذا الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التى لاجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة واذا كان الزنا فاحشة مع انه يفضى الى وجود الولد ولكن لا يفضى الى بقائه فاللواطة التى لا تفضى الى وجوده اولى بان تكون فاحشة (المسئلة الثانية) الآية دالة على وجوب الحد فى اللواطة لانهما مع الزنا اشتركت فى كونهما فاحشه حيث قال الله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة واشتراكهما فى الفاحشة يناسب الزجر

أى من قبل ايتاء القرآن (هم به يؤمنون) وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (واذا يتلى) أى القرآن (عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا) أى الحق الذى كنا نعرف حقيته وهو استئناف لبيان ما أوجب ايمانهم وقوله تعالى (انا كنا من قبله) أى من قبل نزوله (مسلمين) بيان لكون ايمانهم به أمرا متقادم العهد لما شاهدوا وذكره فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن (أولئك) الموصوفون بما ذكر من النعوت (يؤتون أجرهم مرتين) مرة على ايمانهم بكتابهم ومرة على ايمانهم بالقرآن (بما صبروا) بصبرهم وثباتهم على الايمانين أو على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم من أهل دينهم ومن المشركين (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أى يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو) من اللاغين (أعرضوا عنه) أى عن اللغو تكرما كقوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما (وقالوا) لهم (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) بطريق المتاركة والتوديع (لا نبتغى الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم (انك لا تهدى) هداية موصلة الى البغية لا محالة (من أحببت) من الناس ولا تقدر على أن تدخله فى الاسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت فى السعى كل حد معهود (ولكن الله يهدى من يشاء) أن يهديه فيدخله فى الاسلام (وهو أعلم بالمهتدين) بالمستعدين لذلك ✻ ٨٤ س ✻ والجمهور على أنها نزلت فى أبى طالب فانه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج بها لك عند الله قال له يا ابن أخى قد علمت انك لصادق ولكنى أكره أن يقال

عنه فاشرع زاجرا هناك يشرع زاجرا ههنا وهذا وان كان قياسا الا أن جامعه مستفاد من الآية ووجه آخر وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها امطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا فوجب أن يعذب من أتى به بامطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم قوله ما سبقكم بها من أحد يحتمل وجهين أحدهما ان قبلهم لم ير أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر والثانى ان قبلهم ربما أتى به واحد فى الندرة لكنهم بالغوا فيه فقال لهم ما سبقكم بها من أحد كما يقال ان فلانا سبق البخلاء فى البخل وسبق اللئام فى اللؤم اذا زاد عليهم ثم قال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل بيانا لما ذكرنا يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التى هى بقاء النوع حتى يظهر انه قبيح لم يستر قبحه مصلحة وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى أتأتون الرجال شهوة من دون النساء يعنى اتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله وتأتون فى ناديكم المنكر يعنى ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون اليه قبح الاظهار وقوله فما كان جواب قومه فى التفسير كقوله فى قصة ابراهيم وما كان جواب قومه وفى الآية مسائل (الاولى) قال قوم ابراهيم اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله وما هددوه مع ان ابراهيم كان أعظم من لوط فان لوطا كان من قومه فنقول ان ابراهيم كان يقدح فى دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى والقدح فى الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم قول ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب فان كنت صادقا فأتنا بالعذاب فان قيل ان الله تعالى قال فى موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال ههنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا فكيف الجمع فنقول لوط كان ثابتا على الارشاد مكررا عليهم التغير والنهى والوعيد فقالوا اولا ائتنا ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال انصرنى على القوم المفسدين فان الله لا يحب المفسدين حتى ينجز النصر واعلم ان نبيا من الانبياء ما طلب هلاك قوم الا اذا علم ان عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا يعنى المصلحة اما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم فانهم يضلون فى الحال وفى المآل فانهم يوصون الاولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع فكذلك لوط لما رأى انهم يفسدون فى الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله بطلت المصلحة حالا ومآلا فعدمهم صار خيرا فطلب العذاب ✻ ثم قال تعالى (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال

خرع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة بعدى لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكنى سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) نزلت فى الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب وانما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) أى ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن حرمة البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله وهم آمنون (يجبى اليه) وقرئ تجبى أى يجمع ويحمل اليه (ثمرات كل شئ) من كل أوب والجملة صفة أخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة (رزقا من لدنا) فاذا كان حالهم ما ذكروهم عبدة أصنام فكيف يخافون التخطف اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة التوحيد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى اذ لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على أنه مصدر مؤكد لمعنى يجبى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة ثم بين أن الامر بالعكس وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء فى الامن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم (فتلك مساكنهم) ✻ لقفر ✻ خاوية بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم) من بعد تدميرهم (الا قليلا) أى الا زمانا قليلا اذ لا يسكنها الا المارة يوما أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها الا قليلا من شؤم معاصيهم (وكنا نحن الوارثين)

ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) لما دعا لوط على قومه بقوله رب انصرنى استجاب الله دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين فجاؤا ابراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية يعنى أهل سدوم وفى الآية لطيفتان (احداهما) ان الله جعلهم مبشرين ومنذرين لكن البشارة أثر الرحمة والانذار بالاهلاك أثر الغضب ورحمته سبقت غضبه فقدم البشارة على الانذار وقال جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم قال انا مهلكو (الثانية) حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا انا نبشرك لانك رسول أو لانك مؤمن أو لانك عادل وحين ذكروا الاهلاك عللوا وقالوا ان أهلها كانوا ظالمين لان ذا الفضل لا يكون فضله بعوض والعادل لا يكون عذابه الا على جرم وفيه مسئلتان (احدهما) لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الانذار نقول لما أراد الله اهلاك قوم وكان فيه اخلاء الارض عن العباد قدم على ذلك اعلام ابراهيم بأنه تعالى يملأ الارض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على اهلاك قوم من أبناء جنسه (والثانية) قال فى قوم نوح فأخذهم الطوفان وقد قلت ان ذلك اشارة الى انهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وههنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل وانهم ظالمون فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله وعن الماضى حيث قال فأخذهم وكانوا ظالمين فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فالملائكة ذكروا ما يحتاجون اليه فى ابانة حسن الامر من الله بالاهلاك فقالوا انا مهلكوهم لان الله أمرنا وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين فحسن أمر الله عند كل أحد وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا اليه فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب فنحن ما احتجنا الا الى هذا القدر وهو انهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بيانا لحسن الامر وأما انهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا اليه ثم ان ابراهيم لما سمع قولهم قال لهم ان فيها لوطا اشفاقا عليه ليعلم حاله أو لان الملائكة لما قالوا انا مهلكو وكان ابراهيم يعلم ان الله لا يهلك قوما وفيهم رسوله فقال تعجبا ان فيهم لوطا فكيف يهلكون فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها يعنى نعلم ان فيهم لوطا فننجيه وأهله ونهلك الباقين وههنا لطيفة وهو ان الجماعة كانوا أهل الخير أعنى ابراهيم والملائكة وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيرا أما ابراهيم فلما سمع قول الملائكة انا مهلكو أظهر الاشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحا وقال ان فيها لوطا ثم ان الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه وقالوا انك ذكرت لوطا وحده ونحن ننجيه وننجى معه أهله ثم استثنوا من الاهل امرأته وقالوا الا امرأته كانت من الغابرين أى من المهلكين وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان وذلك لان الغابر

منهم اذلم يخلفهم أحد يتصرف فهم فى ديارهم وسائر ذات ايديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفا بنفسها كقولك
زيد ظنى مقيم أو باضمار زمان مضاف اليه أو بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت (وما كان ربك مهلك القرى) بيان
للعناية الربانية أثر بيان اهلاك القرى المذكورة اى وما صح وما استقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمه
الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الانذار بل كانت عادته أن لا يهلكها (حتى يبعث فى أمها)
أى فى أصلها وقصبتها
التى هى أعمالها وتوابعها
لكون أهلها أفطن وأنبل
(رسولا يتلوا عليهم آياتنا)
الناطقة بالحق ويدعوهم اليه
بالترغيب والترهيب وذلك
لالزام الحجة وقطع المعذرة بان
يقولوا لولا أرسلت الينا
رسولا فنتبع آياتك والالتفات
الى نون المعظمة لتربية المهابة
وادخال الروعة وقوله تعالى
(وما كنا مهلكى القرى)
عطف على ما كان ربك
وقوله تعالى (الا وأهلها
ظالمون) استثناء مفرغ من أعم
الاحوال أى وما كنا مهلكين
لاهل القرى بعد ما بعثنا فى
أمها رسولا يدعوهم الى الحق
ويرشدهم اليه فى حال من
الاحوال الا حال كونهم ظالمين
بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا
فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك
بموجب السنة الالهية لا لعدم
وقوعه حتى يلزم تحقق
الاهلاك عقيب البعث وقد مر
تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل
(وما أوتيتم من شئ) من
أمور الدنيا (فمتاع الحياة
الدنيا وزينتها) أى فهو
شئ شأنه أن يتمتع ويتزين به
أياما قلائل (وما عند الله) وهو الثواب (خير) فى نفسه من ذلك لانه لذة خالصة عن شوائب الالم وبهجة كاملة عارية عن سمة
الهم (وأبقى) لانه أبدى (أفلا تعقلون) ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الامر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير
وقرئ بالياء على الالتفات المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم

لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل
ماض وغابر أى باق وعلى الوجه الاول نقول ان ذكر الظالمين سبق فى قولهم انا مهلكو
أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين ثم جرى ذكر لوط بتذكير ابراهيم وجواب
الملائكة فقالت الملائكة انها من الغابرين أى الماضى ذكرهم لا من الذين نجى منهم
أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا انها من الغابرين أى من
الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على
القوم بالاهلاك كان الكل فى الهلاك الا من نجى منه فقالوا انا نجى لوطا وأهله واما
امرأته فهى من الباقين فى الهلاك ✻ ثم قال تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم
وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين
انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية
بينة لقوم يعقلون) ثم انهم جاؤا من عند ابراهيم الى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا
فخاف عليهم من قومه لانهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم
فسئ بهم أى جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز
فى تدبيرهم قال الزمخشرى يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز وذلك لان من
طال ذراعه يصل الى ما لا يصل اليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجها معقولا غير
ذلك وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه
فينقبض هو أيضا والقلب هو المعتبر من الانسان فكان الانسان انقبض واجتمع
وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ويقال فى الحزين ضاق ذرعه والغضب
والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ثم ان
الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الامر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الامر قالوا لا تخف
علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد
قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم انا منجوك وأهلك
وانا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له انهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى
الآية مسائل (احداها) انه تعالى قال من قبل ولما جاءت رسلنا ابراهيم وقال ههنا ولما
أن جاءت رسلنا فالحكمة فيه فنقول حكمة بالغة وهى ان الواقع فى وقت المجئ هناك
قول الملائكة انا مهلكو وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لانهم بشروا أولا ولبثوا ثم قالوا انا
مهلكو وأيضا فالتأنى واللبث بعد المجئ ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه
خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم والمؤمن حين
ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغى أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير اذا علم
هذا فقوله ههنا ولما أن جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجئ فان قلت هذا
باطل بما ان هذه الحكاية جاءت فى سورة هود وقال ولما جاءت رسلنا لوطا من غير أن

الاعراض عن مخاطبتهم (أفمن وعدناه وعدا حسنا) أى وعدا بالجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود (فهو لاقيه) أى مدركه لامحالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جئ بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطف بالفاء المنبئة عن معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بالآلام منغص بالأكدار مستتبع للتحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الاولى ترتيب انكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ماقبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ماعند الله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يستوى بين الفريقين وقوله تعالى (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لانكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة النار أو العذاب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفى جعله من جملة المحضرين من التهويل مالايخفى وثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء تشبيها للمنفصل بالمتصل (ويوم يناديهم) منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنوانا وان اتحدا ذاتا أو باضمار اذكر (فيقول) تفسير للنداء (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما (قال) استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال (الذين حق عليهم القول) وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بان أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله ❊ وجعل ❊

فنقول هناك جاءت حكاية ابراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى فقوله هنالك ولقد جاءت لايدل على ان قولهم انا أرسلنا كان فى وقت المجئ وقوله ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم دل على ان حزنه كان وقت المجئ اذا علم هذا فنقول هناك قد حصل ماذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية ابراهيم ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ثم قالوا لاتخف ولاتحزن انا أرسلنا الى قوم لوط فحصل تأخير الانذار وبقوله فى حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن وأما هنا لما قال فى قصة ابراهيم ولما جاءت قال فى حكاية لوط ولما أن جاءت لما ذكرنا من الفائدة (المسئلة الثانية) قال هنا انا منجوك وأهلك وقال لابراهيم لننجينه بصيغة الفعل فهل فيه فائدة قلنا مامن حرف ولاحركة فى القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولاتصل الى أكثرها وما أوتى البشر من العلم الا قليلا والذى يظهر لعقلى الضعيف ان هناك لما قال لهم ابراهيم ان فيها لوطا وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم وهنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا انا منجوك أى ذلك واقع منا كقوله تعالى انك ميت لضرورة وقوعه (المسئلة الثالثة) قولهم لاتخف ولاتحزن لايناسبه انا منجوك لان خوفه ماكان على نفسه نقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن وهى ان لوطا لما خاف عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لاتخف علينا ولاتحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يالوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولانتركك تفجع فى أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك (المسئلة الرابعة) القوم عذبوا بسبب ماصدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر كما ان الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت واحدة منهم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا انهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وانما يكون الأمر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ثم اعلم ان كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون على أهل هذه القرية ولم يعللوا التنجية فما قالوا انا منجوك لانك نبى أو عابد وعللوا الاهلاك بقولهم بما كانوا يفسقون وقالوا بما كانوا كما قالوا هناك ان أهلها كانوا ظالمين ثم قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون أى من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الاسود وهى بين القدس والكرك وفيها مسائل (احداها) جعل الله الآية فى نوح وابراهيم بالنجاة حيث قال فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات

للاتباع أيضا لاضلالهم في الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم ومسارعتهم
الى الجواب مع كون السؤال للعبدة اما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالاضلال وجزمهم بان العبدة
سيقولون هؤلاء أضلونا واما لان العبدة قد قالوه اعتذارا وهؤلاء انما قالوا ما قالوا ردا لقولهم الا أنه لم يحك قول العبدة ايجازا
لظهوره (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) ٦٦٩ أي هم الذين أغويناهم فحذف الراجع الى الموصول ومرادهم بالاشارة
بيان أنهم يقولون ما يقولون
بمحضر منهم وأنهم غير
قادرين على انكاره ورده وقوله
تعالى (أغويناهم كما غوينا)
هو الجواب حقيقة وما قبله
تمهيد له أي ما أكرهناهم على
الغي وانما أغويناهم بطريق
الوسوسة والتسويل لا بالقسر
والالجاء فغووا باختيارهم غيا
مثل غينا باختيارنا ويجوز أن
يكون الذين صفة لاسم الاشارة
وأغويناهم الخبر (تبرأنا
اليك) منهم ومما اختاروه
من الكفر والمعاصي هوى
منهم وهو تقرير لما قبله
ولذلك لم يعطف عليه وكذا
قوله تعالى (ما كانوا ايانا
يعبدون) أي ما كانوا يعبدوننا
وانما كانوا يعبدون أهواءهم
وقيل ما مصدرية متصلة بقوله
تعالى تبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم
ايانا (وقيل ادعوا شركاءكم)
اما تهكما بهم أو تبكيتا لهم
(فدعوهم) لفرط الحيرة
(فلم يستجيبوا لهم) ضرورة
عدم قدرتهم على الاستجابة
والنصرة (ورأوا العذاب)
قد غشيهم (لو أنهم كانوا
يهتدون) لوجه من وجوه
الحيل يدفعون به العذاب
أو الى الحق لما لقوا ما لقوا وقيل لو للتمني أي تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) عطف على
ما قبله سئلوا أولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك (فعميت عليهم الانباء يومئذ) أي صارت
كالعمى عنهم لا تهتدي اليهم وأصله فعموا عن الانباء وقد عكس

وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شيء نقول نعم اما ابراهيم فلأن الآية كانت
في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي
علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي وما به النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق
لمن بعده أثره فجعل الباقي آية وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك
أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة
وههنا لطيفة وهي ان الله تعالى آية قدرته موجودة في الانجاء والاهلاك فذكر من
كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لانها أثر الغضب
ورحمته سابقة (المسئلة الثانية) قال في السفينة وجعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا
آية بينة نقول لان الانجاء بالسفينة أمر يسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل ان الانجاء
بالسفينة لا يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها
وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان
فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة
النجاة بها أمر يكون كذلك الى أن يقال له فمن أين علم انه يحتاج اليها ولو دام الماء حتى ينفد
زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون
أحوالهم (المسئلة الثالثة) قال هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون قلنا لان السفينة
موجودة في جميع اقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله واذا
ركبوها يطلبون من الله النجاة ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف
القلب متضرعا الى الله تعالى طلبا للنجاة وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص
لا يطلع عليه الا من يمر بها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم ان ذلك من الله المريد بسبب
اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان * ثم قال تعالى (والى مدين
أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين
فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) لما أتم الحكاية الثانية على وجه
الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال والى مدين أخاهم واختلف المفسرون
في مدين فقال بعضهم انه اسم رجل في الاصل وحصل له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم
وقيس وغيرهما وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم اليه واشتهر في القوم والاول كأنه
أصح وذلك لان الله أضاف الماء الى مدين حيث قال ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما
للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والاصل في الاضافة التغاير حقيقة وقوله
أخاهم قيل لان شعيبا كان منهم نسبا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الله تعالى
في نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه قدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك
في ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أخاهم شعيبا فنقول الاصل في جميع
المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان المرسل لا يبعث رسولا الى غير معين وانما

للمبالغة والتنبيه على ان مايحضر الذهن يفيض عليه و يصل اليه من خارج فاذا أخطأه لم يكن له حيلة الى استحضاره وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالانباء اما ماطلب منهم مما أجابوا به الرسل أوجميع الانباء وهى داخلة فيه دخولا أوليا واذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل الى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤل فاظنك بأولئك الضلال من الامم (فهم لايتساءلون) ❋ ٦٧٠ ❋ لايسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أوالعلم بأن الكل سواء فى الجهل (فامامن تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) أى الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أوالترجى من قبل التائب بمعنى فليتوقع الافلاح (وربك يخلق مايشاء) أن يخلقه (و يختار) مايشاء اختياره من غير ايجاب عليه ولامنع له أصلا (ماكان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم وذلك مما لاريب فيه وقيل المراد أنه ليس لاحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ماروى أنه نزل فى قول الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم والمعنى لايبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل اليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح (سبحان الله) أى تنزه بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار (وتعالى عمايشركون) عن اشراكهم ❋ ذكرهم ❋ أوعن مشاركة مايشركونه به (وربك يعلم ماتكن صدورهم) كعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقده (وما يعلنون) كالطعن فيه (وهوالله) أى المستحق للعبادة (لااله الاهو) لاأحد يستحقها الاهو

يحصل قوم أوشخص يحتاجون الى أنباء من المرسل فيرسل اليهم من يختاره غيرأن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولانسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالنبى فقيل قوم نوح وقوم لوط وأماقوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله والى مدين أخاهم شعيبا وقال والى عاد أخاهم هودا (المسئلة الثانية) لم يذكرعن لوط انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك قلنا قد ذكرنا ان لوطا كان له قوم وهو كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يذكره عن لوط وانما ذكر منه مااختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد اذما من رسول الا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضا فى التوحيد فبدأ به وقال اعبدوا الله (المسئلة الثالثة) الايمان لايتم الا بالتوحيد والامر بالعبادة لايفيد لان من يعبد الله و يعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله اعبدوا الله فنقول هذا الامر يفيد التوحيد وذلك لان من يرى غيره يخدم زيدا وعمرو هناك وهو أكبر أوهو سيد زيد فاذا قال له اخدم عمرا يفهم منه انه يأمره بصرف الخدمة اليه وكذا اذا كان لواحد دينار واحد وهو يريدان يعطيه زيدا فاذا قيل له أعطه عمرا يفهم منه لاتعطه زيدا فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب اعبدوا الله ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة و يريد وضعها فى عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد ثم قال وارجوا اليوم الآخر قال الزمخشرى معناه افعلوا ماترجون به العاقبة اذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا و يكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا * وقوله وارجوا اليوم الآخر فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا يدل على صحة مذهبنا فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولايجب عليه ذلك لان العابد قد وصل اليه من النعم مالو زاد على ماأتى به لماخرج عن عهدة الشكر ومن شكر المنعم على نعم سبقت لايلزم المنعم أن يزيده وان زاده يكون احسانا منه اليه وانعاما عليه فنقول قوله وارجوا اليوم الآخر بعد قوله اعبدوا الله يدل على التفضل لاعلى الوجوب فان الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به (المسئلة الثانية) قال وارجوا اليوم الآخر ولم يقل وخافوه مع ان ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولايرجوه الاقليل من عباده فنقول لماذكر التوحيد بطريق الاثبات وقال اعبدوا ولم يذكره بطريق النفى وماقال ولاتعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لان عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين وفيه وجه آخر وهو ان الله حكى فى حكاية ابراهيم انه قال انكم اتخذتم الاوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا وأما فى الاخرة فتكفرون بها قال ههنا لاتكونوا كالذين سبق

ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ثم قال ولا تعثوا فى الارض مفسدين يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائما أى قياما و يكون قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين كقول القائل اجلس قعودا لان العيث والفساد بمعنى وجمع الاوامر والنواهى فى قوله اعبدوا الله وقوله ولا تعثوا ثم ان قومه كذبوه بعد ما بلغ و بين فحكى الله عنهم ذلك بقوله فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ❊ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما حكى عن شعيب أمر ونهى والامر لا يصدق ولا يكذب فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه الاشياء فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به (المسئلة الثانية) قال ههنا وفى الاعراف فأخذتهم الرجفة وقال فى هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة نقول لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة اما رجفة الارض اذ قيل ان جبريل صاح فتزلزلت الارض من صيحته واما رجفة الافئدة فان قلوبهم ارجفت منها والاضافة الى السبب لا تنافى الاضافة الى سبب السبب اذ يصح أن يقال روى فقوى وان يقال شرب فقوى فى صورة واحدة (المسئلة الثالثة) حيث قال فأخذتهم الصيحة قال فى ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال فى دارهم فنقول المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن الالتباس وانما اختلف اللفظ للطيفة وهى ان الرجفة هائلة فى نفسها فلم يحتج الى مهول وأما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة فى الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج الى معظم لامرها وقيل ان الصيحة كانت أعم حيث عمت الارض والجو والزلزلة لم تكن الا فى الارض فذكر الديار هناك غير ان هذا ضعيف لان الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما أصبحوا جاثمين الا فى ديارهم ❊ ثم قال تعالى (وعادا وثمود) أى وأهلكنا عادا وثمود لان قوله تعالى فأخذتهم الرجفة دل على الاهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الامر وما تعتبرون منه ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله وزين لهم الشيطان أعمالهم يعنى عبادتهم لغير الله وصدهم عن السبيل يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم فى ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبيل ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفا عليهم أى وأهلكنا قارون وفرعون وهامان ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال فى عاد وثمود وكانوا مستبصرين أى بالرسل ثم قال تعالى (فاستكبروا) أى عن عبادة الله وقوله (فى الارض) اشارة الى ما يوضح قلة عقلهم فى استكبارهم وذلك لان من فى الارض أضعف أقسام المكلفين ومن

(له الحمد فى الاولى والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة يحمده المؤمنون فى الآخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده ابتهاجا بفضله والتذاذا بحمده (وله الحكم) أى القضاء النافذة فى كل شئ من غير مشاركة فيه لغيره (واليه ترجعون) بالبعث لا الى غيره (قل) تقريرا لما ذكر (أرأيتم) أى أخبرونى (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص أى ملساء لينة (الى يوم القيامة) باسكان الشمس تحت الارض أو تحريكها حول الافق الغائر (من اله غير الله) صفة لاله (يأتيكم بضياء) صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والالزام كما فى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض وقوله تعالى فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما خلا أنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل اله الخ لايراد التبكيت والالزام على زعمهم وقرئ بضئاء بهمزتين (أفلا تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) باسكانها فى وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الافق (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الاشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة التى لا تخفى على من له بصر (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لكى تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها (ويوم يناديهم) منصوب باذكر (فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) تقريع اثر

تقريع للاشعار بأنه لاشئ أجلب لغضب الله عزوجل من الاشراك كما لاشئ أدخل في مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى (ونزعنا) عطف على ينادبهم وصيغة الماضي للدلالة على التحقق أوحال من فاعله باضمار قد والالتفات الى نون العظمة لابراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله أي أخرجنا (من كل أمة) من الامم (شهيدا) نبيا يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد (فقلنا) لكل أمة من تلك الامم (هاتوا

برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به (فعلموا) يومئذ (أن الحق لله) في الالهية لايشاركه فيها أحد (وضل عنهم) أي غاب عنهم غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) في الدنيا من الباطل (ان قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بني اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري وقال اذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فمالى وروى انه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون في نفسه وحسدهما فقال لموسى الامر لكما ولست على شئ الى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال لا أصدقك حتى تأتي بآية فأمر رؤساء بني اسرائيل أن يجئ كل واحد بعصاه فحزمها والقاها في القبة التي كان الوحي ينزل اليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فاذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر فقال قارون ما هو بأعجب مما تصنع من السحر وذلك قوله تعالى

في السماء أفواههم ثم ان من في السماء لايستكبر على الله وعن عبادته فكيف من في الارض ثم قال تعالى (وما كانوا سابقين) أي ما كانوا يفوتون الله لانا بينا في قوله تعالى وما أنتم بمعجزين في الارض ان المراد ان أقطار الارض في قبضة قدرة الله ❊ ثم قال تعالى (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب وقيل انه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر وفيه اشارة الى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله الى الغشاء الذي على منفذ الاذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس والعذاب بالخسف وهو الغمر في التراب والعذاب بالاغراق وهو بالماء فحصل العذاب بالعناصر الاربعة والانسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه فاذا أراد الله هلاك الانسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه وما به بقاؤه سببا لفنائه ❊ ثم قال تعالى وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني لم يظلمهم بالهلاك وانما هم ظلموا أنفسهم بالاشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته ❊ ثم قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لايجير آويا ولا يريح ثاويا وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة في اختيار هذا المثل من بين سائر الامثال فنقول فيه وجوه (الاول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور حائط حائل وسقف مظل وباب يغلق وأمور ينتفع بها ويرتفق وان لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين اما حائط حائل يمنع من البرد واما سقف مظل يدفع عنه الحر فان لم يحصل منهما شئ فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لايجنها ولايكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار فان لم يجتمع هذه الامور فلا أقل من دفع ضر أوجر نفع فان من لايكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء فاذا كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شئ كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الاوثان أولياء من معاني الاولياء شئ (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولايدفع الهواء القوى ولا الماء ولا النار والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لايدفع شيئا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لايظل فان

(فبغى عليهم) فطلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت أمره أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بنى اسرائيل وقيل
حسدهم وذلك ماذكر منه فى حق موسى وهرون عليهما السلام (وآتيناه من الكنوز) اى الاموال المدخرة (ما ان مفاتحه)
اى مفاتح صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح (لتنوء بالعصبة أولى
القوة) خبر ان والجملة صلة ما وهو ثانى مفعولى آتى وناء به ❋ ٦٧٣ ❋ الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصابة الجماعة
الكثيرة وقرئ لينوء بالياء على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه كما مر فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (اذ قال له قومه) منصوب بتنوء وقيل ببغى ورد بأن البغى ليس مقيدا بذلك الوقت وقيل بآتيناه ورد بأن الايتاء أيضا غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو أظهر الفرح ويجوز أن يكون منصوبا بما بعده من قوله تعالى قال انما أوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه (لا تفرح) أى لا تبطر والفرح فى الدنيا مذموم مطلقا لانه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فان العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح حتما ولذلك قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وعلل النهى ههنا بكونه مانعا من محبته عز وعلا فقيل (ان الله لا يحب الفرحين) أى بزخارف الدنيا (وابتغ) وقرئ واتبع (فيما آتاك الله) من الغنى (الدار الآخرة) أى ثواب الله تعالى فيها بصرفه الى ما يكون وسيلة اليه (ولا تنس) أى لا تترك
ترك المنسى (نصيبك ❋ ٨٥ ❋ ص من الدنيا) وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك (وأحسن) أى الى عباد الله تعالى (كما أحسن الله اليك) فيما أنعم به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله اليك بالانعام (ولا تبغ الفساد فى الارض) نهى عما كان عليه من الظلم والبغى (ان الله لا يحب المفسدين) لسوء أفعالهم (قال) مجيبا لناصحيه (انما أوتيته على علم عندى) كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله اليك لانبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الاموال والذخائر من غير سبب

الشمس بشعاعها تنفذ فيه فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الامر فى الغير فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الامر فى العابد فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم ان أرادوا أجلوه وان أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت انه ان لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت فان العنكبوت لو دام فى زاوية مدة يقصد ولا يخرج منها فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغى أن يستحق الثواب فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب (المسئلة الثانية) مثل الله اتخاذهم الاوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) ان نسجه فيه فائدة له لولاه لما حصل وهو اصطياده الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان وان كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثانى) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتا أمر باطل فكذلك هم اواتخذوا الاوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل (المسئلة الثالثة) كان هذا المثل صحيح فى الاول فهو صحيح فى الآخر فان بيت العنكبوت اذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثورا فكذلك أعمالهم للاوثان كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (المسئلة الرابعة) قال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ولم يقل آلهة اشارة الى ابطال الشرك الخفى أيضا فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ وليا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا ❋ ثم انه تعالى قال (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) اشارة الى ما بينا ان كل بيت ففيه اما فائدة الاستظلال أو غير ذلك وبيته يضعف عن افادة ذلك لانه يخرب بأدنى شئ ولا يبقى منه عين ولا أثر فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون ❋ ثم قال تعالى (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم) قال الزمخشرى هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث انهم لا يدعون من دونه من شئ بمعنى ما يدعون ليس بشئ وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشئ أصلا وهذا يفهم منه انه جعل ما نافية وهو صحيح والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل انى أعلم ان الله واحد حق يعنى أعلم هذا الجملة وان كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شئ فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على اعدامه واهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا قال قائل

واستحقاق من قبله أي فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم في موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل علم فتح الكنوز والدفائن وعندي صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندي أو في ظني ورأيي (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة في التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتر به أو رد لادعائه العلم وتعظمه به بنفي هذا العلم منه فالمعنى أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كأن قارون لما هدد بذكر اهلاك من قبله ممن كان أقوى منه وأغنى اكد ذلك بأن بين أن ذلك لم يكن مما يخص أولئك المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى في زينته (اما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أي فخرج عليهم كائنا في زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل في تسعين ألفا عليهم المعصفرات وهو أول يوم رئي فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا) من المؤمنين جريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار (ياليت لنا مثل ما أوتي قارون) وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه في سبل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفارا (انه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيده (وقال الذين أوتوا العلم) أي بأحوال الدنيا والآخرة كما

ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق فنقول لما قال ان مثلهم كمثل العنكبوت فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الاوثان التي اتخذها وهي تحت تسخيري وانما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي واعظامي فقال الله تعالى ان الله يعلم ان كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لان الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر الا باذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود الا الله ولا اله سواه ☼ ثم قال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس) قال الكافرون كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت فيقال الامثال تضرب للناس ان لم تكونوا كالانعام يحصل لكم منه ادراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لان التشبيه يؤثر في النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل فاذا قال الحكيم لمن يغتاب انك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لانك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه ان كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر اذا قال له انه يوجب العقاب ويورث العتاب * ثم قال تعالى (وما يعقلها الا العالمون) يعني حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمه الا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه وفيه معنى حكمي وهو ان العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم وذلك لان العاقل اذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا ولا يحتاج الى كونه عالما بأشياء قبله وأما الدقيق فيحتاج الى علم سابق فلا بد من عالم ثم انه قد يكون دقيقا في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله اذا كان عالما اذا علم هذا فقوله وما يعقلها الا العالمون يعني هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها الا العلماء ☼ ثم انه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان * ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصا فيها عبر ☼ وأنذرهم على كفرهم باهلاك من غبر * وبين ضعف دليلهم بالتمثيل * ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل * وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين ☼ بقوله (خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين) يعني ان لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا في صحة دينكم * ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم * فان خلق الله السموات والارض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر * وبرهان باهر * وان لم يؤمن به على وجه الارض كافر * وفي الآية مسئلة يتبين بها تفسير الآية وهي أن الله تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والارض بالمؤمنين مع ان في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى أن قال لآيات لقوم يعقلون فنقول خلق السموات والارض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب وبيانه من حيث النقل والعقل أما النقل فقوله ﴿ تعالى ﴾

ينبغي وانهم لم يوصفوا بارادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم باحوال الثنائين يقتضى الاعراض عن الاولى والاقبال على
الثانية حتما وأن تمنى المتمنين ليس الا لعدم علمهم بهما كما ينبغي (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما لا يرتضى
(ثواب الله) فى الآخرة (خير) مما تمنونه (لمن آمن وعمل صالحا) فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها)
أى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء والثواب فانه بمعنى المثوبة أو الجنة أو الايمان والعمل الصالح فانهما
فى معنى السيرة والطريقة (الا الصابرون) أى على
الطاعات وعن الشهوات
(فخسفنا به وبداره الارض)
روى انه كان يوذى موسى
عليه السلام كل وقت وهو
يدار به لقرابته حتى نزلت
الزكاة فصالحه عن كل ألف
على واحد فحسبه فاستكثره
فعمد الى أن يفضح موسى
عليه السلام بين بنى اسرائيل
فجعل لبغى من بغايا بنى اسرائيل
الف دينار وقيل طشتا من
ذهب مملوءة ذهبا فلما كان يوم
عيد قام موسى عليه السلام
خطيبا فقال من سرق
قطعناه ومن زنى غير محصن
جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه
فقال قارون ولو كنت قال
ولو كنت قال ان بنى اسرائيل
يزعمون أنك فجرت بفلانة
فاحضرت فناشدها عليه
السلام أن تصدق فقالت
جعل لى قارون جعلا على
أن أرميك بنفسى فخر موسى
ساجدا لربه يبكى ويقول يارب
ان كنت رسولك فاغضب لى
فاوحى اليه أن مر الارض بما
شئت فانها مطيعة لك فقال
يابنى اسرائيل ان الله بعثنى الى
قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال ياأرض
خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وهم يناشدونه عليه
الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت اليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون
بينهم انما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله (فما

تعالى ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون أخرج أكثر الناس عن العلم بكون
خلقهما بالحق مع انه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال ولئن سألتهم من خلق السموات
والارض ليقولن الله وأما العقل فهو ان العاقل أول ما ينظر الى خلق السموات والارض
ويعلم أن لهما خالقا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك بل يقول
انه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق لان ما لا يكون على وجه الاحكام يفسد
ويبطل فيكون باطلا واذا علم انه خلقهما متقنا يقول انه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه
شامل حيث اتقن فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات فى الارض ولا فى السموات
ولا يعجز عن جمعها كما جمع اجزاء الكائنات والمبدعات فيجوز بعث من فى القبور وبعثة
الرسول ويعلم وحدانية الله لانه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق
موجودان فيحصل له الايمان بتمامه * من خلق ما خلقه على أحسن نظامه * ثم ان الله
تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله * بقوله تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب
وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى ان كنت تأسف على كفرهم فاتل
ما أوحى اليك لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما انت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى
اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال اتل وما قال عليهم لان
التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم الا تسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية
مسائل (المسئلة الاولى) ان الرسول اذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة
فى قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك فان الكتب المسيرة مع
الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام * مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام *
وقسم يكون فيه قانون كلى تحتاج اليه الرعية فى جميع الاوقات كما اذا كتب الملك كتابا فيه
انا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا اليكم هذا الكتاب فيه
جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال * فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك
بل يعلق من مكان عال * وكثيرا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ويكون
نصب الاعين فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء العالمين فوجب تلاوته
مرة بعد مرة ليبلغ الى حد التواتر وينقله الى قرن وبأخذ قوم من قوم ويثبت فى
الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو ان الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكرر
قراءته الا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى الا فيه ثم اذا سمعه
ذلك الغير لا يقرؤها الا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه اسئم وملّ وكتاب لا يكرر عليه الا النفس
كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر
للغير وكلما سمعها يتلذذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس
مع الدمع وتكرر أيضا لنفس المتكلم فان كثيرا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها
يكون أطيب وألذ وأثبت فى القلب وأنفذ حتى يكاد يبكى من رقته دما ولو أورثه البكاء عمى

كان له من فئة) جماعة مشفقة (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وماكان من المنتصرين) أى الممتنعين منه بوجه
من الوجوه يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه فامتنع (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالامس) منذ زمان قريب
(يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة
توجب البسط ولا لهوان يقتضى القبض وويكأن عند ❊ ❊ البصريين مركب من وى للتعجب وكان للتشبيه
والمعنى ما أشبه الامر أن الله
يبسط الخ وعند الكوفيين
من ويك بمعنى ويلك وأن
وتقديره ويك اعلم أن الله
وانما يستعمل عند التنبه على
الخطا والتندم والمعنى انهم
قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم
وتندموا على ذلك (لولا أن
من الله علينا) بعدم اعطائه
ايانا ما تمنيناه واعطائنا مثل
ما أعطاه اياه وقرئ لولا من الله
علينا (لخسف بنا) كما خسف
به وقرئ لخسف بنا على البناء
للمفعول وبنا هو القائم مقام
الفاعل وقرئ لانخسف بنا
كقولك انقطع به وقرئ
لتخسف بنا (ويكأنه لا يفلح
الكافرون) لنعمة الله تعالى
أو المكذبون برسله وبما وعدوا
من ثواب الآخرة (تلك الدار
الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم
كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها
وبلغك وصفها (نجعلها
للذين لا يريدون علوا فى
الارض) أى غلبة وتسلطا
(ولا فسادا) أى ظلما وعدوانا
على العباد كدأب فرعون
وقارون وفى تعليق الموعد
بترك ارادتهما لا بترك أنفسهما
مزيد تحذير منهما وعن على
رضى الله عنه ان الرجل ليعجبه
أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (والعاقبة) الحميدة (للمتقين) أى الذين ❊ الله ❊
يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الافعال والاقوال (من جاء بالحسنة فله) بمقابلتها (خير منها) ذاتا ووصفا وقدرا
(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير
اسناد السيئة اليهم (الا ما كانوا يعملون) أى الا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه

اذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان فى تلاوته
فى كل زمان فائدة (المسئلة الثانية) لم خصص بالامر هذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة
الصلاة فنقول لوجهين (أحدهما) ان الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له
الرسول واسطة بين طرفين من الله الى الخلق فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه
فالطرف الآخر متصل ألا ترى ان الرسول اذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله فاذا تلوت
كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك الى وأقم الصلاة لوجهى (الوجه الثانى) هو ان العبادات
المختصة بالعبد ثلاثة قلبية وهى الاعتقاد الحق ولسانية وهى الذكر الحسن وبدنية خارجية
وهى العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيأ لا يمكنه أن يعتقد مرة
أخرى بل ذلك يدوم مستمرا والنبى عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل
عن بيان فلم يؤمر به لعدم امكان تكراره لكن الذكر ممكن التكرار والعبادة البدنية
كذلك فأمره بهما فقال اتل الكتاب وأقم الصلاة (المسئلة الثانية) كيف تنهى الصلاة
عن الفحشاء والمنكر نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أى
فيه النهى عنهما وهو بعيد لان ارادة القران من الصلاة فى هذا الموضع الذى قال قبله اتل
ما أوحى اليك بعيد من الفهم وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهى تنهى عنهما ما دام
العبد فى الصلاة لانه لا يمكنه الاشتغال بشئ منهما فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا
والا لا يكون مدحا كاملا للصلاة لان غيرها من الاشغال كثيرا ما يكون كذلك كالنوم فى
وقته وغيره فنقول المراد ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقا وعلى هذا قال بعض
المفسرين الصلاة هى التى تكون مع الحضور وهى تنهى حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم
من لم تنهه صلاته عن المعاصى لم يزدد بها الا بعدا ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى
عن الامرين مطلقا وهى التى اتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا
ويجب عليه الاعادة وهذا ظاهر فان من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف
من نوى بصلاته الله وغيره اذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الاول) هو ان من
كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الاحسان ويكون عنده بمنزلة ويرى عبدا من عباده قد
طرده طردا لا يتصور قبوله * وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله ❊ يستحيل من ذلك المقرب
عرفا ان يترك خدمة الملك ويدخل فى طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد اذا صلى لله صار
عبدا له وحصل له منزلة المصلى يناجى ربه فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت
طاعة الشيطان المطرود لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة
تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثانى) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون
له لباس نظيف اذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه
وهو لابسه عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه
مباشرة تلك الاشياء عرفا فكذلك العبد اذا صلى لبس لباس التقوى لانه واقف بين يدى

ماكانوا يعملون مبالغة فى المماثلة (ان الذى فرض عليك القران) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فى
أى معاد معاد تمتد اليه أعناق الهمم وترنو اليه أحداق الامم وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه وقيل هو مكة المعظمة
على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة فى أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده اليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل
نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره وقد اشتاق الى مولده ومولد آبائه وحرم ابراهيم عليه السلام
فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق الى مكة قال نعم فأوحاها اليه (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أى يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم (ومن هو فى ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والاذلال يعنى بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى (وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب) أى سيردك الى معادك كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه (الا رحمة من ربك) ولكن ألقى اليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة أى لاجل الترحم (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) بمداراتهم والتحمل عنهم والاجابة الى طلبتهم (ولا يصدنك) أى الكافرون (عن آيات الله) أى عن قراءتها والعمل بها (بعد اذ أنزلت اليك) وفرضت عليك وقرئ يصدنك من أصد
المنقول من صد اللازم (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) بمساعدتهم فى الامور
(ولا تدع مع الله الهاآخر) هذا وماقبله للتهييج والالهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة
والسلام لهم واظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لايمكن صدوره عنه أصلا

الله واضع يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذى هيبة ولباس التقوى خير
لباس يكون نسبته الى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب الى الجسم فاذن من لبس
هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر ثم ان الصلوات متكررة
واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه
يجلس حيث يريد فاذا دخل فى خدمة ملك وأعطاه منصبا له مقام خاص لايجلس صاحب
ذلك المنصب الافى ذلك الموضع فلو أراد أن يجلس فى صف النعال لايترك فكذلك العبد
اذا صلى دخل فى طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين اذ صار من أصحاب اليمين
فلو أراد أن يقف فى غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لايترك لكن من تكب الفحشاء
والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه اشارة الى عصمة الله يعنى من صلى عصمه الله عن
الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الاخبار وهو ان من يكون بعيدا عن
الملك كالسوقى والمنادى والمتعيش لايبالى بما فعل من الافعال يأكل فى دكان الهراس
والرواس ويجلس مع أخباش الناس فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما اذا صار
واحدا من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لاتمنعه تلك القربة من تعاطى ماكان
يفعله فاذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الاكل
فى ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان كذلك العبد اذا صلى وسجد صار له قربة ما
لقوله تعالى واسجد واقترب فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصى
والمناهى فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة
مايستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر وفى الآية وجه اخر معقول يؤكده
المنقول وهو ان المراد من قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو انها تنهى عن
التعطيل والاشراك والتعطيل هو انكار وجود الله والاشراك اثبات ألوهية لغير الله
فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لان الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود الله أظهر
من الشمس ومامن شئ الا وفيه آية على الله ظاهرة وانكار الظاهر ظاهر الانكار فالقول
بأن لااله قبيح والاشراك منكر وذلك لان الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب
نفسا الى غير الوالد مع جواز أن يكون له والد حيث قال ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم
ليقولون منكرا من القول فالمشرك الذى يقول الملائكة بنات الله وينسب الى من لم يلد
ولا يجوز أن يكون له ولد والدا كيف لايكون قوله منكرا فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء
وهذا المنكر وذلك لان العبد أول مايشرع فى الصلاة يقول الله أكبر فبقوله الله ينفى
التعطيل وبقوله أكبر ينفى التشريك لان الشريك لايكون أكبر من الشريك الآخر فيما
فيه الاشتراك فاذا قال بسم الله نفى التعطيل واذا قال الرحمن الرحيم نفى الاشراك لان
الرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطى البقاء بالرزق بالرحمة فاذا قال
الحمد لله رب العالمين اثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله رب العالمين خلاف

... الا وجهه) الا ذاته فان ماعداه كائنا ما كان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه ترجعون) عند البعث للجزاء بالحق والعدل * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا *

(سورة ◆ ٦٧٨ ◆ العنكبوت مكية وهى تسع وستون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم) الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن مابعده لايحتمل أن يتعلق به تعلقا اعرابيا (أحسب الناس) ونظائره لايتعلق بمعانى المفردات بل بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شئ لشئ أو انتفاء شئ عن شئ بحيث يحصل منها مفعولاه اما بالفعل كما فى عامة المواقع واما بنوع تصرف فيها كما فى الجمل المصدرة بأن والواقعة صلة للموصول الاسمى أو الحرفى فان كلا منها صالحة لان يسبك منها مفعولاه لان قوله تعالى احسب الناس (أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون) فى قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى انكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ماتشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب أعمالهم فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لايقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى أنها نزلت فى ناس من الصحابة ◆ وحصل ◆

الاشراك فاذا قال اياك نعبد بتقديم اياك نفى التعطيل والاشراك وكذا بقوله واياك نستعين فاذا قال اهدنا الصراط نفى التعطيل لان طالب الصراط له مقصد والمعطل لامقصد له وبقوله المستقيم نفى الاشراك لان المستقيم هو الاقرب والمشرك يعبد الاصنام حتى يعبد صورة صورها الله العالمين و يظنون انهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا الى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا اله الا الله فينفى الاشراك والتعطيل (وههنا لطيفة) وهى ان الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله فى قوله أشهد أن لا اله الا الله ليعلم المصلى انه من أول الصلاة الى آخرها مع الله فان قال قائل فقد بقى من الصلاة قوله وأشهد أن محمدا رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم فنقول هذه الاشياء فى آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة وذلك لان الصلاة ذكر الله لاغير لكن العبد اذا وصل بالصلاة الى الله وحصل مع الله لايقع فى قلبه انه استقل واستبد واستغنى عن الرسول كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولايلتفت الى النواب والحجاب فقال أنت فى هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد رسول الله ثم اذا علمت ان هذا كله ببركة هدايته فاذكر احسانه بالصلاة عليه ثم اذا رجعت من معراجك وانتهيت الى اخوانك فسلم عليهم و بلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان أولها وقوف بين يدى الله كوقوف المملوك بين يدى السلطان ثم ان آخرها جثو بين يدى الله كما يجثو بين يدى السلطان من أكرمه بالاجلاس كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله أجلسه فجثا وفى هذا الجثو لطيفة وهى ان من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لايكون له جثو فى الآخرة ولايكون من الذين قال الله فى حقهم ونذر الظالمين فيها جثيا * ثم قال تعالى (ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون) لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب واقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الاتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم فقال ولذكر الله أكبر أى اذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم لكن ذكر الله أكبر فينبغى أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم وأما الصلاة فكذلك لان الله يعلم ماتصنعون وهذا أحسن صنعكم فينبغى أن يكون على وجه التعظيم وفى قوله ولذكر الله أكبر مع حذف بيان ماهو أكبر منه لطيفة وهى ان الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لان مانسب الى غيره بالكبر فله اليه نسبة اذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وانما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لالغيره وهذا كما قال فى الصلاة الله أكبر أى له الكبر لالغيره * ثم قال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به ومايجحد بآياتنا الا الكافرون) لما بين الله طريقة ارشاد المشركين ونفع من انتفع

رضوان الله تعالى عليهم اجمعين جزعوا من اذية المشركين وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر بن الخطاب
رضى الله عنهما رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وامرأته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة (ولقد فتنا الذين من قبلهم)
متصل بقوله تعالى أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون ﴿ ٦٧٩ ﴾ والمعنى ان ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية
فيما بين الامم كلها فلا ينبغى
أن يتوقع خلافها والمعنى
أن الامم الماضية قد أصابهم
من ضروب الفتن والمحن
ما هو اشد مما أصاب هؤلاء
فصبروا كما يعرب عنه قوله
تعالى وكأين من نبى قاتل
معه ربيون كثير فما وهنوا لما
أصابهم فى سبيل الله وما
ضعفوا وما استكانوا الآيات
وعن النبى عليه الصلاة
والسلام قد كان من قبلكم
يؤخذ فيوضع المنشار على
رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه
ذلك عن دينه ويمشط
بأمشاط الحديد ما دون عظمه
من لحم وعصب ما يصرفه
ذلك عن دينه (فليعلمن الله
الذين صدقوا) أى فى قولهم
آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى
ذلك والفاء لترتيب ما بعدها
على ما يفصح عنه ما قبلها
من وقوع الامتحان واللام
جواب القسم والالتفات الى
الاسم الجليل لادخال الروعة
وتربية المهابة وتكرير الجواب
لزيادة التاكيد والتقرير أى
فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان
تعلقا حاليا يتميز به الذين
صدقوا فى الايمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويترتب عليه

وحصل اليأس ممن لم يتم بين طريقة ارشاد أهل الكتاب فقال ولا تجادلوا أهل الكتاب
الا بالتى هى أحسن قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف وان لم يؤمنوا
الا اذا ظلموا وحاربوا أى اذا ظلموا زائدا على كفرهم وفيه معنى ألطف منه وهو ان المشرك
جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالاخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين
شبهه ولهذا قال تعالى فى حقهم صم بكم عمى وقال لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان
لا يسمعون بها الى غير ذلك وأما أهل الكتاب فجاؤا بكل حسن الا الاعتراف بالنبى عليه
السلام فوحدوا وآمنوا بانزال الكتب وارسال الرسل والحشر فلمقابلة احسانهم
يجادلون أولا بالاحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب الى الضلال آباؤهم بخلاف المشرك
ثم على هذا فقوله الا الذين ظلموا تبين له حسن آخر وهو أن يكون المراد الا الذين أشركوا
منهم باثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الظالمون لان
الشرك لظلم عظيم فيجادلون بالاخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ثم انه تعالى بين
ذلك الاحسن فقدم محاسنهم بقوله وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا
والهكم واحد ونحن له مسلمون فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل
مضى ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسيا فقال وكذلك أنزلنا اليك الكتاب يعنى كما أنزلنا على من
تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ثم قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به لوجود النص
ومن هؤلاء كذلك واختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن
بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله ومن هؤلاء أى من أهل مكة وقال
بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا من
أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهذا
أقرب فان قوله هؤلاء صرفه الى أهل الكتاب أولى لان الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين
ههنا اذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والاعراض عنهم لاصرارهم على الكفر
وههنا وجه آخر أولى وأقرب الى العقل والنقل وأقرب الى الاحسن من الجدال المأمور
به وهو ان نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء وبقوله ومن هؤلاء اى من أهل
الكتاب وهو أقرب لان الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الانبياء فان الله ما آتى الكتاب
الا للانبياء كما قال تعالى أولئك الذين آتيناهم الكتاب وقال وآتينا داود زبورا وقال
وآتانى الكتاب واذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص لان كل الانبياء آمنوا بكل
الانبياء واذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام
واثنين أو ثلاثة معه أو عددا قليلا ويكون المراد بقوله ومن هؤلاء غير المذكورين وعلى
ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركون وتكلم فيهم
وفرغ منهم والثانى أهل الكتاب وهو بعد فى بيان أمرهم والوقت وقت جريان ذكرهم
فاذا قال هؤلاء يكون منصرفا الى أهل الكتاب الذين هو فى وصفهم واذا قال أولئك يكون

منصرفا الى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم وعلى هذا التفسير يكون
الجدال على أحسن الوجوه وذلك لان الخلاف فى الانبياء والائمة قريب من الخلاف فى
فضيلة الرؤساء والملوك فاذا اختلف حزبان فى فضيلة ملكين أو رئيسين وأدى الاختلاف
الى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان
متصادقان فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبى صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالانبياء
وهم آمنوا بى فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ثم قال تعالى وما يجحد
بآياتنا الا الكافرون تنفيرا لهم عما هم عليه يعنى انكم آمنتم بكل شئ وامتزتم عن المشركين
بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم فان
الجاحد بآية يكون كافرا ❊ ثم قال تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه
بيمينك) هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب وذلك لان المجادل اذا ذكر مسئلة
مختلفا فيها كقول القائل الزكاة تجب فى مال الصغير فاذا قيل له لم فيقول كما تجب النفقة فى
ماله ولا يذكر أولا الجامع بينهما فان قنع الطالب بمجرد التشبيه ويدرك من نفسه الجامع
فذاك وان لم يدرك أولم يقنع يبدى الجامع فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب
فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله وكذلك أنزلنا اليك ثم ذكر الجامع وهو المعجزة فقال
ما علم كون تلك الكتب منزلة الا بالمعجزة وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة فيعرف
كونه منزلا ❊ وقوله تعالى (اذا لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف وهو ان النبى اذا كان
قارئا كاتبا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه فان جميع كتبة الارض وقرائها
لا يقدرون عليه لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب وعلى ما هو عليه لا وجه
لارتيابه فهو أدخل فى الابطال وهذا كقوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا
بسورة من مثله أى من مثل محمد عليه السلام وكقوله الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ❊ ثم قال
تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) قوله فى صدور الذين أوتوا العلم اشارة
الى انه ليس من مخترعات الآدميين لان من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبى
وخاطرى واذا حفظه من غيره يقول انه فى قلبى وصدرى فاذا قال فى صدور الذين أوتوا العلم
لا يكون من صدر أحد منهم والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون
عند هذه الامة بالمشركين فظهوره من الله ❊ ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا الا الظالمون)
قال ههنا الظالمون ومن قبل قال الكافرون مع ان الكافر ظالم ولا تنافى بين الكلامين وفيه
فائدة وهى انهم قبل بيان المعجزة قيل لهم ان لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا
كافرين فلفظ الكافر هناك كان بليغا يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان
المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية لزمكم انكار ارسال الرسل فتلتحقون فى أول الامر
بالمشركين حكما وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أى مشركين
كما بينا ان الشرك ظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ ❊ ثم قال تعالى

اجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن او ليجازين وقرئ وليعلمن من الاعلام أى
وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم
بسمة يعرفون بها يوم القيامة
كبياض الوجوه وسوادها
(أم حسب الذين يعملون
السيئات أن يسبقونا) أى
يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم
بمساوى أعمالهم وهو
ساد مسد مفعولى حسب
لاشتماله على مسند ومسند اليه
وأم منقطعة وما فيها من
معنى بل للاضراب والانتقال
عن التوبيخ بانكار حسبانهم
متروكين غير مفتونين الى
التوبيخ بانكار ما هو أبطل من
الحسبان الاول وهو حسبانهم
أن لا يجازوا بسيئاتهم وهم
وان لم يحسبوا أنهم يفوتونه
تعالى ولم يحدثوا نفوسهم
بذلك لكنهم حيث أصروا
على المعاصى ولم يتفكروا
فى العاقبة نزلوا منزلة من
يطمع فى ذلك كما فى قوله تعالى
يحسب أن ماله أخلده (ساء
ما يحكمون) أى بئس الذى
يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس
حكما يحكمونه حكمهم
ذلك (من كان يرجو لقاء
الله) أى يتوقع ملاقاة
جزائه ثوابا أو عقابا أو ملاقاة
حكمه يوم القيامة وقيل

﴿ وقالوا ﴾

يرجو لقاء الله عزوجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول الى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتى ويذر فاما يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله أو بضده لما سخطه (فان أجل الله) الاجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لامر من الامور وقد يطلق على كل ذلك الزمان ﴿٦٨١﴾ والاول هو الاشهر فى الاستعمال أى فان الوقت الذى عينه تعالى لذلك (لآت) لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لان اجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما فلابد من اتيان ذلك الجزء أيضا البتة واتيان وقته موجب لاتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أى فليختر من الاعمال ما يؤدى الى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه الى سوء العذاب كما فى قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لاقوال العباد (العليم) بأحوالهم من الاعمال الظاهرة والعقائد (ومن جاهد) فى طاعة الله عزوجل (فانما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها اليها (ان الله لغنى عن العالمين) فلا حاجة له الى طاعتهم وانما أمرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالايمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم لا جزاء أحسن أعمالهم ﴿٨٦ س﴾ فقط (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أى بايتاء والديه وايلائهما فعلا ذا حسن أو ما هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسنا ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفا غير

(وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين) لما فرغ من ذكر دلايل من جانب النبى عليه السلام ذكر شبهتهم وهى بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس فقالوا انك تقول انه أنزل اليك كتاب كما أنزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتى تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئا منها ثم ان الله تعالى أرشد نبيه الى أجوبة هذه الشبهة منها قوله انما الآيات عند الله ووجهه ان النبى صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة لان الرسول يرسل أولا ويدعو الى الله ثم ان توقف الخلق فى قبوله أو طلبوا منه دليلا فالله ان رحمهم بين رسالته وان لم يرحمهم لا يبين فقال انا الساعة رسول وأما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لا ينزلها وهذا لان ما هو من ضرورات الشئ اذا خلق الله الشئ لابد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الانسان فلا يخلق الله انسانا الا ويكون قد خلق مكانا أو يخلقه معه لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله اذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته ان تعلم له معجزة ولهذا علم وجود رسل كشيث وادريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فان قيل علم رسالتهم نقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له الى معجزة لان رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم ينزل عليه آية وهذا لانهم طلبوا سبق الآية وليست شرطا حتى تسبقها بلى ان كان لهم سؤال فطريقه ان يقولوا أيها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبى وتكذيب النبى ونعلم بها كونك نبيا ونؤمن بك فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله ان ينزل آية * ثم قوله وانما أنا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها أولا ينزلها لا تتعلق بى ما أنا الا نذير وليس لى عليه حكم بشئ * ثم انه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر وقال هب ان انزال الآية شرط لكنه وجد وهو فى نفس الكتاب * فقال تعالى (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى ان كان انزال الآية شرطا فلا يشترط الانزال آية وقد أنزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية وذلك لان القائل اذا قال اما يكفى للمسئ ان لا يضرب حتى يتوقع الاكرام ينبئ عن ان ترك الضرب فى حقه كثير فكذلك قوله أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب وهذا لان القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه (أحدها) ان تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الاشياء لا يمكن اثباتها معه بدون الكتاب واما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثانى) هو ان قلب العصا ثعبانا كان فى مكان واحد ولم يره من لم يكن فى ذلك المكان واما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل واحد وههنا لطيفة وهى ان آيات النبى عليه السلام كانت اشياء لا تختص بمكان دون مكان لان جملتها انشقاق القمر وهو يعم الارض لان

الخسوف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدت الكنيسة بالروم فى قطر آخر اعلاما بانه يكون أمر عام (الثالث) هو ان غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول انه سحر عمل بدواء والقرآن لا يمكن هذا القول فيه ثم انه تعالى قال (ان فى ذلك لرحمة) اشارة الى انا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق وهذا لانا بينا أن اظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق فى ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب لان النبى لا يتميز عن المتنبى لولا المعجزة لكن الله له ذلك يفعل مايشاء و يحكم مايريد وقوله (وذكرى) اشارة الى انه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقى الزمان ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعنى هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لان المعجزة كانت غضبا على الكافرين لانها قطعت أعذارهم وغلطت انكارهم ثم قال تعالى (قل كفى بالله بينى و بينكم شهيدا) لما ظهرت رسالته و بهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق اذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقى وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بينى و بينكم كل ذلك انذار وتهديد يفيد تقريرا وتأكيدا ثم بين كونه كافيا بكونه عالما بجميع الاشياء ❊ فقال (يعلم مافى السموات والارض) وههنا مسئلة وهى ان الله تعالى قال فى آخر الرعد ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم ومن عنده علم الكتاب فأخر شهادة أهل الكتاب وفى هذه السورة قدمها حيث قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به أى من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم ان شهادة الله أقوى فى الزامهم من شهادة غير الله وههنا الكلام مع أهل الكتاب وشهادة المرء على نفسه هو اقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو الزم عليهم ❊ ثم انه تعالى لما بين الطريقين فى ارشاد الفريقين المشركين واهل الكتاب عاد الى الكلام الشامل لهذا والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون) أى الذين آمنوا بما سوى الله لان ما سوى الله باطل لانه هالك بقوله كل شئ هالك الا وجهه وكل ما هلك فقط بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل فمن امن بما سوى الله فقد آمن بالباطل وفيه مسائل (الاولى) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضى الحصر أى من أتى الايمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتى بأحدهما دون الآخر ينبغى أن لا يكون خاسرا فنقول يستحيل أن يكون الآتى بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر اما الآتى بالايمان بما سوى الله فلانه أشرك بالله فجعل غير الله مثله فجعل الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون انكار الله وكفرا به واما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بان العالم ليس له اله موجد فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا بأن العالم واجب والواجب اله

بين ما كان فى المأمور به فقع عائدا الى المأمور او غيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا احسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى وقلنا أولهما أو افعل بهما احسنا وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرئ حسنا واحسانا (وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم) أى بالاهيته عبر عن نفيها بنفى العلم بها للايذان بأن مالا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وان لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه ❊ ٦٨٢ ❊ (فلا تطعهما) فى ذلك فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهى عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكليف اشعار بأن موجب النهى فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الاولوية (الى مرجعكم) أى مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازى كلا منكم بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر والآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه عند اسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت ابى سفيان بن أمية أن لا تنتقل من الضح الى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التى فى سورة لقمان وسورة الاحقاف وقيل نزلت فى عياش ابن أبى ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لامه اسماء فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الارحام و بر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتا حتى تراك فاخرج معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب واستشار عمر رضى الله عنه فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالى بينى و بينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال له عمر رضى الله عنه أما اذا عصيتنى فخذ ناقتى فليس فى الدنيا

﴿ فيكون ﴾

بغير يطعمها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتى قد كلت فاحملنى معك فنزل ابوطئ انفسه
وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لاتزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين
امنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى زمرة الراسخين فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى درجات

المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وقال فى حق ابراهيم عليه السلام وانه فى الآخرة لمن الصالحين أوفى مدخل الصالحين وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) أى فى شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) أى مايصيبه من أذيتهم (كعذاب الله) فى الشدة والهول فيرتد عن الدين مع أنه لاقدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا (ولئن جاء نصر من ربك) أى فتح وغنيمة (ليقولن) بضم اللام نظرا الى معنى من كما أن الافراد فيما سبق بالنظر الى لفظها وقرئ بالفتح (انا كنا معكم) أى مشايعين لكم فى الدين فاشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا اذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) أى بأعلم منهم بما فى صدورهم من الاخلاص والنفاق حتى يفعلوا مايفعلون من الارتداد والاخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الاوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا) أى بالاخلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم باذية الكفرة أولا أى ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان

فيكون قائلا بأن غير الله اله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (المسئلة الثانية) اذا كان الايمان بما سوى الله كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد نقول نعم فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح (المسئلة الثالثة) هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله نقول نعم لانهم لما صح عندهم أن معجزة النبى من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا انها من عند غير الله يكون كمن رأى شخصا يرمى حجارة فقال ان رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد فكذلك هم لما قطعوا بان مظهر المعجزة هو الله وقالوا بان محمدا مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون ايمانا بالباطل واذا قالوا بان من أظهر المعجزة ليس بالله مع انهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونوا قائلين بان ذلك المخصوص الذى هو الله ليس بالله فيكون كفرا به وهذا لا يرد علينا فيمن يقول فعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد فانه أيضا ينسب فعل الله الى الغير كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها الى غيره لان هذا القائل جهل النسبة كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها فظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ثم اذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بان يقول هو زيد واما اذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامى الحجارة زيد يقطع بانه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث انهم كانوا معاندين عالمين بان الله مظهر تلك المعجزة ويقولون بانها من عند غير الله ثم قوله هم الخاسرون كذلك باتم وجوه الخسران وهذا لان من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون فهم لما عبدوا غير الله افنوا العمر ولم يحصل لهم فى مقابلته شئ ما أصلا من المنافع واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها * ثم قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الانذار لان من خسر لا يحصل له فى مقابلة قدر الخسران شئ من المنافع والا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه مثاله اذا خسر واحد من العشرة درهما ينبغى أن يكون حصل له فى مقابلة الدرهم مايساوى نصف درهم والا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم فاذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب والا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم فقوله وأولئك هم الخاسرون تهديد عظيم فقالوا ان كان علينا عذاب فأتنا به اظهارا لقطعهم بعدم العذاب ثم انه أجاب بان العذاب لا يأتيكم بسوء اختياركم ولا يعجل باستعجالكم لانه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا ولكونه رحيما لا يكون غضوبا منزعجا ولولا ذلك الاجل المسمى الذى اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة

جملهم لهم عليه بالاذية والوعيد وصفهم بالكفر ههنا دون ماسبق لما أن مساق الكلام لبيان جناياتهم وفيماسبق لبيان جناية
من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم (اتبعوا سبيلنا) أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك بالاتباع
الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا (ولنحمل خطاياكم) أى ان كان ذلك خطيئة
يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وانما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل
بالاتباع والوعد بتخفيف
الاوزار عنهم وان كان ثمة وزر
فرد عليهم بقوله تعالى
(وماهم بحاملين من خطاياهم
من شئ) وقرئ من خطيئتهم
أى وماهم بحاملين شيئا من
خطاياهم التى التزموا أن
يحملوا كلها على أن من
الاولى للتبيين والثانية مزيدة
للاستغراق والجملة اعتراض
أوحال (انهم لكاذبون) حيث
أخبروا فى ضمن وعدهم
بالحمل بانهم قادرون على
انجاز ما وعدوا فان الكذب
كما يتطرق الى الكلام باعتبار
منطوقه يتطرق اليه باعتبار
مايلزم مدلوله كما مر فى قوله
تعالى أنبؤنى بأسماء هؤلاء ان
كنتم صادقين (وليحملن
أثقالهم) بيان لما يستتبعه
قولهم ذلك فى الآخرة من
المضرة لانفسهم بعد بيان
عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا
والتعبير عن الخطايا بالاثقال
للايذان بغاية ثقلها وكونها
فادحة واللام جواب قسم
مضمر أى والله ليحملن أثقال
أنفسهم كاملة (وأثقالا) أخر
(مع أثقالهم) لما تسببوا
بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن ينتقص من أثقال من أضلوه شئ ما أصلا (وليسئلن يوم القيامة) سؤال تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والاباطيل التى من جملتها كذبهم هذا (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) شروع

وحكمة فيكون غضو بامنقلبا فينا أثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك
فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه كما قال
تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها * ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة)
اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة لان العذاب أقرب المذكورين
ولان سؤلهم كان العذاب فقال انه ليأتينهم وقال بعضهم ليأتينهم بغتة اى الاجل لان
الآتى بغتة هو الاجل وأما العذاب بعد الاجل يكون معاينة وقد ذكرنا ان فى كون العذاب
أو الاجل آتيا بغتة حكمة وهى انه لو كان وقته معلوما لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه
بوقته فيفسق ويفجر معتمدا على التوبة قبل الموت * وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل
وجهين (أحدهما) تاكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل اتيته على غفلة منه بحيث
لم يدر فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام يفيد فائدة مستقلة وهى ان
العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الامر و يظنون ان العذاب لا يأتيهم أصلا * ثم
قال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ذكر هذا للتعجب وهذا لان
من توعد بامر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة فيرى من نفسه الجلد و يقول باسم الله هات
واما من توعد باغراق أو احراق و يقطع بان المتوعد قادر لا يخلف الميعاد لا يخطر ببال
العاقل ان يقول له هات ماتوعدنى به فقال ههنا يستعجلونك بالعذاب والعذاب بنار
جهنم المحيط بهم فقوله ويستعجلونك أولا اخبار عنهم وثانيا تعجب منهم * ثم ذكر كيفية
احاطة جهنم فقال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وفيه
مسئلتان (الاولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام فنقول لان
المقصود ذكر ماتتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من
دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد
من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التى تحت
القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (المسئلة الثانية) قال
من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل
ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق فنقول لان نزول النار من فوق
سواء كان من سمت الرؤس وسواء كان من موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرأس واما
بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب والا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى
تحت فذكر العجيب وهو ماتحت الارجل حيث لم ينطفئ بالدوس ومافوق على الاطلاق
* ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب
أرواحهم وهو ان يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون وجعل
ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان
سببا لجعل الله اياه سببا لعذابهم وهذا كثير النظير فى الاستعمال * ثم قال تعالى (ياعبادى

فى بيان افتتان الانبياء عليهم الصلاة والسلام باذية اممهم اثر بيان افتتان المؤمنين باذية الكفار تأكيد للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثالهم على الصبر فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلان يصبر هؤلاء أولى وأحرى قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين عاما بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة ﴿٦٨٥﴾ وعاش بعد الطوفان ستين سنة وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة ولعل ماعليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فان تسعمائة وخمسين قد يطلق على مايقرب منه ولما فى ذكر الالف من تخييل طول المدة فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ماكان عليه من مكابدة ماناله من الكفرة واظهار ركاكة رأى الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميز لما فى التكرير من نوع بشاعة (فأخذهم الطوفان) أى عقيب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل مايطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء (وهم ظالمون) أى والحال أنهم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عماهم عليه من الكفر والمعاصى هذه المدة المتمادية (فأنجيناه) أى نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أى ومن ركب فيها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم أناث (وجعلناها) أى السفينة أو الحادثة والقصة (آية للعالمين) يتعظون بها (وابراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل باضمار اذكر وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين ابراهيم (اذ قال لقومه) على الاول ظرف للارسال أى أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال الى

الذين آمنوا) وجه التعلق هو ان الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما فى الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا فى ايذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطبا للمؤمنين ياعبادى الذين آمنوا (ان ارضى واسعة فاياى فاعبدون) ان تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتى بحال وبهذا علم ان الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب حتى لو حلف بالطلاق انه لا يخرج لزمه الخروج ودع حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل (احداها) ياعبادى لم يرد الا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل فى قوله ياعبادى نقول ليس داخلا فى قوله ياعبادى نقول ليس داخلا فيه لوجوه (أحدها) أن من قال فى حقه عبادى ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا فى قوله ياعبادى (الثانى) هو ان الخطاب بعبادى أشرف منازل المكلف وذلك لان الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسما عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى انى جاعل فى الارض خليفة والخليفة أعظم الناس مقدارا وأتم ذوى الباس اقتدارا ثم ان ابليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى فأزلهما الشيطان ثم ان من أولاده الصالحين من سمى بعبادى فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقال هو بلسانه لاغوينهم أجمعين الا عبادك فعلم أن المكلف اذا كان عبد الله يكون أعلى درجة مما اذا كان خليفة لوجه الارض ولعل آدم كداود الذى قال الله تعالى فى حقه انا جعلناك خليفة فى الارض لم يتخلص من يد الشيطان الا وقت ماقال الله تعالى فى حقه عبدى وعندما ناداه بقوله ربنا ظلمنا أنفسنا واجتباه بهذا النداء كما قال فى حق داود واذكر عبدنا داود ذا الايد اذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة فلا يدخل فى قوله ياعبادى الا المؤمن (الثالث) هو ان هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله وذلك لان الله تعالى قال ادعونى أستجب لكم فالمؤمن دعا ربه بقوله ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا فأجابه الله تعالى بقوله ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله فالاضافة بين الله وبين العبد بقول العبد الهى وقول الله عبدى تأكدت بدعاء العبد لكن الكافر لم يدع فلم يجب فلا يتناول ياعبادى غير المؤمنين (المسئلة الثانية) اذا كان عبادى لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة فى قوله الذين آمنوا مع ان الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال ياأيها المكلفون المؤمنون وياأيها الرجال العقلاء تمييزا عن الكافرين والجهال فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبى مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل فههنا ذكر

وبخة التعميل حيث تصدى لارشاد الخلق الى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من ابراهيم (اعبدوا الله) اى وحده (واتقوه) أن تشركوا به شيئا (ذلكم) أى ماذكر من العبادة والتقوى (خير لكم) أى مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع انه لاخيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل (ان كنتم تعلمون) أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو ان كنتم تعلمون شيئا من الاشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ماذكر من العبادة والتقوى (انما ❊٦٨٦❊ تعبدون من دون الله أوثانا) بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة الى الدين الحق أى انما تعبدون من دونه تعالى أوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون افكا) أى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله او تعملونها وتنحتونها للافك وقرئ تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف احدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرئ افكا على انه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقا ذا افك (ان الذين تعبدون من دون الله) بيان لشرية مايعبدونه من حيث انه لايكاد يجديهم نفعا (لايملكون لكم رزقا) أى لايقدرون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرزاق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد (اليه ترجعون) أى بالموت ثم بالبعث لاالى غيره فافعلوا ماأمرتكم به وقرئ ترجعون من رجع رجوعا (وان تكذبوا) أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من ❊ ان ❊ أنكم اليه ترجعون بالبعث (فقد كذب أمم من قبلكم) تعليل للجواب أى فلا تضروننى بتكذيبكم فان من قبلكم من الامم

لبيان أنهم مؤمنون (المسئلة الثالثة) اذ قال ياعبادى فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الامر بالعبادة بقوله فاعبدون فنقول فيه فائدتان (احداهما) المداومة أى يامن عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى المستقبل (الثانية) الاخلاص أى يامن تعبدنى أخلص العمل لى ولا تعبد غيرى (المسئلة الرابعة) الفاء فى قوله فاياى تدل على انه جواب لشرط فما ذلك فنقول قوله ان أرضى واسعة اشارة الى عدم المانع من عبادته فكأنه قال اذا كان لامانع من عبادتى فاعبدونى وأما الفاء فى قوله تعالى فاعبدون فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فاكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله فاياى وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون (المسئلة الخامسة) قال العبد مثل هذا فى قوله اياك نعبد وقال عقيبه واياك نستعين والله تعالى وافقه فى قوله فاياى فاعبدون ولم يذكر الاعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله ياعبادى لان المذكور بعبادى لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان فى غاية الاعانة (المسئلة السادسة) قدم الله الاعانة وأخر العبد الاستعانة قلنا لان العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض فان الغرض سابق على الفعل فى الادراك وذلك لان من يبنى بيتا للسكنى يدخل فى ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء لكن الغرض فى الوجود لايكون الا بعد فعل الواسطة فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى ادراكه وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود فان الاعانة قبل العبادة ❊ ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان فقال لهم ان ماتكرهون لابد من وقوعه فان كل نفس ذائقة الموت والموت مفرق الاحباب فالاولى أن يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه فان الى الله مرجعكم وفيه وجه أرق وأدق وهو ان الله تعالى قال كل نفس اذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ثم الى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى لايذوقون فيها الموت اذا ثبت هذا فمن يريد ان لايذوق الموت لايبقى مع نفسه فان النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير ان كان غير الله فهو ذائق الموت ومورود الهلاك بقوله كل نفس ذائقة الموت وكل شئ هالك الا وجهه فهذا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى فاياى فاعبدون أى تعلقوا بى ولا تتبعوا النفس فانها ذائقة الموت ثم الينا ترجعون أى اذا تعلقتم بى فرجوعكم رجوع الى وليس بموت كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء وقال عليه السلام المؤمنون لايموتون بل ينقلون من دار الى دار فعلى هذا الوجه أيضا يتبين وجه التعلق ❊ ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) بين مايكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل مايكون للكافرين بقوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين فبين أن للمؤمنين الجنان فى مقابلة ما ان للكافرين النيران وبين أن فيها غرفا تجرى من تحتها الانهار فى مقابلة مابين

قد كذبوا من قبلي من الرسل وهم شيث وادريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيأ واعاصرا لهم حيث تسبب
لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبهم (وما على الرسول الى البلاغ المبين) أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه
قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا (أولم يروا كيف يبدئ الله
الخلق) كلام مستأنف مسوق من جهته ﴿٦٨٧﴾ تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله
والهمزة لانكار عدم رؤيتهم
الموجب لتقريرها والواو
للعطف على مقدر أى ألم
ينظروا ولم يعلموا علما جاريا
مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور
كيفية خلق الله تعالى الخلق
ابتداء من مادة ومن غير مادة
أى قد علموا ذلك وقرئ
بصيغة الخطاب لتشديد
الانكار وتأكيده وقرئ يبدأ
وقوله تعالى (ثم يعيده)
عطف على أولم يروا لا على
يبدئ لعدم وقوع الرؤية
عليه فهو اخبار بأنه تعالى
يعيد الخلق قياسا على
الابتداء وقد جوز العطف
على يبدأ بتأويل الاعادة
بانشائه تعالى كل سنة
مثل ما أنشأه فى السنة
السابقة من النبات والثمار
وغيرهما فان ذلك مما
يستدل به على صحة البعث
ووقوعه من غير ريب
(ان ذلك) أى ما ذكر
من الاعادة (على الله يسير)
اذ لا يفتقر فعله الى شئ
أصلا (قل سيروا فى الارض)
أمر لابراهيم عليه السلام
أن يقول لهم ذلك أى سيروا
فيها (فانظروا كيف بدأ الخلق) أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة واخلاق شتى فان ترتيب
النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة)
بعد النشأة الاولى

ان تحت الكافرين النار وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى نعم أجر العاملين فى مقابلة
ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله ذوقوا ما كنتم تعملون ثم فى الآيتين
اختلافات فيها لطائف منها انه تعالى ذكر فى العذاب أن فوقهم عذابا أى نارا ولم يذكر
ههنا فوقهم شيئا وانما ذكر ما فوق من غير اضافة وهو الغرف وذلك لان المذكور
فى الوضعين العقاب والثواب الجسمانيان لكن الكافر فى الدرك الاسفل من النار
فيكون فوقه طبقات من النار فاما المؤمنون فيكونون فى أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيأ
اشارة الى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم وأما قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف لا ينافى
لان الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم ومنها ان هناك ذكر من تحت
أرجلهم النار وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء وذلك لان النار لا تؤلم اذا كانت تحت
مطلقا ما لم تكن فى مسامتة الاقدام ومتصلة بها اما اذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم
وان كانت تحتها أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل فى وهدة
لا تؤلم والماء اذا كان تحت الغرفة فى أى وجه كان وعلى أى بعد كان يكون ملتذا به
فقال فى النار من تحت أرجلهم ليحصل الالم بها وقال ههنا من تحت الغرف لحصول
اللذة به كيف كان ومنها ان هناك قال ذوقوا لايلام قلوبهم بلفظ الامر وقال ههنا نعم
أجر العاملين لتفريح قلوبهم لا بصيغة الامر وذلك لان لفظ الامر يدل على انقطاع التعلق
بعده فان من قال لاجيره خذ أجرتك يفهم منه ان بذلك ينقطع تعلقه عنه واما اذا قال
ما أتم أجرتك عندى أو نعم مالك من الاجر يفهم منه ان ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا
أجركم أيها العاملون وقال هناك ذوقوا ما كنتم تعملون فان قال قائل ذوقوا اذا كان
يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع قلنا ليس كذلك لان الله اذا قال ذوقوا دل على
انه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائما ولا ينقص ولا يزداد
وأما المؤمن اذا أعطاه شيأ فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيده كل يوم فى النعم واليه الاشارة
بقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أى الذى يصل الى الكافر يدوم من غير زيادة
والذى يصل الى المؤمن يزداد على الدوام وأما الخلود وان لم يذكره فى حق الكافر لكن
ذلك معلوم بغيره من النصوص * ثم قال تعالى (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ذكر
امرين الصبر والتوكل لان الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لا تدارك له
ولا يؤمر العبد فيه بشئ بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل
فيصبر على ما يصيبه من الاذى فى الحال ويتوكل فيما يحتاج اليه فى الاستقبال واعلم أن
الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان الا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله فمن علم ما سواه علم
انه زائل فيهون عليه الصبر اذ الصبر على الزائل هين واذا علم الله علم انه باق يأتيه بارزاق
فان فاته شئ فانه يتوكل على حى باق وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب فان قوله يا عبادى
كان لبيان انه لا مانع من العبادة ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها فحصل الناس على

... والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشاة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على
أنهما شأن واحد من شؤن الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود
ولا فرق بينهما الا بالاولية والاخرية وقرئ النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على انها مصدر
مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة أو بحذف العامل ﴿٦٨٨﴾ أى ينشئ فينشئون النشاة الآخرة كما فى قوله
تعالى وأنبتها نباتا حسنا
والجملة معطوفة على جملة
سيروا فى الارض داخلة
معها فى حيز القول واظهار
الاسم الجليل وايقاعه
مبتدأ مع اضماره فى بدأ لابراز
مزيد الاعتناء ببيان تحقق
الاعادة بالاشارة الى علة
الحكم وتكرير الاسناد
وقوله تعالى (ان الله على كل
شئ قدير) تعليل لما قبله
بطريق التحقيق فان من علم
قدرته تعالى على جميع الاشياء
التى من جملتها الاعادة
لا يتصور أن يتردد فى قدرته
عليها ولا فى وقوعها بعد
ما أخبر به (يعذب) أى بعد
النشأة الآخرة (من يشاء)
ان يعذبه وهم المنكرون لها
حتما (ويرحم من يشاء) أن
يرحمه وهم المصدقون
بها والجملة تكملة لما قبلها
وتقديم التعذيب لما ان
الترهيب أنسب بالمقام من
الترغيب (واليه تقلبون)
عند ذلك لا الى غيره فيفعل
بكم ما يشاء من التعذيب
والرحمة (وما انتم بمعجزين)
له تعالى عن اجراء حكمه
وقضائه عليكم (فى الارض ولا فى السماء) أى بالتوارى فى الارض أو الهبوط فى مهاويها ولا بالتحصن
فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه يترك الاوطان ويفارق الاخوان وعاجز وهو
صابر على تحمل الاذى ومواظب على عبادة الله تعالى * ثم قال تعالى (وكأين من دابة
لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم) لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم
يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لا تدخر شيئا لغد * ويأتيها
كل يوم برزق رغد * وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى كأين لغات أربع غير هذه
كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكى على رع ولم يقرأ الا كأين وكائن قراءة ابن
كثير (المسئلة الثانية) كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال
من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ولم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب
لان كأى يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون فقد
حذف المضاف اليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل وحينئذ لا يكون كأى مركبا فاذا
كان كأى ههنا مركبا كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معديكرب وبعلبك موصولا للفرق
وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزا بينها وبين ثمت (المسئلة الثالثة) كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من
الا نادرا وكم يستعمل كثيرا من غير من يقال كم رجلا وكم من رجل وذلك لما بينا من الفرق
بين كأين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة وذلك لان كأى اذا لم تكن مركبة لا يجوز
ادخال من بعدها اذ لا يقال رأيت رجلا لا كأى من رجل والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك
فيها فالتزم للفرق * قوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هى
كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها واياكم) بطريق القياس
أى لا شك فى ان رزقها ليس الا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا فان قال قائل من قال بأن
الله يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مسيب والحيوان يسعى اليه ويرعى فنقول الدليل
عليه من ثلاثة أوجه نظرا الى الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق أما بالنظر
الى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأما بالنظر الى المرتزق
فلأن الاغتداء ليس بمجرد الابتلاع بل لا بد من تشبثه بالاعضاء حتى يصير الحشيش عظما
ولحما وشحما وما ذاك الا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة
وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وارادته فهو الذى يرزقها وأما بالنظر الى المرتزق
والرزق فلأن الله لو لم يهد الحيوان الى الغداء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتداء
الا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعا من أنواع الغداء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق
فيأكله بعد ذلك فان كثيرا ما يكون البعير لا يعرف الخمير ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة
فيعرفه فيأكله بعد ذلك فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب
التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض اليه اذ اكل منه اليوم شيأ وترك بقية يجدها غدا مامدا
اليه أحد يدا والانسان ان لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدا شئ وأيضا حاجات الانسان كثيرة
فانه يحتاج الى أجناس اللباس وأنواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضا قوت الحيوان
مهيأ وقوت الانسان يحتاج الى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل

والارض فانفذوا والقلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أى ولا من فى السماء (وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الارض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم (والذين كفروا بآيات الله) اى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها النشأة الاولى الدالة على تحقق البعث والآيات الناطقة به دخولا أوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام (ولقائه) الذى تنطق به تلك الآيات (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه (يئسوا من رحمتى) أى ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضى للدلالة على تحقق أو [illegible] منها فى الد[illegible] لا[illegible]كارهم البعث والجزاء (وأولئك لهم [illegible] ب أليم) فى تكرير اسم الاشارة وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالاليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم ما لا يخفى أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الاوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والايلام (فما كان جواب قومه) بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى (الا أن قالوا اقتلوه او حرقوه) وقرئ بالرفع على العكس وقدمر ما فيه فى نظائره وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عليه السلام الا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل ان ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتى فى المرة الاخيرة والا فقد صدر عنهم من الخرفات والاباطيل ما لا يحصى (فأنجاه الله من النار) الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام بردا وسلاما حسبما بين فى موضع آخر وقدمر فى سورة الانبياء بيان كيفية

الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة فنقول نحن لا نقول ان الجمع يقدح فى التوكل بل قد يكون الزراع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل لان من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله انه ان كان يريد يرزق من غير زرع وان كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ومن يصلى وقلبه مع ما فى يد زيد وعمرو هو غير متوكل وأما قوله حاجات الانسان كثيرة فنقول مكاسبه كثيرة أيضا فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعى وغيره وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادى والمنادى وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالطبيب والفقيه وبقوة جسمه كالعتال والجمال والحيوان لا مكاسب له فالرغيف الذى يحتاج اليه الانسان غدا أو بعد غد بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب فهو أولى بالتوكل وأيضا الله تعالى خلق الانسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه فان الله ملك الانسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء أم أبى حتى ان نتاج الانعام وثمار الاشجار تدخل فى الملك وان لم يرده مالك النعم والشجر واذا مات فرن ينتقل ذلك الى قرن آخر فهرا شاؤا أم أبوا وليس كذلك حال الحيوان اصلا فان الحيوان ان لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه فاذن الانسان لو توكل كان أقرب الى العقل من توكل الحيوان ثم قال وهو السميع العليم سميع اذا طلبتم الرزق يسمع وخبير عليم ان سكتم لا يخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم ثم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون) نقول لما بين الله الامر للمشرك مخاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله يا عبادى الذين آمنوا وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون ارشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن فان السيد اذا كان له عبدان أو الوالد اذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ينصح أولا المفسد فان لم يسمع يقول معرضا عنه ملتفتا الى الرشيد ان هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ثم اذا ذكر مع المصلح فى أثناء الكلام والمفسد يسمعه ان هذا أخاك العجب منه انه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام أيضا داعيا له الى سبيل الرشاد مانعا له من ذلك الفساد فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم انهم ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ثم لا يؤمنون وفى الآية لطائف (احدها) ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير وذلك لان مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فاذا الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير وذلك لان التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافية

الفائه عليه الصلاة والسلام فيها وانجائه تعالى اياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا (ان فى ذلك) أى فى انجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هى حفظه تعالى اياه من حرها واخمادها فى زمان يسير وانشاء روض فى مكانها (لقوم يؤمنون) وأما من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) اى ابراهيم عليه السلام مخاطبا لهم (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) أى لتتوادوا بينكم ﴿ ٦٩٠ ﴾ وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثانا آلهة و يجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف او بتأويلها بالمودودة أو بجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم اوثانا سبب المودة بينكم او مودودة اونفس المودة وقرئ مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على أنها خبر مبتدا محذوف أى هى مودودة اونفس المودة اوسبب مودة بينكم والجملة صفة أوثانا أو خبران على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الاول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرئ انما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم اياها مودة بينكم ليس الا فى الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم بى ما فعلتم لاجل مودتكم لها انتصارا منى كما ينبئ عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الامور و يتبدل التواد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض) وهم الاوثان (و يلعن بعضكم بعضا) أى يلعن كل فريق منكم ومن الاوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) أى هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون ﴿ ولا ﴾ منه أبدا (ومالكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى

لانها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين فالحكمة فى تسخيرهما تحركهما فى قدر ما يتنفس الانسان آلافا من الفراسخ ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات احداها حركتهما من المشرق الى المغرب فى كل يوم وليلة مرة والاخرى حركتهما من المغرب الى المشرق والدليل عليها ان الهلال يرى فى جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منه الى جانب الشرق حتى يرى القمر فى نصف الشهر فى مقابلة الشمس والشمس على افق المغرب والقمر على أفق المشرق وحركة اخرى حركة الاوج وحركة المائل والتدوير فى القمر ولولا الحركة التى من المغرب الى المشرق لما حصلت الفصول ثم اعلم ان أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ونحن نقول لا بعد فى ذلك ان لم يقولوا بالطبيعة فان الله تعالى فاعل مختار ان أراد أن يحركهما فى الفلك والفلك ساكن يجوز وان اراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر وسنذكر تمام البحث فى قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والارض والآخر تسخير الشمس والقمر لان الايجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات فخلق السموات والارض اشارة الى ايجاد الذوات وتسخير الشمس والقمر اشارة الى ايجاد الصفات وهى الحركة وغيرها فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ثم قال تعالى فأنى يؤفكون يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والارض ولا حقارة فوق حقارة الجماد لان الجماد دون الحيوان والحيوان دون الانسان والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات و يشتغلون بعبادات أخس الموجودات ﴿ ثم قال تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لان كمال الخلق ببقائه و بقاء الانسان بالرزق فقال المعبود اما ان يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الاصنام ليست كذلك والله مستحقها واما لكونه ولى الشأن والله الذى خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة واما لكونه ولى الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضا وقوله لمن يشاء اشارة الى كمال الاحسان وذلك لان الملك اذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئا فاذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة لان الآخذ يقول هذا ليس بارادته وانما هو بأمر الملك واما ان كان مختارا بأن يقال له الملك ان شئت فأعطه وان شئت فلا تعطه فان اعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة فقال الله تعالى الرزق منه و بمشيئته فهو احسان تام يستوجب شكرا تاما ﴿ وقوله تعالى (و يقدر له) أى يضيق له ان أراد ﴿ ثم قال تعالى (ان الله بكل شئ عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق وفى اثبات العلم ههنا لطائف (احدها) أن الرزاق الذى هو كامل المشيئة اذا رأى عبده محتاجا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق

ألفيتوني فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع أى مالاحد منكم من ناصر أصلا (فآمن له لوط) أى صدقه فى جميع مقالاته
لافى نبوته ومادعا اليه من التوحيد فقط فانه كان منزها عن الكفر وماقيل انه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى أن يحمل على
ماذكرنا وعلى أن يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى اليها الاهمم الافراد الكمل ولوط هو ابن اخيه عليهما السلام
(وقال انى مهاجر) أى من قومى * ٦٩١ * (الى ربى) الى حيث أمرنى ربى (انه هو العزيز) الغالب على أمره فيمنعنى
من اعدائى (الحكيم) الذى
لايفعل فعلا الا وفيه حكمة
ومصلحة فلا يأمرنى الا بما فيه
صلاحى روى أنه هاجر
من كوثى سواد الكوفة
مع لوط وسارة ابنة عمه الى
حران ثم منها الى الشام فنزل
فلسطين ونزل لوط سدوم
(ووهبنا له اسحق ويعقوب)
ولدا ونافلة حين ايس من
عجوز عاقر (وجعلنا فى ذريته
النبوة) فكثر منهم الانبياء
(والكتاب) أى جنس
الكتاب المتناول للكتب
الاربعة (آتيناه أجره)
بمقابلة هجرته الينا (فى الدنيا)
باعطاء الولد والذرية الطيبة
واستمرار النبوة فيهم وانتماء
أهل الملل اليه والثناء والصلاة
عليه الى آخر الدهر (وانه
فى الآخرة لمن الصالحين)
أى الكاملين فى الصلاح
(ولوطا) منصوب اما
بالعطف على نوحا او على
ابراهيم والكلام فى قوله
تعالى (اذ قال لقومه) كالذى
مر فى قصة ابراهيم عليه
السلام (انكم لتأتون
الفاحشة) أى الفعلة المتناهية
فى القبح وقرئ أئنكم
(ماسبقكم بها من أحد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فان اجماع جميع أفراد العالمين على التحاشى عنها ليس
الا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة أى بالفاحشة
حيث روى أنهم كانوا كثيرا مايفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن

ولايؤخر الرازق الرزق الالنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك اذا أراد الاطعام والطعام
لايكون بعد فقد استوى أولعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى أن الله باثبات العلم
استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفروهى أربعة الحياة
والقدرة والارادة والعلم واما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعا
لاكافرا وقد استوفى الاربع لان قوله خلق السموات والارض اشارة الى كمال القدرة
وقوله يبسط الرزق لمن يشاء اشارة الى نفوذ مشيئته وارادته وقوله ان الله بكل شئ عليم
اشارة الى شمول علمه والقادر المريد العالم لايتصور الاحيا ثم انه تعالى لما قال الله يبسط
الرزق ذكر اعترافهم بذلك * فقال (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من
بعد موتها ليقولن الله) يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من
الله * ثم قال تعالى (قل الحمد لله) وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون كلاما معترضا فى
اثناء كلام كأنه قال فأحيا به الارض من بعد موتها (بل أكثرهم لايعقلون) فذكر فى اثناء
هذا الكلام الحمد لذكر النعمة كما قال القائل

ان الثمانين وبلغتها * قد أحوجت سمعى الى ترجمان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاما متصلا وهو انهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون
ولا يعملون بما يعلمون وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون فقل الحمد لله وأكثرهم
لايعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد
انهم يقولون انه من الله ويقولون بالهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم
فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لايعقلون هذا التناقض او فساد هذا التناقض
* ثم قال تعالى (وماهذه الحيوة الدنيا الالهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان
لو كانوا يعلمون) لما بين انهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون
عبادته ولا يتركونها الالزينة الحياة الدنيا بين أن مايميلون اليه ليس بشئ بقوله وماهذه
الحياة الدنيا الالهو وفى الآية مسائل (الاولى) ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح
عطف أحدهما على الآخر فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) ان كل شغل يفرض
فان المكلف اذا اقبل عليه لزمه الاعراض عن غيره ومن لايشغله شان عن شان هو الله
تعالى فالذى يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال
على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو فالدنيا لعب أى اقبال على الباطل ولهو اى
اعراض عن الحق (الثانى) هو ان المشتغل بشئ يرجح ذلك الشئ على غيره لامحالة حتى
يشتغل به فاما ان يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك
الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية
فالاول لعب والثانى لهو والدليل عليه هو ان الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما
لاتسمى آلات الملاهى فى العرف والعود وغيره من الاوتار تسمى آلات الملاهى لانها

الحرث واتيان ما ليس بحرث وقيل تقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال (وتأتون فى ناديكم) أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم (المنكر) كالجماع والضراط وحل الازار وغيرها مما لاخير فيه من الافاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل (فما كان ۞ ٦٩٢ ۞ جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أى فما كان جوابا من جهتهم شئ من الاشياء الا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب وأما ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعد هذه المرة وهى المرة الاخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف (قال رب انصرنى) أى بانزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وانما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) أى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (انا مهلكو ۞ الى ۞ أهل هذه القرية) أى قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال (ان أهلها كانوا ظالمين) تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى

تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة وللبعض لهو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية (المسئلة الثانية) قال الله تعالى فى سورة الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه فنقول لان المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا حيث قال تعالى فأحيا به الارض من بعد موتها فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال وما الحياة الدنيا (المسئلة الثالثة) قال هناك الا لعب ولهو وقال ههنا الا لهو ولعب فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة واظهارهم للحسرة ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الابعد وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو (المسئلة الرابعة) قال هناك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان فنقول لما كان الحال هناك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى رادع قوى فقال الآخرة خير ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى رادع قوى فقال لا حياة الا حياة الآخرة وهذا كما أن العاقل اذا عرض عليه شيآن فقال فى أحدهما هذا خير من ذاك يكون هذا ترجيحا فحسب ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشئ يكون ترجيحا مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها (المسئلة الخامسة) قال هناك خير للذين يتقون ولم يقل ههنا الا لهى الحيوان لان الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقى عن الشرك واما الكافر فالدنيا جنته فهى خير له من الآخرة واما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم (المسئلة السادسة) كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيها مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية فكانه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وكانت هى محل الادراك التام الحق كما قال تعالى يوم تبلى السرائر أطلق عليها الاسم المستعمل فى النامى المدرك (المسئلة السابعة) قال فى سورة الانعام افلا تعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون وذلك لان المثبت هناك كون الآخرة خيرا وأنه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع ۞ ثم قال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) اشارة الى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا وبيان ذلك هو انهم اذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا

الى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا فاذا أنجاهم وارجاهم عادوا الى
ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا * ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف
يعلمون) وفيه وجهان (أحدهما) ان اللام لام كى أى يشركون ليكون اشراكهم
كفرا بنعمة الانجاء وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال
أملهم (والثانى) أن تكون اللام لام الامر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد كما قال
تعالى اعملوا ماشئتم وكما قال اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون فساد ما تعملون
* ثم قال تعالى (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم افبالباطل
يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) التفسير ظاهر وانما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها
فنقول الانسان فى البحر يكون على أخوف مايكون وفى بيته يكون على آمن مايكون
لاسيما اذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد
ورأوا أنفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الامن العظيم
وهى كونهم فى مكة فانها لمدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهى حصين
بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها والحصول فيها بدفع
الشرور عن النفوس ويكفها يعنى انكم فى أخوف ما كنتم دعوتم الله وفى آمن ما حصلتم عليه
كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم فى ذاك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان الا لقطعكم
بأن النعمة من الله لاغير فهذه النعمة العظيمة التى حصلت وقد اعترفتم بأنها لاتكون
الا من الله كيف تكفرون بها والاصنام التى قطعتم فى حال الخوف ان لا امن منها
كيف آمنتم بها فى حال الامن * ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب
بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) لما بين الله الامور على الوجه المذكور
ولم يؤمن به أحد بين انهم أظلم من يكون لان الظلم على مابين وضع الشئ فى غير موضعه
فاذا وضع واحد شيئا فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالما فاذا وضعه فى موضع لا يمكن أن
يكون ذلك موضعه يكون أظلم لان عدم الامكان أقوى من عدم الحصول لان كل مالا
يمكن لا يحصل وليس كل مالا يحصل لا يمكن فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا
له شريكا فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك لكان ظلما يستحق من الملك العقاب
الاليم فكيف اذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك وأيضا من كذب
صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله
فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله فى تصديق نبيه والنبى فى رسالة ربه
والقرآن المنزل من الله الى الرسول والعجب من المشركين انهم قبلوا المتخذ من خشب
منحوت بالالهية ولم يقبلوا اذا حسب منعوت مبعوث بالرسالة والآية تحتمل وجها
آخر وهو ان الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه
ليقول للناس ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أى انى جئت بالرسالة وقلت انها من الله

(قال ان فيها لوطا) فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله) ارادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام
فيها بل عمن لم يتعرض لها براهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم معتنون بشأنهم اتم اعتناء حسبما ينبئ عنه تصدير الوعد
بالتنجية بالقسم أى والله لننجينه وأهله (الا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب او القرية (ولما أن جاءت رسلنا
المذكورون بعد مفارقتهم لابراهيم عليه السلام (لوطا سىء بهم) اعتراه المساءة بسببهم مخافة أن يتعرض له قومه
بسوء وكلمة أن صلة لتأكيد ما
بين الفعلين من الاتصال
(وضاق بهم ذرعا) أى ضاق
بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه
أى طاقته كقولهم ضاقت يده
وبازائه رحب ذرعه بكذا اذا
كان مطيقا به قادرا عليه وذلك
أن طويل الذراع ينال مالا
يناله قصير الذراع (وقالوا)
ريثما شاهدوا فيه مخايل
التضجر من جهتهم وعاينوا
أنه قد عجز عن مدافعة قومه
بعد اللتيا والتى حتى آلت به
الحال الى أن قال لو أن لى بكم
قوة أو آوى الى ركن شديد
(لا تخف) اى من قومك علينا
(ولا تحزن) اى على شئ قيل
باهلاكنا اياهم (انا منجوك
وأهلك) مما يصيبهم من العذاب
(الا امرأتك كانت من الغابرين)
وقرئ لننجينك ومنجوك من
الانجاء وأياما كان فمحل الكاف
الجر على المختار ونصب أهلك
باضمار فعل او بالعطف على
محلها باعتبار الاصل (انا
منزلون على أهل هذه القرية
رجزا من السماء) استئناف
مسوق لبيان ما أشير اليه بوعد
التنجية من نزول العذاب
عليهم والرجز العذاب الذى
يقلق المعذب اى يزعجه من قولهم ارتجز اذا ارتجس واضطرب وقرئ منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم
المستمر (ولقد تركنا منها) اى من القرية (آية بينة) هى قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة فانها
كانت باقية بعدها وقيل الماء الاسود على وجه الارض

(القوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار وهو متعلق اما بتركنا او بينة (والى مدين أخاهم شعيبا) متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام أى وأرسلنا الى مدين شعيبا (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا اليوم الآخر) أى توقعوه وماسيقع فيه من فنون الاهوال وافعلوا اليوم من الاعمال ماتأمنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق اقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى الارض مفسدين ﴿٦٩٤﴾ فكذبوه فاخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تموجها للهواء ومايجاورها من الارض (فاصبحوا فى دارهم) أى بلدهم او منازلهم والافراد لامن اللبس (جاثمين) باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) منصوبان باضمار فعل ينبئ عنه ماقبله أى أهلكنا وقرئ ثمودا بتأويل الحى (وقد تبين لكم من مساكنهم) أى وقد ظهر لكم اهلا كنا اياهم من جهة مساكنهم بالنظر اليها عند اجتيازكم بها ذهابا الى الشام وايابا منه (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من فنون الكفر والمعاصى (فصدهم عن السبيل) السوى الموصل الى الحق (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك او متبينين أن العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا مالقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عادا قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم ﴿وتركوا﴾ سبق طالبه اذا فاته ولم يدركه ولقد أدركهم امر الله عز وجل اى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير لما ينبئ عنه عدم سبقهم بطريق الابهام

وهذا كلام الله وأنتم كذبتمونى فالحال دائر بين أمرين اما انا مفتر متنبئ ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق ان كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا اقدم على الافتراء لان جهنم مثوى للكافرين والمتنبئ كافر وأنتم كذبتمونى فجهنم مثوا كم اذهى مثوى للكافرين وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى وأنا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ❁ ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) لما فرغ من التقرير والتقريع واليأس من الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة وان الله لمع المحسنين اشارة الى ماقال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقوله لنهدينهم اشارة الى الحسنى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته وفيه وجه آخر حكمى وهو أن يكون المعنى والذين جاهدوا فينا أى الذين نظروا فى دلائلنا لنهدينهم سبلنا أى لتحصل فيهم العلم بنا ولنبين هذا فضل بيان فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا ان النظر كالشرط للعلم الاستدلالى والله خلق فى الناظر علما عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة واذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية وعلى هذا يكون الترتيب حسنا أيضا وذلك لان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال انهم لم ينظروا فلم يهتدوا وانما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيدا لايتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبا منه يعلم الاشياء منه ولا يعلمه من الاشياء ومن يكون مع الشئ كيف يطلبه فقوله ومن أظلم اشارة الى الاول وقوله والذين جاهدوا فينا اشارة الى الثانى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى الثالث والله أعلم باسرار كتابه والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين

(سورة الروم ستون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) وجه تعلق أول هذه السورة بماقبلها يتبين منه سبب النزول فنقول لما قال الله تعالى فى السورة المتقدمة ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وكان يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل كما فى قوله صم بكم عمى فهم لايعقلون وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الاله كما قال والهنا والهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أى أبغض المشركون أهل الكتاب

اى فكل واحد من المذكورين (اخذنا بذنبه) اى عاقبناه بجنايته لابعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا) تفصيل للاخذ اى ريحا عاصفا فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من اخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) كقارون (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح وفرعون وقومه (وماكان الله ليظلمهم) بمافعل بهم فان ذلك محال من

جهته تعالى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة مايوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) اى فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) فيما نسجته فى الوهن والخور بل ذلك اوهن من هذا لان له حقيقة وانتفاعا فى الجملة اومثلهم بالاضافة الى الموحد كمثله بالاضافة الى رجل بنى بيتا من حجر وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات وأما العكاب والعكب والاعكب فاسماء الجموع (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لايرى شئ يدانيه فى الوهن والوهى (لوكانوا يعلمون) اى شيأ من الاشياء لجزموا ان هذا مثلهم اوان دينهم اوهى من ذلك ويجوز ان يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقا للتمثيل فالمعنى وان اوهن مايعتمد به فى الدين دينهم (ان الله يعلم مايدعون من دونه من شئ) على اضمار القول اى قل للكفرة ان الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين اونافية ومن مزيدة وشئ مفعول يدعون اومصدرية وشئ عبارة عن المصدر اوموصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرئ تدعون بالتاء والكلام على الاولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل وعلى الاخيرين وعيد لهم (وهو العزيز الحكيم) تعليل على المعنيين فان اشراك مالايعد

وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الامور فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك فانزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لاتدل على الحق بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الاعادى وقد يختار تعجيلا لعذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل يوم الميعاد للمعادى وفى الآية مسائل (الاولى) ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجى فان فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما فى قوله تعالى الم ذلك الكتاب المص كتاب طه ما أنزلنا عليك القرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل من الرحمن الرحيم يس والقرآن ص والقرآن الا هذه السورة وسورتين اخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول مايتعلق بهذه السور وهو ان السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى أوائلها ذكر ماهو معجزة فقدمت عليها الحروف على ماتقدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى اولها ماهو معجزة وهو الاخبار عن الغيب فقدمت الحروف التى لايعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الاسماع (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى أدنى الارض أى أرض العرب لان الالف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم * وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة فى ذكره مع أن قوله (سيغلبون) بعد قوله غلبت الروم لايكون الا من بعد الغلبة فنقول الفائدة فيه اظهار القدرة وبيان أن ذلك بامر الله لان من غلب بعد غلبه لايكون الا ضعيفا فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا دل على أن ذلك بأمر الله فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا انه ليس بزحفهم وانما ذلك بأمر الله تعالى وقوله فى أدنى الارض لبيان شدة ضعفهم أى انتهى ضعفهم الى أن وصل عدوهم الى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا الى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى (فى بضع سنين) قيل هى مابين الثلاثة والعشرة أبهم الوقت مع أن المعجزة فى تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن فى اظهارها لان الكفار كانوا معاندين والامور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لايمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر ابو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وانكره أبى بن خلف وغيره وناحبوا أبابكر أى خاطروه على عشرة قلائص الى ثلاث سنين فقال عليه السلام لابد بكر البضع مابين الثلاثة والعشرة فزايده فى الابل وماده فى الاجل فجعلا القلائص مائة والاجل سبعا وهذا يدل على علم النبى عليه السلام بوقت الغلبة * ثم

شيأ بعن هذا شأنه من فرط الغباوة وان الجماد بالنسبة الى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت وان من هذه

صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الامثال) اى هذا المثل وامثاله (نضربها للناس) تقريبا لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) على ماهى عليه من الحسن واستتباع الفوائد (الا العالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الاشياء على ماينبغى وعنه عليه الصلاة والسلام انه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والارض بالحق) اى محقا مراعيا للحكم والمصالح على انه حال من فاعل خلق اوملتبسة بالحق الذى لامحيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على انه حال من مفعوله فانها مع اشتمالها على جميع مايتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى ان فى ذلك لاية للمؤمنين) دالة لهم على ماذكر من شؤنه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لانهم المنتفعون ﴿ الف ﴾ بذلك (اتل ما اوحى اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءته وتذكر الما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الاحكام ومحاسن الآداب

قال تعالى (لله الامر من قبل ومن بعد) أى من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها يعنى ان أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وان أراد غلبهم غلبهم بعدها وما قدر هذه المدة لعجز وانما هى ارادة نافذة وبنيا على الضم لما قطعا عن الاضافة لان غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر اما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده واما الجر ففى قولك من قبله ومن بعده فبنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون ﴾ قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم والاصح انهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لان غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لان فى ذلك اليوم بعينه لم يصل اليهم خبر الكسرة فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده ﴿ ثم قال تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال بنصر الله ينصر وقدم الفعل على المصدر فى قوله وايدك بنصره وذلك لان المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله ان أراد نصر وان لم يرد لا ينصر وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك اظهار النعمة عليه بأنه نصره فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ثم بين ان ذلك الفعل مصدره عند الله والمقصود ههنا كون المصدر عند الله ان أراد فعل فقدم المصدر ﴿ ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من اسمائه هذين الاسمين لانه ان لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره وأن نصر المحب فذلك لرحمته أو نقول ان نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب وان لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة اليه ﴿ ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعدا ووعد الله لا خلف فيه ﴿ قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وانه لا خلف فى وعده ﴿ ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأيضا لا يعلمون الدنيا كما هى وانما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم والا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى فاذا قال هو شغلنى فلان فيقول ماشغلك ولكن انت اشتغلت ﴿ ثم قال تعالى (أولم يتفكروا فى أنفسهم) لما صدر من الكفار الانكار بالله عند انكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون والانكار بالحشر كما قال تعالى وهم عن الآخرة هم غافلون بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله والا فأسباب التذكر حاصلة وهو انفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر اما الوحدانية فلان الله خلقهم على احسن تقويم ولقد كرمن حسن خلقهم جزأ من الف

كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة

ومكارم الاخلاق (وأقم الصلوة) أى داوم على اقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة ... (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) كأنه قيل
أمره عليه الصلاة والسلام باقامتها متضمنا لامر الامة بها علل بقوله تعالى (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) كأنه قيل
وصل بهم ان الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لانها مناجاة لله تعالى فلا بد
أن تكون مع اقبال تام على طاعته واعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى

عنهما فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه أن فتى من الانصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيئا من الفواحش الا ارتكبه فوصف له عليه الصلاة والسلام حاله فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب وحسن حاله (ولذكر الله أكبر) أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به كما فى قوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله للايذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيآت وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته (والله يعلم ما تصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا

تجادلوا أهل الكتاب) من اليهود والنصارى (الا بالتى هى أحسن) أى بالخصلة التى هى أحسن
كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالاناة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدى الى
اعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (الا الذين

أف جزء وهو ان الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به اعضاؤه ولها
منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فاذا دخل الطعام فيها
انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح وتمسكه الماسكة
الى أن ينضج نضجا صالحا ثم يخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عروقا دقاقا
صلابا كالمصفاة التى يصفى بها الشئ فينزل منها الصافى الى الكبد وينصب الثفل الى
معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجها الى الخروج وما يدخل فى الكبد من العروق
المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية والعبرية عربية مفسودة فى الاكثر يقال لموسى
ميشا وللاله ايل الى غير ذلك فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليه الكبد وانضجه
نضجا آخر ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق
وينذرق فى العروق الدقاق المذكورة وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك
الماء وينصب من جانب حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها
ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ثم يتشعب ذلك النهر الى جد اول
والجداول الى سواق والسواقى الى رواضع ويصل فيها الى جميع البدن فهذه حكمة
واحدة فى خلق الانسان وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما
شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحدا والا لكان عاجزا عند ارادة شريكه ضد
ما أراده واما دلالة الانسان على الحشر فذلك لانه اذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة الى
الزوال واجزاءه مائلة الى الانحلال فله فناء ضرورى فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه
على هذا الوجه للفناء عبثا واليه اشار بقوله افحسبتم أنما خلقناكم عبثا وهذا ظاهر لان
من يفعل شيئا للعبث فلو بالغ فى احكامه واتقانه يضحك منه فاذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون
اللقاء فالآخرة لا بد منها ثم انه تعالى ذكر بعد دليل الانفس دليل الآفاق فقال (ما خلق
الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى) فقوله الا بالحق اشارة الى وجه
دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك فى قوله خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك
لآية للمؤمنين ونعيده فان التكرير فى الذهن يفيد التقرير لذى الذهن فنقول اذا
كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لان كل فاسد باطل واذا لم يكن فيها
فساد لا تكون آلهة والا لكان فيها فساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا
وقوله وأجل مسمى يذكر بالاصل الآخر الذى انكروه * ثم قال تعالى (وان كثيرا
من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لا يعلمون انه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء
اما فى اسعاد واشقاء وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم ههنا دلائل الانفس على
دلائل الآفاق وفى قوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم قدم دلائل الآفاق
وذلك لان المفيد اذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فان فهمه السامع المستفيد
فذاك والا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة واما المستفيد فانه يفهم اولا

...بالافراط فى الاعتداء والعناد أو باثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم (وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا) من القرآن (وأنزل اليكم) أى وبالذى أنزل اليكم من التوراة والانجيل وقد مر تحقيق كيفية الايمان بهما فى خاتمة سورة البقرة وعن النبى عليه الصلاة والسلام لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم (والهنا والهكم واحد) لاشريك له فى الالوهية (ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله (وكذلك) تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل أى مثل ذلك الانزال البديع الموافق لانزال سائر الكتب (أنزلنا اليك الكتاب) أى القرآن الذى من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا فى كتابيهما وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بان من بعدهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) أى ومن العرب أو أهل مكة على الاول أو ممن فى عصره عليه الصلاة والسلام على الثانى (من يؤمن به) أى بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون

الابين ثم يرتقى الى فهم ذلك الاخفى الذى لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الابين المذكور آخرا فالمذكور من المفيد آخرا مفهوم عند السامع أولا اذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبا الى السامع حيث قال أولم يتفكروا فى أنفسهم يعنى فيما فهموه أولا ولم يرتقوا الى ما فهموه ثانيا واما فى قوله سنريهم الامر منسوب الى المفيد المسمع فذكر أولا الآفاق فان لم يفهموه فالانفس لان دلائل الانفس لاذهول للانسان عنها وهذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم أى يعلمون الله بدلائل الانفس فى سائر الاحوال ويتفكرون فى خلق السموات والارض بدلائل الآفاق (المسئلة الثانية) وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر واما وجه دلالته على الحشر فكيف هو فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لايعلم بالعقل الا امكانه واما وقوعه فلا يعلم الا بالسمع لان الله قادر على ابقاء الحادث أبدا كما انه يبقى الجنة والنار بعد احداثهما أبدا والخلق دليل امكان العدم لان المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم واذا أخبر الصادق عن أمر له امكان وجب على العاقل التصديق والاذعان ولان العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لان هذه الحياة ليست الا لعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وخلق السموات والارض للهو واللعب عبث والعبث ليس بحق وخلق السموات والارض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه (المسئلة الثالثة) قال ههنا كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس وذلك لان من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولاشك فى أن الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدلائل لابد من أن يؤمن من ذلك الاكثر جمع فلا يبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقبله ولكن أكثرهم ثم بعد الدليل الذى لايمكن الذهول عنه والدليل الذى لايقع الذهول عنه وان أمكن هو السموات والارض لان من البعيد أن يذهل الانسان عن السماء التى فوقه والارض التى تحته ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر امثالهم وحكاية اشكالهم ☼ فقال تعا (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقال فى الدليلين المتقدمين أولم يروا ولم يقل أولم يسيروا اذ لاحاجة هناك الى السير بحضور النفس والسماء والارض وقال ههنا اولم يسيروا فينظروا ذكرهم بحال أمثالهم ووبال اشكالهم ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لان من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم ينفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم واعلم ان اعتماد الانسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو فى أعوانه اذبها المباشرة وقوة مالية اذبها التأهب للمباشرة وقوة ظهرية يستند اليها عند الضعف والفتور وهى بالحصون ☼

العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحدبها (الاالكافرون) المتوغلون فى الكفر المصممون عليه قال ذلك
التأمل فيما يؤديهم الى معرفة حقيقتها وقيل هم كعب بن الاشرف وأصحابه (وما كنت تتلوا من قبله) أى ما كنت قبل انزلنا
اليك الكتاب تقدر على أن تتلوا شيأ (من كتاب ولاتخطه) أى ولاتقدر على أن تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد أوما كانت
عادتك أن تتلوه ولاأن تخطه (اذا الارتاب المبطلون) أى لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما
لارتابوا وقالوا لعله التقطه
من كتب الاوائل وحيث
لم تكن كذلك لم يبق فى شأنك
منشأ ريب أصلا وتسميتهم
مبطلين فى ارتيابهم على
التقدير المفروض لكونهم
مبطلين فى اتباعهم للاحتمال
المذكور مع ظهور نزاهته
عليه الصلاة والسلام عن
ذلك (بل هو) أى القرآن
(آيات بينات) واضحات
ثابتة راسخة (فى صدور
الذين أوتوا العلم) من غير
أن يلتقط من كتاب يحفظونه
بحيث لا يقدر أحد على
تحريفه (وما يجحد بآياتنا)
مع كونها كما ذكر (الا الظالمون)
المتجاوزون للحدود فى الشر
والمكابرة والفساد (وقالوا
لولا أنزل عليه آيات من ربه
مثل ناقة صالح وعصا موسى
ومائدة عيسى عليهم السلام
وقرئ آية (قل انما الآيات
عند الله) ينزلها حسبما يشاء
من غير دخل لاحد فى ذلك
قطعا (وانما انا نذير مبين)
ليس من شأنى الا الانذار
بما أوتيت من الآيات (أولم
يكفهم) كلام مستأنف وارد
من جهته تعالى ردا على
اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقصر ولم يكفهم اية مغنية
عن سائر الآيات (انا انزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها
وممارستها (يتلى عليهم) فى كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لاتزول ولاتضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون فى مكان

بالحصون والعمائر فقال تعالى كانوا أشد منهم قوة فى الجسم وأكثر منهم مالا لانهم أثاروا
الارض أى حرثوها ومنه بقرة تثير الارض وقيل منه سمى ثورا وأنتم لاحراثة لكم فالهم
كانت اكثر وعمارتهم كانت أكثر لان أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة وعمارة أهل
مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم فلما كذبوا أهلكوا
فكيف أنتم وقوله فما كان الله ليظلمهم يعنى لم يظلمهم بالتكليف فان التكليف شريف
لايؤثره الامحل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها فى موضع خسيس وهو عبادة
الاصنام واتباع ابليس فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح لانه تعالى
قال خلقتكم لتربحوا على لالاربح عليكم والوضع فى موضع كان الخلق له ليس بظلم
واما هم فوضعوا أنفسهم فى مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا الا للربح فهم كانوا ظالمين
وهذا الكلام منا وان كان فى الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله
أهل السنة وهو ان هذا الوضع كان بمشيئة الله وارادته لكنه كان منهم ومضافا اليهم*
ثم قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن)
كما قال الذين أحسنوا الحسنى وقوله تعالى ان كذبوا قيل معناه بأن كذبوا أى كان عاقبتهم
ذلك بسبب انهم كذبوا وقيل معناه أساؤا او كذبوا فكذبوا يكون تفسيرا لاساؤا وفى هذه
الآية لطائف (احداها) قال فى حق الذين أحسنوا للذين أحسنوا الحسنى وقال فى حق
من أساء ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى اشارة الى أن الجنة لهم من ابتداء الامر فان
الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار فاذا كانت الجنة لهم من الابتداء ومن له شئ
كلما يزداد وينمو فيه فهو له لان ملك الاصل يوجب ملك الثمرة فالجنة من حيث خلقت
تربو وتنمو للمحسنين واما الذين أساؤا فالسوأى وهى جهنم فى العاقبة مصيرهم اليها
(الثانية) ذكر الزيادة فى حق المحسن ولم يذكر الزيادة فى حق المسئ لان جزاء سيئة سيئة
مثلها (الثالثة) لم يذكر فى المحسن أن له الحسنى بأنه صدق وذكر فى المسئ أن له السوأى
بأنه كذب لان الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لولم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ وأما
السوأى للمسئ عدل والعادل اذا لم يكن تعذيبه لسبب لايكون عدلا فذكر السبب
فى التعذيب وهو الاصرار على التكذيب ولم يذكر السبب فى الثواب * ثم قال تعالى
(الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) لما ذكر أن عاقبتهم الى الجحيم وكان فى ذلك
اشارة الى الاعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدؤ الخلق يعنى من خلق بالقدرة
والارادة لايعجز عن الرجعة والاعادة فاليه ترجعون ثم بين ما يكون وقت الرجوع اليه
* فقال (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا
بشركائهم كافرين) فى ذلك اليوم يتبين افلاسهم ويتحقق ابلاسهم والابلاس يأس مع
حيرة يعنى يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لايأس هو احدى الراحتين وهذا
لان الطمع اذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو أمرا غير ضرورى يستريح الطامع من

[illegible] على اليهود بتحقيق مافى أيديهم من نعتك ونعت دينك (ان فى ذلك) الكتاب العظيم الشان الباقى على مر
الدهور (لرحمة) أى نعمة عظيمة (وذكرى) أى تذكرة (لقوم يؤمنون) أى لقوم همهم الايمان لا التعنت كأولئك المقترحين
وقيل ان ناسا من المؤمنين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف فيها بعض مايقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم
أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم الى ماجاء به غير نبيهم فنزلت (قل كفى بالله ﴿٧٠٠﴾ بينى و بينكم شهيدا) بما صدر عنى وعنكم
(يعلم مافى السموات والارض)
أى من الامور التى من جملتها
شانى وشأنكم فهو تقرير لما
قبله من كفايته تعالى شهيدا
(والذين آمنوا بالباطل)
وهو ما يعبد من دون الله
تعالى (وكفروا بالله) مع
تعاضد موجبات الايمان
به (اولئك هم الخاسرون)
المغبونون فى صفقتهم حيث
اشتروا الكفر بالايمان بأن
ضيعوا الفطرة الاصلية
والادلة السمعية الموجبة
للايمان والآية من قبيل
المجادلة بالتى هى أحسن
حيث لم يصرح بنسبة الايمان
بالباطل والكفر بالله والخسران
اليهم بل ذكر على منهاج
الابهام كما فى قوله تعالى وانا
او اياكم لعلى هدى أو فى ضلال
مبين (ويستعجلونك بالعذاب)
على طريقة الاستهزاء بقولهم
متى هذا الوعد وقولهم
امطر علينا حجارة من
السماء أو ائتنا بعذاب ونحو
ذلك (ولولا أجل مسمى)
قد ضربه الله تعالى لعذابهم
وبينه فى اللوح (لجاءهم
العذاب) المعين لهم حسبما
استعجلوا به قيل المراد بالاجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه ﴿يصدر﴾
بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما انهم
ماكانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبينة لما أشير اليه فى الجملة السابقة
من مجئ العذاب عند محل الاجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند

الانتظار وان كان ضروريا لابقاء له بدونه ينفطر فؤاده اشد انفطار ومثل هذا اليأس
هو الابلاس ولنبين حال المجرم وابلاسه بمثال وهو ان نقول مثله مثل من يكون فى بستان
وحواليه الملاعب والملاهى * ولديه مايفتخر به ويباهى * فيخبره صادق بمجئ عدو
لايرده راد * ولايصده صاد * اذا جاءه لايبقيه ريقا * ولايترك له الى الخلاص طريقا *
فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون ان هذه الشجرة
التى أنت تحتها لها من الخواص دفع الاعادى عمن يكون تحتها فيقبل ذلك الغافل على
استيفاء ملاذه معتمدا على الشجرة بقول ذلك الصبى فيجيئه العدو ويحيط به فأول مايريه
من الاهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا * مفتقرا بائسا * فكذلك المجرم فى دار
الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبى الصادق بان الله يجزيه * ويأتيه عذاب
يخزيه * فقال له الشيطان والنفس الامارة بالسوء ان هذه الاخشاب التى هى الاوثان
دافعة عنك كل باس * وشافعة لك عند خمود الحواس * فاشتغل بما هو فيه واستمر على
غيه حتى اذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته القاء الاصنام فى النار فلا يجد الى
الخلاص من طريق * ويحيق عليه عذاب الحريق * فييأس حينئذ أى اياس *
ويبلس أشد ابلاس * واليه الاشارة بقوله تعالى ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا
بشركائهم كافرين يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم * ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة
يومئذ يتفرقون) ثم بين أمرا آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية
أخرى وامتازوا اليوم أيها المجرمون فكأن هذه الحالة مترتبة على الابلاس فكأنه
أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأعاد قوله ويوم تقوم الساعة
لان قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدا للتخويف ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم
القيامة فى الخطب لتذكير أهواله * ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى (فاما الذين آمنوا
وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فى جنة يسرون بكل مسرة (واما الذين كفروا
وكذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة فأولئك فى العذاب محضرون) يعنى لاغيبة لهم عنه
ولافتور له عنهم كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقال لايفتر عنهم
العذاب وفى الآيتين مسائل فيها لطائف (المسئلة الاولى) بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع
أن الموضع موضع ذكر المجرمين وذلك لان المؤمن يوصل اليه الثواب قبل أن يوصل الى
الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل الى الثواب فيكون انكى ولو أدخل
الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون فقدم ذلك زيادة فى ايلامهم
(المسئلة الثانية) ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السئ لان
العمل الصالح معتبر مع الايمان فان الايمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا
يبلغ المؤمن الدرجة العالية الا بايمانه وعمله الصالح وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد
كفره فلو قال والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون لكان العذاب لن

حلول الاجل (بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون) أى باتيانه ولعل المراد باتيانه كذلك انه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم
والاجابة الى مسؤلهم فان ذلك اتيان برأيهم وشعورهم لانه يأتيهم وهم غارون امنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض
العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون أوضحى وهم يلعبون لما أن اتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس
من هذا القبيل (يستعجلونك بالعذاب * ٧٠١ * وان جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم
وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم وانما جئ بالجملة الاسمية دلالة على تحقيق الاحاطة واستمرارها أو تنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فان الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل ان الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقدمر تفصيله فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق ولام الكافرين اما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للاشعار بعلة الحكم والجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال و الاهوال
مالا يفى به المقال وقيل ظرف للاحاطة (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى من جميع جهاتهم (ويقول) أى الله عزوجل
و يعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره (ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا
على الاستمرار

يصدر منه المجموع فان قيل فريؤمن و يعمل السيآت غير مذكور فى القسمين فنقول
له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة بل هو فى الاول فى العذاب ولكن ليس من
المحضرين دوام الحضور وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية
الحبور كل ذلك بحكم الوعد (المسئلة الثالثة) قال فى الاول فى روضة على التنكير
وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف لتعظيم الروضة بالتنكير كما يقال لفلان
مال وجاه أى كثير وعظيم (المسئلة الرابعة) قال فى الاول يحبرون بصيغة الفعل ولم يقل
محبورون وقال فى الآخر محضرون بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون لان الفعل ينبئ عن
التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله يحبرون يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به واما
الكفار فهم اذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين * ثم قال تعالى (فسبحان الله حين
تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج
الحى من الميت و يخرج الميت من الحى و يحيى الارض بعد موتها و كذلك تخرجون) لما
بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله ماخلق الله السموات والارض وما بينهما الا
بالحق وعظمته فى الانتهاء وهو حين تقوم الساعة و يفترق الناس فريقين و يحكم على
البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى أمر بتنزيهه عن كل سوء
و بحمده على كل حال فقال فسبحان الله أى سبحوا الله تسبيحا وفى الآية مسائل
(المسئلة الاولى) فى معنى سبحان الله ولفظه اما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذى هو
التسبيح سمى التسبيح بسبحان وجعل علما له واما المعنى فقال بعض المفسرين المراد منه
الصلاة أى صلوا وذكروا انه اشار الى الصلوات الخمس وقال بعضهم أراد به التنزيه
أى نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال وهذا أقوى والمصير اليه أولى
لانه يتضمن الاول وذلك لان التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد
الجازم و باللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن و بالاركان معهما جميعا وهو العمل الصالح
والاول هو الاصل والثانى ثمرة الاول والثالث ثمرة الثانى وذلك لان الانسان اذا اعتقد
شيأ ظهر من قلبه على لسانه واذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحواله وافعاله واللسان
ترجمان الجنان والاركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الاركان وهى
مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان وهو تنزيه فى التحقيق فاذا قال نزهونى وهذا
نوع من أنواع التنزيه والامر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ماهو
تنزيه فيكون أيضا هذا أمرا بالصلاة ثم ان قولنا يناسب ما تقدم وذلك لان الله تعالى لما
بين أن المقام الاعلى والجزاء الاوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال فاما الذين
آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون قال اذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل
الصالحات والايمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الاركان
والكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل الى الحبور فى

من السيئات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب (ياعباد الذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذى لايتمكنون من اقامة أمور الدين كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة وارشاد لهم الى الطريق الاسلم (ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) أى اذا لم يتسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم اظهار دينكم فهاجروا الى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ❋ ٧٠٢ ❋ ابراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف اذا المعنى ان أرضى واسعة ان لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) جملة مستأنفة جئ بها حثا على المسارعة فى الامتثال بالامر أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة الى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرئ يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) أى علالى وهو مفعول ثانى للتبوئة وقرئ لنثوينهم من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب غرفا حينئذ اما باجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف الموقت بالمبهم كما فى قوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم (تجرى من تحتها الانهار) صفة لغرفا (خالدين فيها) أى فى الغرف أو فى الجنة (نعم أجر العاملين) أى الاعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه وقرئ فنعم (الذين صبروا) اما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون)

الرياض والحضور على الحياض (المسئلة الثانية) خص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح وذلك لان أفضل الاعمال أدومها لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى يسبحون الليل والنهار لايفترون والانسان مادام فى الدنيا لايمكنه أن يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لكونه محتاجا الى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى الى أوقات اذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الاول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى أول الليل ووسطه ولم يأمر بالتسبيح فى آخر الليل لان النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال ومن آياته منامكم بالليل فاذا صلى فى أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين الى التسبيح ثم اذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات واذا صلى أربعا فى أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة الى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى مابين نصف الليل وثلثه لان ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات ومابينهما السبع وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيرا واليه اشار تعالى بقوله قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه وزيادة القليل على النصف هى ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة الى النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيقول الله عبدى صرف جميع أوقات تكليفه فى تسبيحى فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التى ادعيتم بقولكم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم فى أعلى عليين واعلم ان فى وضع الصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة أما فى عدد الركعات فما تقدم من كون الانسان يقظان فى سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة وأما على مذهب أبى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى فنقول هو مأخوذ من أن الانسان ينبغى أن يقلل نومه فلا ينام الا ثلث الليل مأخوذا من قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ويفهم من هذا ان قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ذكر بلفظ التوبة واذا كان كذلك يكون الانسان يقظان فى عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة وأما النبى عليه السلام فلما كان من شأنه ان لاينام أصلا كما قال تنام عيناى ولا ينام قلبى جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به والى هذا أشار تعالى فى قوله ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو فى أربع وعشرين ساعة مسبحا فصار من الذين لايفترون طرفة عين وأما فى أوقاته فما تقدم أيضا ان الاول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح فى أول النهار وآخره وأما الليل فاعتبر أوله

اى ولم يتوكلوا فيما يأتون و يذرون الا على الله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) روى أن النبي عليه الصلاة والسلام لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة الى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وانما تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها واياكم) ثم انها مع ضعفها وتوكلها واياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها واياكم الا الله

تعالى لان رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة (وهو السميع) المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) المبالغ فى العلم فيعلم ضمائركم (ولئن سألتهم) أى أهل مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) اذ لا سبيل لهم الى انكاره ولا الى التردد فيه (فأنى يؤفكون) انكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالى فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسط له (من عباده ويقدر له) أى يقدر لمن يشاء أن يقدر له منهم كائنا من كان على أن الضمير مبهم حسب ابهام مرجعه أو يقدر لمن يبسط له على التعاقب (ان الله بكل شئ عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له او فيعلم ان كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله) معترفين بانه الموجد للممكنات باسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شئ ما أصلا (قل الحمد لله) على

ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه وذلك لان الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لانا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الانسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة الى الرابعة والخامسة ليكون فى وسط الليل المعتبر كما أن الظهر فى وسط النهار وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهارا ونومه انتباها قال لولا ان أشق على أمتى لامرتهم بالسواك وتأخير العشاء الى نصف الليل ليكون الاربع فى نصف الليل كما كان الاربع فى نصف النهار وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى أول الليل و يؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى أوله ركعة لان سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل لان المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس (المسئلة الثالثة) فى فضيلة السبحلة والحمدلة فى المساء والصباح ولنذكرها من حيث النقل والعقل أما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لبعض اصحابه أتعجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة فتوقف فقال النبي عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة وسمعته يقول رحمه الله مسندا من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الحمد لله وعشر مرات الله أكبر أدخل الجنة وأما العقل فهو ان الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله أما الاول فهى صفات كمال وجلال خلافها نقص فاذا أدرك المكلف الله بانه لا يجوز أن يخفى عليه شئ لكونه عالما بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده واذا عرفه بانه لا يعجز عن شئ لكونه قادرا على كل شئ فقد نزهه عن العجز واذا علم انه لا يجرى فى ملكه الا ما يشاء لكونه مريد الكل كائن فقد وصفه ونزهه واذا ظهر له انه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه واذا بان له انه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه واذا لاح له انه لا يجوز أن يكون عرضا أو جسما أو فى مكان لكونه واجبا بريئا عن جهات الامكان فقد نزهه لكن صفاته السلبية والاضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لافنى فيه عمره ولا يدرك كنهها فاذا قال قائل مستحضرا بقلبه سبحان الله متنبها لما يقوله من كونه منزها له عن كل نقص فاتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الاجمال يقوم مقام اتيانه به على سبيل التفصيل لكن لاريب فى ان من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفى به الاعمار فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فاجازيه بما أطهره عن

ان جعل الحق بحيث لايجترئ المبطلون على جحوده وانه أظهر حجتك عليهم وقيل على ان عصمك من أمثال هذه الضلالات ولايخفى بعده (بل أكثرهم لايعقلون) أى شيئا من الاشياء فلذلك لايعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لايعقلون ماتريد بتحميدك عند مقالهم ذلك (وماهذه الحيوة الدنيا) اشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لاوقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء

(الالهوولعب) أى الا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه و يبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى لهى دار الحياة الحقيقة لامتناع طريان الموت والفناء عليها أوهى فى ذاتها حيا للمبالغة والحيوان مصدر حيى سمى به ذوالحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا لمافى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة (لوكانوا يعلمون) أى لما آثروا عليها الدنيا التى أصلها عدم الحياة ثم مايحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال (فاذا ركبوا فى الفلك) متصل بمادل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشئ المتحرك وهومتعد بنفسه كما فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفى أمثاله بكلمة فى للايذان بان المركوب فى نفسه من قبيل الامكنة وحركته قسرية غير ارادية كما مر فى سورة هود والمعنى انهم

كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لاانتهاء لها وكما أن العبد ينزه الله فى أول النهار وآخره ووسطه فان الله تعالى يطهره فى أوله وهو دنياه وفى آخره وهو عقباه ❁ وفى وسطه وهو حالة كونه فى قبره الذى يحو به الى أوان حشره وهو مغناه ❁ وأما الثانية وهو صفات الفعل فالانسان اذانظر الى خلق الله السموات يعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله فاذا رأى الشمس فبهابازغة فيعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله وكذلك القمر وكل كوكب والارض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله لكن الانسان لوحمد الله على كل شئ على حدة لايفى عمره به فاذا استحضر فى ذهنه النعم التى لاتعد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها و يقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الاجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل و يقول عبدى استغرق عمره فى حمدى وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم ان الانسان اذا استغرق فى صفات الله قد يدعوه عقله الى التفكر فى الله تعالى بعد التفكر فى آلاء الله فكل مايقع فى عقله من حقيقته فينبغى أن يقول الله أكبر مما أدركه لان المدركات وجهات الادراكات لانهاية لها فان أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذى أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركه من وجه آخر يفنى عمره ولايفى بادراك جميع الوجوه التى يظن الظان انه مدرك لله بذلك الوجه فاذا قال مع نفسه الله أكبر أى من كل ما أتصوره بقوة عقلى وطاقة ادراكى يكون متوغلا فى العرفان واليه الاشارة بقوله العجز عن درك الادراك ادراك فقول القائل المستيقظ سبحان الله والحمد لله والله أكبر مفيد لهذه الفوائد لكن شرطه أن يكون كلاما معتبرا وهو الذى يكون من صميم القلب لاالذى يكون من طرف اللسان (المسئلة الرابعة) قوله وعشيا عطف على حين أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وقوله وله الحمد فى السموات والارض كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو ان الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله اذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان (المسئلة الخامسة) قدم الامساء على الاصباح ههنا وأخره فى قوله وسبحوه بكرة وأصيلا وذلك لان ههنا أول الكلام ذكر الحشر والاعادة من قوله الله يبدأ الخلق ثم يعيده الى قوله فأولئك فى العذاب محضرون وآخر هذه الآية أيضا ذكر الحشر والاعادة بقوله وكذلك تخرجون والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة (المسئلة السادسة) فى تعلق اخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو ان عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة الى النوم واختلف المفسرون فى قوله يخرج الحى من الميت فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة

على ماوصفوا من الاشراك فاذا ركبوا فى البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) اى كائنين على صورة المخلصين لدينهم
من المؤمنين حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم الا هو (فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) أى فاجؤا
المعاودة الى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى يفاجؤن الاشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الانجاء التى حقها
أن يشكروها (فسوف يعلمون) أى عاقبة ذلك وغائلته ﴿ ٧٠٥ ﴾ حين يرون العذاب (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا
(أنا جعلنا) أى بلدهم (حرما آمنا) مصونا من النهب والتعدى سالما أهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) أى أبعد ظهور الحق الذى لا ريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لاظهار كمال شناعة مافعلوا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان زعم أن له شريكا أى هو أظلم من ظالم وان كان سبك النظم دالا على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (أو كذب بالحق لما جاءه) أى بالرسول وبالقرآن وفى لما تسفيه لهم بأنهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا الى التكذيب آثر ذى أثير (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال ﴿ ألستم خير من ركب المطايا ﴾ أى
ألا يستوجبون الثواء فيها وقد ﴿ ٨٩ ﴾ س فعلوا مافعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو انكار
واستبعاد لاجترائهم على ماذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى
اجترؤا هذه الجراءة

والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ويمكن ان يقال المراد يخرج الحى من الميت أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى احياء الميت عنده واماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المنتبه ثم قال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وفى هذا معنى لطيف وهو ان الانسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والارض الميتة لا يكون فيها نماء ثم ان النائم بالانتباه يتحرك ويحس والارض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وانماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك احياء الميت سهل عليه والى هذا أشار بقوله وكذلك تخرجون * ثم قال تعالى (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الاسواء وذكر ان الحمد له على خلق جميع الاشياء وبين قدرته على الاماتة والاحيا بقوله فسبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ذكر ماهو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الانسان من تراب وتقريره هو ان التراب أبعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التى بها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والى خلف والى قدام والى فوق والى اسفل وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات التى ينبت فى الارض ولا يبزر ولا يرتفع ثم النبات واعلى مراتبها وهى مرتبة الاشجار التى تقبل التعظيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والبيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولا هى الى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الانعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعى ثم الانسان وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو فى أعلى المراتب لا يكون الا منزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد على انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة وفى الآية لطيفتان (احدهما) قوله اذا وهى للمفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة

(والذين جاهدوا فينا) اى فى شأننا ولوجهنا خالصا اطلق المجاهدة ليعم جهاد الاعادى الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا)
سبل السير الينا والوصول الى جنابنا أولنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم
هدى وفى الحديث من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم (وان الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة * عنه عليه الصلاة والسلام
من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات ✻ ٧٠٦ ✻ بعدد كل المؤمنين والمنافقين * (سورة الروم مكية الاقوله

فسبحان الله الآية وهى
ستون أوتسع وخمسون آية) *
* (بسم الله الرحمن الرحيم) *
(الم) الكلام فيه كالذى مرفى
أمثاله من الفواتح الكريمة
(غلبت الروم فى أدنى الارض)
أى أدنى ارض العرب منهم
أذهى الارض المعهودة
عندهم وهى أطراف الشام
أوفى أدنى أرضهم من العرب
على أن اللام عوض عن
المضاف اليه قال مجاهدهى
أرض الجزيرة وهى أدنى
أرض الروم الى فارس وعن
ابن عباس رضى الله تعالى
عنهما الاردن وفلسطين
وقرئ أدانى الارض (وهم)
أى الروم (من بعد غلبهم)
أى من بعد مغلوبيتهم وقرئ
بسكون اللام وهى لغة كالجلب
والجلب (سيغلبون) أى سيغلبون
فارس (فى بضع سنين) روى
أن فارس غزوا الروم فوافوهم
بأذرعات وبصرى وقيل
بالجزيرة كاصر فغلبوا عليهم
وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون
وشمتوا بالمسلمين وقالوا أنتم
والنصارى أهل كتاب ونحن
وفارس أميون وقد ظهر
اخواننا على اخوانكم
فلنظهرن عليكم فقال أبو بكر رضى الله عنه لايقرر الله أعينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد ✻ للذى ✻
بضع سنين فقال له أبى بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل
منهما وجعلا الاجل ثلاث

الى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لانه صار معدنا ثم نباتا حيوانا ثم انسانا
وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الله تعالى يخلق أولا انسانا فينبهه انه
يحيى حيوانا ونامبا وغير ذلك لانه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا فخلق الانواع
هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة الاولى فالله تعالى
جعل المرتبة الاخيرة فى الشئ البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من
المراتب التى ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله بشر اشارة الى القوة المدركة لان البشر
بشر لابحركته فان ضرره من الحيوانات أيضا كذلك وقوله تنتشرون الى القوة المحركة
وكلاهما من التراب عجيب اما الادراك فلكثافته وجموده وأما الحركة فلثقله وخموده وقوله
تنتشرون اشارة الى ان العجيبة غير مختص بخلق الانسان من التراب بل خلق الحيوان
المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر وفى الآية مسائل (المسئلة
الاولى) وهى ان الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال خلقكم من تراب نقول
الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ماقيل ان المراد من قوله خلقكم انه خلق أصلكم
(والثانى) أن تقول ان كل بشر مخلوق من التراب اما آدم فظاهر واما نحن فلانا خلقنا من
نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الاعضاء والغذاء اما من لحوم
الحيوانات وألبانها وأسمانها واما من النبات والحيوان أيضا له غذاء هو النبات لكن
النبات من التراب فان الحبة من الحنطة والنواة من التمر لاتصير شجرة الا بالتراب وينضم
اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو (المسئلة الثانية) قال تعالى فى موضع
آخر وخلق من الماء بشرا وقال من ماء مهين وههنا قال من تراب فكيف الجمع قلنا أما على
الجواب الاول فالسؤال زائل فان المراد منه آدم وأما على الثانى فنقول ههنا قال ماهو
أصل أول وفى ذلك الموضع قال ماهو أصل ثان لان ذلك التراب الذى صار غذاء يصير
مائعا وهو المنى ثم ينعقد ويتكون يخلق الله منه انسانا أو نقول الانسان له أصلان
ظاهران الماء والتراب فان التراب لاينبت الا بالماء ففى النبات الذى هو أصل غذاء
الانسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع اجزائه المتفتتة فالامر كذلك وان
جعل الاصل هو الماء والتراب لتثبيت اجزائه الرطبة من السيلان فالامر كذلك فان قال
قائل الله تعالى يعلم كل شئ فهو يعلم أن الاصل ماذا هو منهما وانما الامر عندنا مشتبه
يجوز هذا وذاك فان كان الاصل هو التراب فكيف قال من الماء بشرا وان كان الماء
فكيف قال خلقكم من تراب وان كانا هما أصلين فلم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة
وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما وانما هو بجعل الله تعالى فان الله
نظر الى قدرته كان له أن يخلق أول مايخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه
ويحصل منه الماء لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة الى الكامل لا الكامل
يكون وسيلة الى الناقص فخلق التراب والماء أولا وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل

سنين فاخبر به أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده في الخطر وماده في الاجل فجعلاها
مائة قلوص الى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين
وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي فجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار ﴿ ٧٠٧ ﴾ وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون
القرآن من عند الله عز وجل حيث اخبرت عن الغيب الذي لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى ان الروم غلبت على ريف الشأم وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم فاضافة الغلب حينئذ الى الفاعل (لله الامر من قبل ومن بعد) أي في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا ليس الا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الايام نداولها بين الناس وقرئ من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف اليه واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعدا بمعنى أولا وآخرا (ويومئذ) أي يوم اذ يغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله)
وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل
نصر الله اظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى أنه ولى بعض الظالمين
بعضا وفرق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتفانوا وفل كل منهما

للذي هو أكمل من كل كائن وهو الانسان فان كان كونهما أصلين ليس أمرا ذاتيا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الاصل التراب وتارة الماء ليعلم انه بارادته واختياره فان شاء جعل هذا أصلا وان شاء جعل ذلك أصلا وان شاء جعلهما أصلين (المسئلة الثالثة) قال الحكماء ان الانسان مركب من العناصر الاربعة وهي التراب والماء والهواء والنار وقالوا التراب فيه اثباته والماء لاستمساكه فان التراب يتفتت بسرعة والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب والنار للنضج والالتئام بين هذه الاشياء فهل هذا صحيح أم لا فان كان صحيحا فكيف اعتبر الامرين فحسب ولم يقل في موضع آخر انه خلقكم من نار ولا من ريح فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه الا اذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك واما اذا قالوا بأن الله بحكمته خلق الانسان من هذه الاشياء فلا ننازعهم فيه وأما الآيات فنقول ما ذكرتم لا يخالف هذا لان الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب فالاصل الموجود أولا هما لا غير فلذلك خصهما ولان المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولا سيما كونهما في الانسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر * ثم قال تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) لما بين الله خلق الانسان بين انه لما خلق الانسان ولم يكن من الاشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالاشخاص وجعله بحيث يتوالد فاذا مات الاب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله خلق لكم دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع كما قال تعالى خلق لكم ما في الارض وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لاتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه الينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى اما النقل فهذا وغيره واما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها واما المعنى فلان المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي لم يكلف فكان يناسب ان لا تؤهل المرأة للتكليف لكن النعمة علينا ما كانت تتم الا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ولولا ذلك لظهر الفساد (المسئلة الثانية) قوله من أنفسكم بعضهم قال المراد منه ان حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله لتسكنوا اليها يعني ان الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه (المسئلة الثالثة) يقال سكن اليه للسكون القلبي ويقال سكن عنده للسكون الجسماني لان كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للاجسام والى للغاية وهي للقلوب

شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالا يخفى والاول هو الانسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فانه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائنا من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما ان كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الاخروية واما على القراءة الاخيرة فلان المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان ماقبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعدا (لا يخلف الله وعده) أى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ماسبق من شؤنه تعالى (يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا) وهو مايشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لاهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعليها وعكوفهم عليها الاتمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فانهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهرا للتحقير والتخسيس دون الوحدة كما توهم أى يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية القصوى والمطلب الاسنى (هم غافلون) يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا مايؤدى

(المسئلة الرابعة) قوله وجعل بينكم مودة ورحمة فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ورحمة حالة حاجة صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثلا ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وماذلك لسبب المحبة وانما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين أحدهما كون الزوج من جنسه والثانى ماتفضى اليه الجنسية وهو السكون اليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما يفضى الى الآخر فالمودة تكون اولا ثم انها تفضى الى الرحمة ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله ان فى ذلك يحتمل أن يقال المراد فى خلق الازواج لآيات ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات (اما الاول) فلا بد له من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدر ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى الى هلاك الام وهلاك الولد أيضا لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات (واما الثانى) فكذلك لان الانسان يجد بين القرينين من التراحم مالا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك الا بفكر * ثم قال تعالى

(ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والارض فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات انه بسبب مافى العناصر من الكيفيات ومافى السموات من الحركات ومافيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والارض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بدا من أن يقول ذلك بقدرة الله وارادته ثم لما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ماهو من صفات الانفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة والثانى اختلاف كلامهم فان عربيين هما اخوان اذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوبا عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق

الى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وايرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للاولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر للاولى وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقرير الجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور ادراكها من الدنيا على ظواهرها الحسيسة دون أحوالها التى هى مبادى العلم بأمور الآخرة واشعارا بان العلم المذكور وعدم العلم رأسا سيان (أولم يتفكروا) انكار واستقباح لقصر نظرهم على ماذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (فى أنفسهم) ظرف للتفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق أمره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ماخلق الله السموات والارض وما بينهما) الخ متعلق اما بالعلم الذى يؤدى اليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشىء من الاشياء (الا) ملتبسة (بالحق) أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ما علموه والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لامحالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح ألذى هو استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عزوجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها احياؤهم

فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والاول أصح ثم قال تعالى لآيات للعالمين لما كان خلق السموات والارض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الالوان كذلك واختلاف الاصوات كذلك قال للعالمين لعموم العلم بذلك * ثم قال تعالى (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله منامكم بالليل والنهار قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة ثم قال وابتغاؤكم أى فيهما فان كثيرا ما يكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ويدل عليه آيات أخر منها قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا وقوله وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ويكون هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفضل اشارة الى أن العبد ينبغى أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله وقوله ولتبتغوا من فضله (المسئلة الثانية) قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الامحتاج فى الحال أو خائف من المآل (المسئلة الثالثة) قال آيات لقوم يسمعون وقال من قبل لقوم يتفكرون وقال للعالمين فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهو اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان فجعلهما آيات عامة وأما قوله لقوم يتفكرون فاعلم أن من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفى فيه مجرد الفكرة ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج الى بعض الناس فى تفهمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لا يقع لاحد أنه بالطبع الا اذا كان جامد الفكر خامد الذكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية واما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد بغير فكره فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم الى كلام المرشد * ثم قال تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) لما ذكر

العرضيات التى للانفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق وقال يريكم
البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء وفى الآية مسائل (احداها) لما قدم دلائل
الانفس ههنا قدم العرضيات التى للانفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل
الآفاق بقوله ومن آياته خلق السموات والارض (المسئلة الثانية) قدم لوازم الانفس
على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الالسنة والالوان ثم المنام والابتغاء
وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا
وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة واما اللوازم فيه
فقريبة واما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم فقدم
ماهو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية ونزيده بيانا فنقول الانسان يتغير حاله بالكبر
والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره وهو يتغير فى
الاحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض ثابتان لا يتغير ان ثم يرى فى بعض
الاحوال امطارها طلة وبروق هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة
على فاعل مختار يديم أمرا مع تغير المحل ويزيل أمرا مع ثبات المحل (المسئلة الثالثة) كما
قدم السماء على الارض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ماهو من الارض وهو
الانبات والاحياء (المسئلة الرابعة) كما ان فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى
تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذى لا يكون تحت كن
يخاف الابتلال فيستعد له والذى له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوى
مجارى الماء وأيضا العرب من أهل البوادى فلا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا
البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم أن فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين بالبلاد
فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية وأما
كونه آية فظاهر فان فى السحاب ليس الا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال
فى غاية البعد فلا بدله من خالق هو الله قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة
الى الهواء والماء فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب
بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمماس جسم جسما بعنف وهذا كما ان النار
تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب
والريح جسمان رطبان فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع
الاشجار فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بدلهما من سبب وقد علم بالبرهان
كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهبوب تلك
الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لا بدله من سبب وينتهى الى واجب الوجود
فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك (المسئلة الخامسة) قال ههنا لقوم يعقلون
لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى

بعد الفناء بالحياة الابدية ومجازاتهم بحسب اعمالهم غب ماتبين المحسن من المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين
حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل
والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم
أيكم أحسن عملا فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ﴿ ٧١٠ ﴾ ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله
أيكم أحسن عقلا وأورع
عن محارم الله وأسرع
فى طاعة الله وقدم تحقيقه
فى أوائل سورة هود عليه
السلام وقوله تعالى (وأجل
مسمى) عطف على الحق
أى وباجل معين قدره الله
تعالى لبقائها لابد لها
من أن تنتهى اليه لامحالة
وهو وقت قيام الساعة
هذا وقد جوز أن يكون قوله
تعالى فى أنفسهم صلة
للتفكر على معنى أولم يتفكروا
فى أنفسهم التى هى أقرب
المخلوقات اليهم وهم أعلم
بشؤنها وأخبر بأحوالها
منهم بأحوال ما عداها
فيتدبروا ما أودعها الله
تعالى ظاهرا وباطنا
من غرائب الحكم الدالة
على التدبير دون الاهمال
وأنه لابد لها من انتهاء
الى وقت يجازيها فيه الحكيم
الذى دبر أمرها على الاحسان
احسانا وعلى الاساءة مثلها
حتى يعلموا عند ذلك أن سائر
الخلائق كذلك أمرها
جار على الحكمة والتدبير
وأنه لابد لها من الانتهاء
الى ذلك الوقت وأنت خبير
بان أمر معاد الانسان ومجازاته بما عمل من الاساءة والاحسان هو المقصود بالذات والمحتاج الى الاثبات ﴿ الاوهام ﴾
فجعله ذريعة الى اثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الجزاء تعكيس للامر فتدبر وقوله تعالى (وان كثيرا من الناس
بلقاء ربهم لكافرون) تذييل

مقرر لما قبله بيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والاعراض عن التفكر فيما يرشدهم
الى معرفتها خلق السموات والارض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث
(أولم يسيروا) توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى
والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا (فى الارض) وقوله تعالى
(فينظروا) عطف على
يسيروا داخل فى حكم التقرير
والتوبيخ والمعنى انهم
قد ساروا فى أقطار الارض
وشاهدوا (كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم) من الامم
المهلكة كعاد وثمود وقوله
تعالى (كانوا أشد منهم قوة)
الخ بيان لمبدأ احوالهم
ومآلها يعنى أنهم كانوا
أقدر منهم على التمتع بالحياة
حيث كانوا أشد منهم قوة
(وأثاروا الارض) أى قلبوها
للزراعة والحرث وقيل
لاستنباط المياه واستخراج
المعادن وغير ذلك (وعمروها)
أى عمرها أولئك بفنون
العمارات من الزراعة والغرس
والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها
(أكثر مما عمروها) أى عمارة
أكثر كما وكيفا وزمانا من عمارة
هؤلاء اياها كيف لا وهم
أهل واد غير ذى زرع لا تبسط
لهم فى غيره وفيه تهكم بهم
حيث كانوا مغترين بالدنيا
مفتخرين بمتاعها مع ضعف
حالهم وضيق عطنهم
اذ مدار أمرها على التبسط
فى البلاد والتسلط على العباد
والتقلب فى أكناف الارض
بأصناف التصرفات وهم ضعفة ملجؤن الى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات)
بالمعجزات أو الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) أى فكذبوهم فاهلكهم فما كان الله ليهلكهم

الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف لكن البرق
والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة
تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية
لمن له عقل ان لم يتفكر تفكرا تاما ❊ ثم قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والارض
بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) لما ذكر من العوارض التى
للسماء والارض بعضها ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها فان الارض لثقلها يتعجب
الانسان من وقوعها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد
وهذا من اللوازم فان الارض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لا تخرج
عن مكانها الذى هى فيه فان قيل انها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على
انها فى مكانها لا تخرج عنه وهذه آية ظاهرة لان كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى
الموضع الذى هما عليه من الامور الممكنة وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن
أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لا يكون الا بفاعل مختار
والفلاسفة قالوا كون الارض فى المكان الذى هى فيه طبيعى لها لانها أثقل الاشياء
والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها ان كانت ذات
مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما فنقول قد تقدم مرارا ان القول بالطبيعة باطل
والذى نزيده ههنا انكم وافقتمونا بأن ما جاز على احد المثلين جاز على المثل الآخر لكن
مقعر الفلك لا يخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه وذلك
بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فانها محددة
الجهات على مذهبكم أيضا والارض كانت تجوز عليها الحركة الدورية كما تقولون على
السماء فعدمها وسكونها ليس الا بفاعل مختار وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر
الله من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله خلق لكم استدل بخلق الزوجين ومن
الآفاق السماء والارض فى قوله خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف
اللسان واختلاف الالوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق
والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الارض لان الواحد يكفى الاقرار بالحق
والثانى يفيد الاستقرار بالحق ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول احدهما يفيد
الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن
قلبى (المسئلة الثانية) قوله بأمره أى بقوله قوما أو بارادته قيامهما وذلك لان الامر عند
المعتزلة موافق للارادة وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الامر الذى للتكليف لا فى
الامر الذى للتكوين فانا لا ننازعهم فى أن قوله كن وكونوا و يا نار كونى موافق للارادة
(المسئلة الثالثة) قال ههنا ومن آياته أن تقوم وقال قبله ومن آياته يريكم ولم يقل ان
يريكم وان قال بعض المفسرين ان أن مضمر هناك معناه من آياته ان يريكم ليصير

من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن هلاكه تعالى اياهم بلا جرم ليس من الظلم فى شئ على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لاظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بابرازه فى معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر فى سورة الانفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بان اجترؤا على اقتراف ما يوجبه من المعاصى العظيمة (ثم كان عاقبة الذين أساؤا) أى عملوا السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالاساءة والاشعار بعلة الحكم (السوأى) أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات وأفظعها التى هى العقوبة بالنار فانها تأنيث الاسوأ كالحسنى تأنيث الاحسن او مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى (أن كذبوا بآيات الله) علة لما أشير اليه من تعذيبهم الدنيوى والاخروى أى لأن كذبوا أو بأن كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وايراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل وقيل (الله يبدؤا الخلق) أى ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم اليه ترجعون) الى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة فى الترهيب وقرئ بالياء (ويوم تقوم الساعة) ﴿ من التى هى وقت اعادة الخلق ورجعهم اليه (يبلس المجرمون) أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فابلس اذا سكت وآيس من أن يحتج وقرئ

كالصدر بأن وذلك لان القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرا لان المستقبل ينبئ عن التجدد وفى البرق لما كان ذلك من الامور التى تتجدد فى زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئا من الحروف المصدرية (المسئلة الرابعة) ذكر ستة دلائل وذكر فى أربعة منها ان فى ذلك الآيات ولم يذكر فى الاول وهو قوله ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا فى الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض اما فى الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما بينا غير انه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير فاذا قال ان فى ذلك لآيات كان عائدا اليهما واما فى قيام السماء والارض فنقول فى الآيات السماوية ذكر انها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان فى أول الامر ظاهرا ففى آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يميز أحدا عن أحد فى ذلك وذكر هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة وقال ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفيها مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه العطف بثم وبم تعلق ثم فنقول معناه والله أعلم انه تعالى اذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم انه اذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الاجداث يخرجون أحياء (المسئلة الثانية) قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد الى الجبل فيقال دعاه من الجبل و يحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الارض اذا كان الداعى هو الله فالمدعو يدعى من الارض يعنى أنتم تكونون فى الارض فيدعوكم منها فتخرجون (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذا أنتم قد بينا انه للمفاجأة يعنى يكون ذلك بكن فيكون (المسئلة الرابعة) قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال فى خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فنقول هناك يكون خلق وتقدير و تدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فنفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما فى الاعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا ثم * ثم قال تعالى (وله من فى السموات والارض كل له قانتون) لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التى هى الاصل الآخر والوحدانية التى هى الاصل الاول أشار اليها بقوله وله من فى السموات والارض يعنى لا شريك له أصلا لان كل من فى السموات وكل من فى الارض ونفس السموات والارض له وملكه فكل له منقادون قانتون والشريك يكون منازعا مماثلا فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر فقال تعالى (وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى فى نظركم الاعادة أهون من الابداء لان من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ثم اذا فعل بعد ذلك يكون اهون وقيل المراد هو هين عليه كما قيل فى قول القائل الله أكبر أى كبير وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق

بفتح اللام من أبلسه اذا أفحمه وأسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع اوقوعها فى مقابلة الجمع اى لم يكن لواحد منهم شفيع أصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) اى بالهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك اذ ليس فى الاخبار به فائدة يعتد بها (ويوم تقوم الساعة) أعيد لتهويله وتفظيع مايقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) تهويل له اثر تهويل وفيه رمز الى أن التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدئهم واعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن الآخر بل تفرقهم الى فريقى المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) تفصيل وبيان لاحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين واختلفت فيه الاقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر ابن عياش التيجان على رؤسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة ومافيها من النعيم وفى آخر القوم اعرابى فقال يارسول الله هل فى الجنة من سماع قال عليه الصلاة والسلام يا أعرابى ان فى الجنة لنهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوى فسألت

من الابداء لان فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحما ثم عظما ثم يخلق بشرا ثم يخرج طفلا يترعرع الى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله واما فى الاعادة فيخرج بشرا سويا بكن فيكون أهون عليه والوجه الاول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لان فى البدء خلق الاجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولاشك أن الامر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ولنبين هذا فنقول الهين هو مالا يتعب فيه الفاعل والاهون مالا يتعب فيه الفاعل بالطريق الاولى فاذا قال قائل ان الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع الى موضع وسلم السامع له ذلك فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون أولى يكون ذلك كلاما معقولا مبنى على حقيقته ✲ ثم قال تعالى (وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال ان نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ماذكرنا من الاولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله وله المثل الاعلى اشارة الى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الاول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى ان الله تعالى قال فى موضع آخر هو على هين وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا وذلك لان المعنى الذى قال هناك انه هين هو خلق الولد من العجوز وانه صعب على غيره وليس بهين الا عليه فقال هو على هين يعنى لا على غيرى واما ههنا المعنى الذى ذكر انه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر فالتقديم هناك كان للحصر وقوله تعالى وله المثل الاعلى فى السموات والارض على الوجه الاول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة الكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى اما على الوجه الاول فلما قال وله المثل الاعلى وكان ذلك مثلا مضروبا لمن فى الارض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الاعلى من أمثلة الناس وهم أهل الارض ولا يفيد أن له المثل الاعلى من أمثلة الملائكة فقال وله المثل الاعلى فى السموات والارض يعنى هذا مثل مضروب لكم وله المثل الاعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات واما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الاعلى أى فعله وان شبهه بفعلكم ومثله به لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الاعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقيل المثل الاعلى أى الصفة العليا وهى لا اله الا الله وقوله تعالى وهو العزيز الحكيم أى كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الاجزاء فى الامكنة ويقدر على جمعها وتأليفها ✲ ثم قال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليل بين الوحدانية أيضا بالمثل بعد الدليل ومعناه أن من يكون له مملوك لا يكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد

أبا الدرداء رضي الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان فى الجنة لاشجارا عليها أجراس من فضة فاذا أراد أهل الجنة
السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الاشجار فتحرك تلك الاجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا
لماتوا طربا (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها هذه الايات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح
بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء بأمره وقوله تعالى ﴿٧١٤﴾ (فاولئك) اشارة الى الموصول باعتبار

اتصافه بما فى حيز الصلة
من الكفر والتكذيب بآياته
وبلقاء الآخرة للايذان
بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم
وانتظامهم فى سلك
المشاهدات ومافيه من معنى
البعد مع قرب العهد
بالمشار اليه للاشعار ببعد
منزلتهم فى الشر أى أولئك
الموصوفون بما فصل
من القبائح (فى العذاب
محضرون) على الدوام
لا يغيبون عنه أبدا
(فسبحان الله حين تمسون
وحين تصبحون وله الحمد
فى السموات والارض
وعشيا وحين تظهرون)
اثر ما بين حال فريقى المؤمنين
العاملين للصالحات
والكافرين المكذبين
بالآيات ومالهما من الثواب
والعذاب أمروا بما ينجى
من الثانى ويفضى الى الاول
من تنزيه الله عز وجل
عن كل مالا يليق بشأنه
سبحانه ومن حمده تعالى
على نعمه العظام وتقديم
الاول على الثانى لما أن
التخلية متقدمة على التحلية
والفاء لترتيب ما بعدها
على ماقبلها اى اذا علمتم

ذلك فسبحوا الله تعالى أى نزهوه عما ذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به فى هذه الاوقات واحمدوه ﴿ أضلهم ﴾
فان الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والارض فى معنى الامر به على أبلغ وجه وآكده
وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بان حقهما أن يجمع بينهما كما ينبئ عنه قوله تعالى ونحن نسبح
بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله

الله شركاءه وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا وفى الآية
مسائل (المسئلة الاولى) ينبغى أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ثم ان كان بينهما
مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم
واما المخالفة فموجودة أيضا وهى مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله من
أنفسكم يعنى ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وقاس
نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله مما ملكت ايمانكم يعنى
عبيدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طارق قابل للنقل والزوال اما النقل فبالبيع
وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لاخروج له من ملك الله بوجه من الوجوه فاذا لم يجز أن
يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع انه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه بل هو
فى الحال مثلكم فى الآدمية حتى انكم ليس لكم تصرف فى روحه وآدميته بقتل
وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة فكيف يجوز أن يكون مملوك الله
الذى هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله من شركاء فيما رزقناكم يعنى
الذى لكم هو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى
الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم فكيف يجوز أن
يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله فأنتم فيه سواء اى هل أنتم ومماليككم
فى شئ مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شئ مما ملكه لكن كل شئ
فهو لله فما تدعون الهيته لا يملك شيئا أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته
ولا لمنفعة تصل اليكم منه واما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك لان المملوك هل له
عندكم حرمة كحرمة الاحرار واذا لم يكن للمملوك مع مساواته اياكم فى الحقيقة والصفة
عندكم حرمة فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من
الوجوه والى هذا أشار بقوله تخافونهم كخيفتكم أنفسكم (المسئلة الثانية) بهذا نفى
جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لان الاغيار اذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك
ولا ملك فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا ترتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى
يعبدوا لنفع وليس لهم قوة ولا قدرة لانهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شئ
فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم فكيف تخافونهم خوفا أكثر من خوفكم بعضا
من بعض حتى تعبدوهم للخوف ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون
اى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والامثلة والمحاكيات الاقناعية لقوم يعقلون يعنى
لا يخفى الامر بعد ذلك الا على من لا يكون له عقل ✽ ثم قال تعالى (بل اتبع الذين
ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين) اى لا يجوز
أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا
شركاء من غير دليل ثم بين أن ذلك بارادة الله بقوله فمن يهدى من أضل الله اى هؤلاء

أضلهم الله فلا هادى لهم فينبغى أن لايحزنك قولهم وههنا لطيفة وهى ان قوله فن
يهدى من أضل الله مقولما تقدم وذلك لانه لما قال لان الله لاشريك له بوجه ما ثم قال
تعالى بل المشركون يشركون من غير علم يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفا على خلاف
رضاه والسيد العزيز هو الذى لايقدر عبده على تصرف يخالف رضاه فقال ان ذلك
ليس باستقلاله بل بارادة الله ومالهم من ناصرين لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه
لايغنى عنهم شيئا فلا ناصر لهم ❊ ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى
فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله) اى اذا تبين الامر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك
فلا تلتفت أنت اليهم وأقم وجهك للدين وقوله فأقم وجهك للدين اى أقبل بكلك على الدين
عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه اى ذاته بصفاته وقوله حنيفا
اى مائلا عن كل ما عداه اى أقبل على الدين وملا عن كل شئ أى لايكون فى قلبك شئ
آخر فتعود اليه وهذا قريب من معنى قوله ولا تكونوا من المشركين ثم قال تعالى فطرت الله اى
الزم فطرة الله وهى التوحيد فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم
ألست بربكم فقالوا بلى وقوله تعالى لاتبديل لخلق الله فيه وجوه قال بعض المفسرين
هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا
للشقاوة ومن كتب شقيا لايسعد وقيل لاتبديل لخلق الله اى الوحدانية مترسخة فيهم لاتغير
اها حتى ان سألتهم من خلق السموات والارض يقولون الله لكن الايمان الفطرى غير
كاف ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لاتبديل لخلق الله اى
ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للانسان فانه ينتقل عنه الى غيره ويخرج عن
ملكه بالعتق بل لاخروج للخلق عن العبادة والعبودية وهذا البيان فساد قول من يقول
العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف وقول المشركين ان
الناقص لايصلح لعبادة الله وانما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله وقول
النصارى ان عيسى كان يحل الله فيه وصار الها فقال لاتبديل لخلق الله بل كلهم عبيد
لاخروج لهم عن ذلك ❊ ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لاعوج فيه (ولكن أكثر
الناس لايعلمون) أى ذلك هو الدين المستقيم ثم قال تعالى (منيبين اليه واتقوه وأقيموا
الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم
فرحون) لما قال حنيفا أى مائلا عن غيره قال منيبين اليه اى مقبلين عليه والخطاب
فى قوله فأقم وجهك مع النبى والمراد جميع المؤمنين وقوله واتقوه يعنى اذا أقبلتم عليه
وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة
اى كونوا عابدين عند حصول القربة كما كنتم قبل ذلك ثم انه تعالى قال ولا تكونوا من
المشركين قال المفسرون يعنى ولا تشركوا بعد الايمان اى ولا تقصدوا بذلك غير الله
وههنا وجه آخر وهو ان الله بقوله منيبين أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك

عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة
والسلام من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا أحد قال مثل
ما قال أو زاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم
وغير ذلك مما لايحصى من الآيات والاحاديث ❊ ❊ وتخصيصهما بتلك الاوقات للدلالة على أن ما يحدث فيهما من آيات
قدرته وأحكام رحمته ونعمته
شواهد ناطقة بتنزهه تعالى
واستحقاقه الحمد وموجبة
لتسبيحه وتحميده حتما وقوله
تعالى وعشيا عطف على حين
تمسون وتقديمه على حين
تظهرون لمراعاة الفواصل
وتغيير الاسلوب لما أنه لايجئ
منه الفعل بمعنى الدخول فى
العشى كالمساء والصباح
والظهيرة ولعل السر فى ذلك
أنه ليس من الاوقات التى
تختلف فيها أحوال الناس
وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا
لوصفهم بالخروج عنها قبلها
والدخول فيها كالاوقات
المذكورة فان كلا منها وقت
تتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا
اما فى المساء والصباح فظاهر
وأما فى الظهيرة فلانها وقت
يعتاد فيه التجرد عن الثياب
للقيلولة كما مر فى سورة النور
وقيل المراد بالتسبيح والحمد
الصلاة لاشتمالها عليهما
وقد روى عن ابن عباس
رضى الله تعالى عنهما أن
الآية جامعة للصلوات الخمس
تمسون صلاتا المغرب والعشاء
وتصبحون صلاة الفجر وعشيا
صلاة العصر وتظهرون
صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن الى أنها مدنية اذ كان يقول ان الواجب بمكة ركعتان فى اى وقت اتفقتا وانما فرضت الخمس
بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج فى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة ❊ عن النبى صلى الله
عليه وسلم من سره أن يكال له بالقفيز الاوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين

تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى وكذلك
تخرجون أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته وقرئ حينا تمسون وحينا تصبحون اى تمسون فيه
وتصبحون فيه (يخرج الحى من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحى) النطفة والبيضة
من الحيوان (ويحيى الارض) بالنبات (بعد موتها) بيبسها (وكذلك) ومثل ﴿٧١٦﴾ ذلك الاخراج (تخرجون) من قبوركم
وقرئ تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده (ومن آياته) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فان دلالة بدء خلقهم على اعادتهم أظهر من دلالة اخراج الحى من الميت واخراج الميت من الحى ومن دلالة احياء الارض بعد موتها عليها (أن خلقكم) اى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من أن خلقه عليه الصلاة والسلام منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) اى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الارض وهذا مجمل مافصل فى قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (ومن آياته) الدالة على ماذكر من البعث وما بعده من الجزاء (أن خلق لكم) اى لاجلكم (من أنفسكم أزواجا) فان
خلق أصل ازواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ماعرفته من التحقيق ﴿فريق﴾
أو من جنسكم لا من جنس اخر وهو الاوفق لقوله تعالى (لتسكنوا اليها) اى لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان المجانسة من
دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من

الظاهر ويقوله ولا تكونوا من المشركين أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى اى
لا تقصدوا بعملكم الا وجه الله ولا تطلبوا به الا رضاء الله فان الدنيا والآخرة تحصل
وان لم تطلبوها اذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا
يعنى لم يجتمعوا على الاسلام وذهب كل أحد الى مذهب ويحتمل أن يقال وكانوا شيعا يعنى
بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار وكل واحد بما فى نظره فرح
وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه وانما يكون فرحه بان يحصل عند الله ويقف بين
يديه وذلك لان كل مالدينا نافد لقوله تعالى ماعندكم ينفد وما عند الله باق فلا مطلوب
لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وانما المطلوب مالدى الله وبه الفرح كما قال تعالى بل أحياء
عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم وبكون
ما أتوا من فضله الذى لا نفاد له ولذلك قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا
لا بما عندهم فان كل ماعند العبد فهو نافد أما فى الدنيا فظاهر وأما فى الآخرة فلان ماوصل
الى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ولكن الله يجدد له مثله الى الابد
من فضله الذى لا نفاد له فالذى لا نفاد له هو فضله * ثم قال تعالى (واذا مس الناس ضر
دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون) لما بين التوحيد
بالدليل وبالمثل بين ان لهم حالة يعرفون بها وان كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة
فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع الى الله ويجد نفسه محتاجة الى شئ ليس كهذه
الاشياء طالبة به النجاة ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون يعنى
اذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلانى بفلان وبسبب
الصنم الفلانى لا بل ينبغى أن لا يعتقد انه تخلص بسبب فلان اذا كان ظاهرا فانه شرك
خفى مثاله رجل فى بحر أدركه الغرق فيهيئ الله له لوحا يسوقه اليه ريح فيتعلق به وينجو
فيقول تخلصت بلوح أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله اليه رجلا فيعينه فيقول خلصنى
زيد فهذا اذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفى وان كان بمعنى ان الله خلصنى على يد فهو
أخفى وفيه مسائل (الاولى) قوله تعالى أذاقهم فيه لطيفة وذلك لان الذوق يقال فى القليل
فان فى العرف من أكل مأكولا كثيرا لا يقول ذقت ويقال فى النفى ماذقت فى بيته طعاما
نفيا للقليل ليلزم نفى الكثير بالاولى ثم ان تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن
مستمرة فى الآخرة اذ لهم فى الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال فى العذاب ذوقوا
مس سقر ذوقوا ما كنتم تعملون ذق انك أنت العزيز الكريم لان عذاب الله الواصل الى
العبد بالنسبة الى الرحمة الواصلة الى عبيد آخرين فى غاية القلة (المسئلة الثانية) قوله
تعالى منه اى من الضر فى هذا التخصيص ماذكرنا من الفائدة وهى ان الرحمة غير مطلقة
لهم انما هى عن ذلك الضر وحده واما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة (المسئلة
الثالثة) قال ههنا اذا فريق منهم وقال فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل

اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على [illegible]
أسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) اى بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على ... وقيل أو بين أفراد الجنس
معطوف على الظرف المذكور اى جعل بينكم و بينهن كما فى قوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله
اى بين الرجال والنساء و يأباه قوله تعالى (مودة ورحمة) فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا اى جعل بينكم
بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف
من قرابة أورحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم والقاء المودة والرحمة بينهم ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الافاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبله مع التنبيه على أن ماذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ماذكر من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) اما من حيث ان القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على اعادة ماكان حيا قبل ذلك واما من حيث ان خلقهما ومافيهما ليس الالمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (واختلاف ألسنتكم) اى لغاتكم بان علم كل صنف لغته وألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس

فريق وذلك لان المذكور هناك ضر معين وهو مايكون من هول البحر والمخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لايشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من المشركين واما المذكور ههنا الضر مطلقا ويتناول ضر البر والبحر والامراض والاهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه والذى لايبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين واما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر باجمعهم فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعا كثيرا جعل الباقى فريقا * ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله فتمتعوا وعدمه هناك فى قوله وليتمتعوا فسوف يعلمون فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضرا واحدا جاز أن لايكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ويخلو موضع من المخلصين عن الضر فالحاضر يصح خطابه بانه منهم فخاطب * ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم اى المشركون يقولون مالا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون الى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار اى ما أنزلنا بما يقولون سلطانا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أم للاستفهام ولا يقع الا متوسطا كما قال قائلهم

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل * و بين النقا آ أنت أم أم سالم

فالاستفهام الذى قبله فنقول تقديره اذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فاذا نقول أهم يتبعون الاهواء من غير علم أم لهم دليل على مايقولون وليس الثانى فيتعين الاول (المسئلة الثانية) قوله فهو يتكلم مجاز كما يقال ان كتابه لينطق بكذا وفيه معنى لطيف وهو ان المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له لان الكلام هو المسموع ومالا يقبل فكأنه لم يسمع فكأن المتكلم لم يتكلم به ومالا دليل عليه لايقبل فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز اثبات التكلم للدليل وحسن * ثم قال تعالى (واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا فاذا آتاه رضى واذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ومن الناس من يعبده اذا آتاه نعمة كما قال تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها والاول كالذى يخدم مكرها بمخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجير التوقع الاجر وكلاهما لايكون من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن فكذلك القسمان لايكونان من

لتفصلكم واشكالكم فانك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه (والوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الاعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والامور الملاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شئ من ذلك لا محالة وان كانا فى غاية التشابه وانما انتظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية بالانتظام فى سلك ماسبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (للعالمين) اى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى وما يعقلها الا العالمون وقرئ بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) فيهما فان كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وان كان الاغلب وقوع الاول فى الاول والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك خلا أنه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الاخيرين لانهما زمان والزمان مع ما وقع فيه كشئ واحد مع اعانة اللف على الاتحاد (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) اى شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف ﴿ بلغ ﴾ هذا البيان ويستدلون بذلك على شؤنه تعالى (ومن آياته يريكم البرق) الفعل اما مقدر بأن كما فى قول من قال * الا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * اى أن أحضر أو منزل منزلة المصدر

المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم وفيه مسئلة وهى أن قوله تعالى فرحوا بها اشارة الى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل اليهم لا بمن وصل منه اليهم فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما اذا كان من الله وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفا على السماط أو أمر الغلمان بأن يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الامير به ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت اليه رغيفا أو زبدية طعام أيضا يفرح لكن فرح الامير بكون ذلك من الملك وفرح الفقير بكون ذلك رغيفا وزبدية ثم قال تعالى وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم لم يذكر عند النعمة سببا لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سببا لان الاول يزيد فى الاحسان والثانى يحقق العدل * قوله اذا هم يقنطون اذا للمفاجأة أى لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وانه يذكرهم به * ثم قال تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اى لم يعلموا أن الكل من الله فالمحق ينبغى أن لا يكون نظره على ما يوجد بل الى من يوجد وهو الله فلا يكون له تبدل حال وانما يكون عنده الفرح الدائم ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ولذلك قال ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * ثم قال تعالى (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغى أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شئ من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلس يعبد الله اذا كان فى الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية واذا خلا بنفسه لا يذكر الله بقوله واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وبين أنه ينبغى أن يكون فى حالة بسط الرزق وقدره عليه نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الارشاد الى تعظيم الله والايمان قسمان تعظيم لامر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفيه وجه آخر هو ان الله تعالى لما بين ان الله يبسط الرزق ويقدر فلا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله اذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق واذا قدر لا يزداد بالامساك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تخصيص الاقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الاصناف الثمانية فى الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان اليه على كل من له مال سواء كان زكويا أولم يكن وسواء كان بعد الحول أو قبله لان المقصود ههنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان اليهم وان لم يكن للمحسن مال زائد أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شئ له اذا بقى فى ورطة الحاجة حتى

وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أو هو على حاله صفة لمحذوف اى آية يريكم بها البرق كقول من قال وما الدهر
الا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح * أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى ابتغى فيها أو ومن آياته شئ أو سحاب
يريكم البرق (خوفا) من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) فى الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فان
اراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم اياه او للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو اراءة خوف وطمع أو على تأويل

بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته وان لم يكون عليه زكاة وكذلك من انقطع فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها ايصاله الى مأمن يلزمه ذلك وان لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لان من أوصى للمساكين شيئا يصرف الى الفقراء ايضا واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم الا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ثم اعلم أن على مذهب أبى حنيفة رحمه الله حيث قال المسكين من له شئ مافنقول وان كان الامر كذلك لكن لا نزاع فى أن اطلاق المسكين على من لا شئ له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه والفقير يدخل فى ذلك بالطريق الاولى (المسئلة الثانية) فى تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجبا سواء كان فى شدة أو لم يكن كان مقدما على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة الا اذا كان فى شدة ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدما على من حاجته مختصة بموضع دون موضع (المسئلة الثالثة) ذكر الاقارب فى جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى ولم يذكر المسكين بلفظ ذى المسكنة وذلك لان القرابة لا تتجدد فهى شئ ثابت وذو كذا لا يقال الا فى الثابت فان من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوما واحدا أو وجد منه فضل فى وقت لا يقال ذو رأى ذو جاه وذو فضل واذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرا يقال له ذو الرأى وذو الفضل فقال ذا القربى اشارة الى أن هذا حق متأكد ثابت وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال مسكينا ذا متربة فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت مسكنته أو يكون كذلك فى أكثر الامر (المسئلة الرابعة) قال فآت ذا القربى حقه ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم لان العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولا للتشريك والاولى لكون التشريك واردا على الكلام كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى اذا قال الملك خل فلانا يدخل وفلانا أيضا يكون فى التعظيم فوق ما اذا قال خل فلانا وفلانا يدخلان والى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله بئس خطيب القوم أنت حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله (المسئلة الخامسة) قوله ذلك خير يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه وان لم يقس الى غيره لقوله تعالى وافعلوا الخير فاستبقوا الخيرات والثانى أولى لعدم احتياجه الى اضمار ولكونه اكثر فائدة لان الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة عند نزول درجة ما يقاس اليه كما يقال السكوت خير من الكذب وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع (المسئلة السادسة) قوله تعالى للذين يريدون وجه الله اشارة الى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله وقوله

الخوف والطمع بالاخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها (ويزل من السماء ماء) وقرئ بالتخفيف (فيحيى به الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانها من الظهور بحيث يكفى ادراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره) اى بارادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والاسباب وليس المراد باقامتهما انشاءهما لانه قد بين حاله بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض ولا اقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تتمات انشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ماذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية بل قيامهما واستمرارهما على ماهما عليه الى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى
فيما قبل ماخلق الله السموات والارض ومابينهما الا بالحق وأجل مسمى وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر

ايضافقيل (ثم اذادعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والارض على هيآتهما بأمره تعالى الى اجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم اذادعاكم اى بعد انقضاء الاجل من الارض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بأن قال أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وذلك

قوله تعالى يومئذ يتبعون الداعى ومن الارض متعلق بدعاكم اذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع الى لابتخرجون لان مابعد اذا لايعمل فيما قبلها (وله) خاصة (من فى السموات والارض) من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه (كل له قانتون) اى منقادون لفعله لايمتنعون عليه فى شأن من شؤنه تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى (وهو أهون عليه) اى بالاضافة اى قدركم والقياس على أصولكم والافهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه الى الاعادة لما أنهامؤولة بان يعيد وقيل هو راجع الى الخلق وليس بذاك وأماماقيل من أن الانشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والاعادة من قبيل الواجب الذى لابد من فعله حتما فكان أقرب الى الحصول من الانشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل اذليس المراد بأهوبة ﴿ الحشر ﴾ الفعل أقربيته الى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل الى ايجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به

وجه الله اى يكون عطاؤه لله لاغير فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله وانما أراد مخلوق الله (المسئلة السابعة) كيف قال وأولئك هم المفلحون مع ان للافلاح شرائط أخر وهى المذكورة فى قوله قد أفلح المؤمنون فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح فقوله والذين هم للزكاة فاعلون وقوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون الى غير ذلك عطف على المفلح اى هذا مفلح وذاك مفلح وذلك الآخر مفلح لايقال لايحصل الافلاح لمن يتصدق ولايصلى فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظرا الى علمه ثم اذاحد فى الزنا على سبيل النكال وقطعت يده فى السرقة لايبطل ذلك القول حتى يقول القائل انما كان ذلك لانه أتى بالفسق فكذلك ايتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح اللهم الااذاوجد مانع من ارتكاب محظور أوترك واجب (المسئلة الثامنة) لم لم يذكر غيره من الافعال كالصلاة وغيرها فنقول الصلاة مذكورة من قبل لان الخطاب ههنا بقوله فآت مع النبى صلى الله عليه وسلم وغيره تبع وقدقال له من قبل فأقم وجهك للدين حنيفا وقال منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة (المسئلة التاسعة) قوله تعالى وأولئك هم المفلحون يفهم منه الحصر وقدقال فى أول سورة البقرة وأولئك هم المفلحون اشارة الى من أقام الصلاة وآتى الزكاة وآمن بما أنزل على رسوله و بما أنزل من قبله وبالآخرة فلوكان المفلح منحصرا فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحا فنقول هذا هوذاك لانا بينا أن قوله فأقم وجهك للدين متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله فقد ثبت انه مؤمن يقيم الصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور فى البقرة * ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) ذكرهذا تحريضا يعنى أنكم اذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لايربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الصدقة تقع فى يد الرحمن فتربو حتى تصير مثل الجبل فينبغى أن يكون اقدامكم على الزكاة أكثر * وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) اى أولئك ذو والاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى فى كونه حسنة لافى المقدار فلايفهم أن من أعطى رغيفا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه التفضل فبالرغيف الواحد يكون له قصر فى الجنة فيه من كل شئ ثوابا نظرا الى الرحمة وعشر قصور مثله نظرا الى الفضل مثاله فى الشاهد ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لوعوضه بعشرة دراهم لايكون كرما بل اذا جرت عادته بانه يعطى على مثل ذلك ألفا فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب * ثم قال تعالى (الله الذى خلقكم) اى أوجدكم (ثم رزقكم) اى أبقاكم فان العرض مخلوق وليس بمبق (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ) جمع فى هذه الآية بين اثبات الاصلين

بل اسهلية ثانية وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الايجاب أو بطريق الاختيار (وله المثل الاعلى) أى الوصف الاعلى العجيب الشان من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية (فى السموات والارض) متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى انه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة

الحشر والتوحيد اما الحشر فبقوله ثم يحييكم والدليل قدرته على الخلق ابتداء وأما التوحيد فبقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ * ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه اى سبحوه تسبيحا اى نزهوه ولا تصفوه بالاشراك وقوله وتعالى أى لا يجوز عليه ذلك وهذا لان من لا يتصف بشئ قد يجوز عليه فان قال سبحوه اى لا تصفوه بالاشراك واذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك * ثم انه تعالى قال (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو ان الشرك سبب الفساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا واذا كان الشرك سببه جعل الله اظهارهم الشرك مورثا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والى هذا أشار بقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا واختلفت الاقوال فى قوله فى البر والبحر فقال بعض المفسرين المراد خوف الطوفان فى البر والبحر وقال بعضهم عدم انبات بعض الاراضى وملوحة مياه البحار وقال آخرون المراد من البحر المدن فان العرب تسمى المدائن بحورا لكون مبنى عماراتها على الماء ويمكن أن يقال ان ظهور الفساد فى البحر قلة مياه العيون فانها من البحار واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا وذلك لان المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس فالفاسق مشرك بالله بفعله غاية ما فى الباب ان الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لان أصل المرء قلبه ولسانه فاذا لم يوجد منهما الا التوحيد يزول الشرك البدنى بسببهما وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا قد ذكرنا ان ليس تمام جزائهم وكل موجب افترائهم وقوله لعلهم يرجعون يعنى كما يفعله الموقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شئ من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع كما ان السيد اذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام فيقول القائل لماذا لا تؤدبه بالكلام فاذا قال لا ينفع وربما يقع فى وهمه انه لا يبعد عن نفع فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه * ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لما بين حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كافعالهم فقال قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل اى قوم نوح وعاد وثمود وهذا ترتيب فى غاية الحسن وذلك لانه فى وقت الامتنان والاحسان قال الله الذى خلقكم ثم رزقكم اى آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال ظهر الفساد فى البر والبحر أى قلل رزقكم ثم قال تعالى سيروا فى الارض أى هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ويسلب منكم الوجود والبقاء أما سلب البقاء فباظهار الفساد

الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالاعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره فى الاعلى (وهو العزيز) القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن واعادته (الحكيم) الذى يجرى الافعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك (من أنفسكم) أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الامور اليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الاولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أى هل لكم (مما ملكت أيمانكم) من العبيد والاماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الاموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الاولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لانه عام للفريقين بطريق التغليب أى هل ترضون لانفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم فى البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فأنتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبر آخر

لا انتم أو حال من ضمير الفاعل فى سواء أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كخيفتكم أنفسكم) أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الاحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون مافصل من الجملة الاستفهامية أى لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم وهم أمثالكم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل ✻ ٧٢٢ ✻ مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه

(كذلك) أى مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها لا تفصيلا أدنى منه فان التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وابراز لأوابد المدركات على هيئة المانوس فيكون فى غاية الايضاح والبيان (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى تدبر الامور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لانهم المنتفعون بها (بل اتبع الذين ظلموا) اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة ارشادهم الى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمل المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة بل اتبعوا (اهواءهم) الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه أو ظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) أى جاهلين ببطلان ما أتوا مكبين عليه لا يلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل علمه ببطلانه (فمن يهدى من أضل الله) أى خلق فيه الضلال ✻ بانه ✻ بصرف اختياره الى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد (وما لهم) أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من

وأما سلب الوجود فبالاهلاك وعند الاعطاء قدم الوجود على البقاء لان الوجود أولا ثم البقاء وعند السلب قدم البقاء وهو الاستمرار ثم الوجود ✻ وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) ان الهلاك فى الاكثر كان بسبب الشرك الظاهر وان كان بغيره أيضا كالاهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافيا لكنهم قليلون وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى كما قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل كان على الصغار والمجانين ولكن أكثرهم كانوا مشركين ✻ ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين القيم) لما نهى الكافر عما هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء والمؤمنين فى التكليف مقام الانبياء كما قال عليه الصلاة والسلام ان الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين وقد ذكرنا معناه ✻ وقوله (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) يحتمل وجهين الاول أن يكون قوله من الله متعلقا بقوله يأتى والثانى أن يكون المراد لا مرد له من الله أى الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون ✻ ثم اشار الى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا ولم يقل ومن آمن وذلك لان العمل الصالح به يكمل الايمان فذكره تحريضا للمكلف عليه واما الكفر اذا جاء فلا زنة للعمل معه ووجه آخر وهو ان الكفر قسمان (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به (والثانى) ترك وهو عدم النظر والايمان فالعاقل البالغ اذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالايمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل لكن الايمان لا بد له من العمل الصالح فان الاعتقاد الحق عمل القلب وقول لا اله الا الله عمل اللسان وشئ منه لا بد منه (المسئلة الثانية) قال فعليه فوحد الكناية وقال فلانفسهم جمعها اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته اما الغضب فمسبوق بالرحمة لازم لمن أساء (المسئلة الثالثة) قال فعليه كفره ولم يبين وقال فى المؤمن فلانفسهم يمهدون تحقيقا لكمال الرحمة فانه عند الخيرين وفصل بشارة وعند غيره اشار اليه اشارة ✻ ثم قال تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح وهو الجزاء الذى يجازيه به الله والملك اذا كان كبيرا كريما ووعد عبدا من عباده بأنى أجازيك يصل اليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله من فضله يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ثم انى لا أجازيك من العدل وانما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ✻ ثم قال تعالى (انه لا يحب الكافرين) أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وان كان عند المحقق هذا الاجمال فيه كالتفصيل فان عدم المحبة من الله غاية العذاب وافهم ذلك ممن يكون له معشوق فانه اذا أخبر العاشق

تبعاته وافاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ماهو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع (فأقم وجهك للدين) تمثيل لاقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب اسبابه فان من اهتم بشئ محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه أي فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يمينا وشمالا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المأمور أو من الدين (فطرت الله) الفطرة الخلقة وانتصابها ﴿٧٢٣﴾ على الاغراء أي الزموا أو عليكم فطرة الله فان الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والافراد في أقم لما أن الرسول عليه الصلاة والسلام امام الامة فأمره عليه السلام مستتبع لامرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أي فطر الله فطرة وقوله تعالى (التي فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالامر فان خلق الله الناس على فطرته التي هي عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه أو عن ملة الاسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعا فانهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم اليها وما اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الانس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم ان يشركوا بي غيري وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) تعليل للامر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أي لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلابد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس

بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته واذا قيل له انه قال انى أحب فلانا كيف يكون سروره وفيه لطيفة وهي أن الله عندما أسند الكفر والايمان الى العبد قدم الكافر فقال من كفر فعليه كفره وعندما أسند الجزاء الى نفسه قدم المؤمن فقال ليجزى الذين آمنوا ثم قال تعالى انه لا يحب الكافرين لان قوله من كفر في الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله من عمل صالحا تحريض المؤمن فالنهي كالايعاد والتحريض للتقرير والايعاد مقدم عند الحكيم الرحيم واما عند ماذكر الجزاء بدأ بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة فان قال قائل هذا انما يصح أن لو كان الذكر في كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله في كثير من المواضع قدم ايمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الانابة فنقول ان كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ونحن نقول بأن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة وماذكر على خلافه لا يكون في درجة ماورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة قدم المؤمن على الكافر وههنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله يومئذ يصدعون أي يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضا قدم الكافر في الذكر لانه قال من قبل ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون فذكر الكافر وابلاسه ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله يبلس المجرمون وقوله في حق المؤمن في روضة يحبرون لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال واما الذين كفروا * ثم قال تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لما ذكرنا غير مرة ان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال يرسل الرياح مبشرات قيل بالمطر كما قال تعالى بشرا بين يدى رحمته أي قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد * ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ماذكرنا أي ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الابدان وليذيقكم من رحمته بالمطر وقد ذكرنا أن الاذاقة تقال في القليل ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزرا قال وليذيقكم وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل الى الفلك عقبه بقوله بأمره أي الفعل ظاهر عليه ولكنه بأمر الله ولذلك لما قال ولتبتغوا مسندا الى العباد ذكر بعده من فضله أي لا استقلال لشئ بشئ وفي الآية مسائل (الاول) في الترتيب فنقول في الرياح فوائد منها اصلاح الهواء ومنها اثارة السحاب ومنها جريان الفلك بها فقال مبشرات باصلاح الهواء فان اصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الامطار بعده

الفطرة بازائها اساسا ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة فى كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) اشارة الى الدين المأمور باقامة الوجه له أو الى لزوم فطرة الله المستفاد من الاغراء أو الى الفطرة ان فسرت بالملة والتذكير ﴿٧٢٤﴾ بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر (الدين القيم) المستوى الذى لاعوج فيه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك فيصدون عنه صدودا (منيبين اليه) حال من الضمير فى الناصب المقدر لفطرة الله أوفى أقم لعمومه للامة حسبما أشير اليه ومابينهما اعتراض أى راجعين اليه من أناب اذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى (واتقوه) أى من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين باعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم وفائدة الابدال التحذير عن الانتماء الى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين وقرئ فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به (وكانوا شيعا) أى فرقا تشايع كل منها امامها الذى أضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل (فرحون) مسرورون ظنا منهم أنه حق وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده (واذا مس الناس ضر) أى شدة (دعوا ربهم

ثم جريان الفلك فانه موقوف على اختيار من الآدمى باصلاح السفن والقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها (المسئلة الثانية) قال فى قوله تعالى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطب ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسئ بعيد فلم يخاطبهم وأيضا قال هناك بعض الذى عملوا وقال ههنا من رحمته وأضاف ماأصابهم الى أنفسهم وأضاف ماأصاب المؤمن الى رحمته وفيه معنيان (أحدهما) ماذكرنا ان الكريم لايذكر لاحسانه ورحمته عوضا وان وجد فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى وأما مافعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى (وثانيهما) ان مايكون بسبب فعل العبد قليل فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لايكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة ومعنى ثالث وهو انه لوقال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم فى الآخرة وأما فى حق الكفار فاذا قال بما فعلتم ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك (المسئلة الثالثة) قال هناك لعلهم يرجعون وقال ههنا ولعلكم تشكرون قالوا واشارة الى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم (المسئلة الرابعة) انما أخر هذه الآية لان فى الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا انه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات يريكم البرق والحادث فى الجو فى أكثر الامر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيرا وتقريرا للدلائل ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس فى البرق فائدة ان لم يكن مطر ذكر هناك خوفا وطمعا أى قد يكون وقد لايكون وذكر ههنا مبشرات لان تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم وحكمه به حكم جازم * ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) لمابين الاصلين ببراهين ذكر الاصل الثالث وهو النبوة فقال ولقد أرسلنا من قبلك رسلا أى ارسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ولم يظهر عليهم غير ماظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر بين تعلق الآية بما قبلها وهو ان الله لمابين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاؤا أيضا بالبينات وكان فى قومهم كافر ومؤمن كما فى قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين وفى قوله تعالى وكان حقا وجهان (أحدهما) فانتقمنا وكان الانتقام حقا واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أى علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثانى) وكان حقا علينا أى نصر المؤمنين كان حقا علينا وعلى الاول لطيفة وعلى الآخر أخرى أما على الاول فهو انه لما قال فانتقمنا بين انه لم يكن ظلما وانما كان عدلا حقا وذلك لان الانتقام لم يكن الا بعد كون بقائهم غير مفيد الا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبيث وعلى الثانى تأكيد ﴿البشارة﴾

البشارة لان كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبئ عن اللزوم فاذا قال حقا أكد ذلك المعنى وقد ذكرنا ان النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة فان احدى الطائفتين اذا انهزمت أولا ثم عادت آخرا لا يكون النصر الا للمنهزم وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم الا نصرة فالكافر ان هزم المسلم فى بعض الاوقات لا يكون ذلك نصرة اذ لا عاقبة له ✻ ثم قال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شئ قدير) بين دلائل الرياح على التفصيل الاول فى ارسالها قدرة وحكمة اما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار واما الحكمة ففى نفس الهبوب فيما يفضى اليه من اثارة السحب ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء فى الهواء أعجب علامة للقدرة وما يفضى اليه من اثبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم هو تأكيد كما فى قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر والاولى ان يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله أى من قبل ارسال الرياح وذلك لان بعد الارسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون مبلسا فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يعلم انهم كانوا مبلسين لان من قبله قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله أى من قبل ما ذكرنا من ارسال الريح وبسط السحاب ثم لما فصل قال فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيى باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله انه معطيك لان الثانى يفيد انه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والاول يفيد انه سيتصف به ويتبين هذا بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت وهو على كل شئ قدير تأكيد لما يفيد الاعتراف ✻ ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) لما بين انهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين انظرهم الى الحال لا الى المآل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الآية الاولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار

منيبين اليه) راجعين اليه من دعاء غيره (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) خلاصا من تلك الشدة (اذا فريق منهم بربهم
كانوا دعوه منيبين اليه (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الاشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما فى قوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (ليكفروا بما آتيناهم) اللام فيه للعاقبة

وقيل للامر التهديدى كقوله تعالى (فتمتعوا) غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرئ وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرئ بالياء على أن تمتعوا ماض والالتفات الى الغيبة فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للايذان بالاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (سلطانا) أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق أو تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى أو بالامر الذى بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطرا وأشرا لاحمدا وشكرا (وان تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرئ بكسر النون (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر المبرات (والمسكين وابن السبيل) ما يستحقانه والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أولمن بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ذاته وجهته ويقصدون بمعروفهم اياه تعالى خالصا أوجهة التقرب اليه لاجهة أخرى (وأولئك هم

حيث ضعفوا بما بسط لهم النعيم المقيم (وما آتيتم من ربا) زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرئ أتيتم بالقصر اى عشيتم أو رهقتموه من اعطاء ربا (ليربو فى أموال الناس) ليزيد و يزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) أى لا يبارك فيه وقرئ لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله) أى تبتغون به وجهه تعالى خالصا (فأولئك هم المضعفون) أى ذووا الاضعاف من الثواب ونظير ﴿ ٧٢٦ ﴾ المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم بالبركة وقرئ بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة مالا يخفى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ) أثبت له تعالى لوازم الالوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الاصنام وغيرها مؤكدا بالانكار على مادل عليه البرهان والعيان و وقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لانه بمعنى من أفعاله ومن الاولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى و كل منها مستقلة بالتأكيد وقرئ تشركون بصيغة الخطاب (ظهر الفساد فى البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم ﴿ فانه ﴾ وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرى البحور (بما كسبت أيدى الناس) بشؤم معاصيهم أو بكسبهم اياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه فان تمامه فى الآخرة

عن الارسال وقال ههنا ولئن أرسلنا لا على طريقة الاخبار عن الارسال لان الرياح من رحمته وهى متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والايام فى البرارى والآكام وريح السموم لاتهب الافى بعض الازمنة وفى بعض الامكنة (المسئلة الثانية) سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولاتهب الريح الضارة فى أعوام بل الضارة فى الغالب لاتهب فى الدهور (الثانى) هو ان النافعة لاتكون الارياحا فان ماهب مرة واحدة لايصلح الهواء ولاينشئ السحاب ولايجرى السفن وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو ان الريح المضرة اما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها اما الكيفية فهى اذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم وهذا لايكون للريح فى هبوبها وانما يكون بسبب ان الهواء الساكن فى بقعة فيها حشائش رديئة أو فى موضع غائر وهو حار جدا أو تكون متكونة فى أول تكونها كذلك و كيفما كان فتكون واحدة لان ذلك الهواء الساكن اذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كالهيب ثم مايخرج بعد ذلك من ذلك المكان لايكون حارا ولامتكيفا لان المكث الطويل شرط التكيف الاترى انك لو أدخلت اصبعك فى نار واخرجتها بسرعة لاتتأثر والحديد اذا مكث فيها يذوب فاذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لايوجد فى ذلك الوقت غيره من جنسه وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد وأما الكمية فالرياح اذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالجبال ومياه العيون اذا اجتمعت تصير نهرا عظيما لاتسده السدود ولايرده الجلمود ولاشك ان فى ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير فلهذا قال فى المضرة ريح وفى النافعة رياح * ثم انه تعالى لما علم رسوله أنواع الادلة وأصناف الامثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وانباؤه الا كفرا واصرارا قال له فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الترتيب فنقول ارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم ارشاد الاصم صعب فانه لايسمع الكلام وانما يفهم مايفهمه بالاشارة لاغير والافهام بالاشارة صعب ثم ارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له الطريق على يمينك يدور الى يمينه لكنه لايبقى عليه بل يحيد عن قريب وارشاد الاصم أصعب فلهذا تكون المعاشرة مع الاعمى أسهل من المعاشرة مع الاصم الذى لايسمع شيئا لان غاية الافهام بالكلام فان مالايفهم بالاشارة يفهم بالكلام وليس كل مايفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لااشارة اليهما فقال أولا لاتسمع الموتى ثم قال ولا الاصم ولاتهدى الاعمى الذى دون الاصم (المسئلة الثانية) قال فى الصم اذا ولوا مدبرين ليكون ادخل فى الامتناع وذلك لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى ولايكون نظره الى المشير

واللام للعلة أو للعاقبة وقرئ لنذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا عليه (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتشاهدوا آثارهم (كان أكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك فى أكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم (فأقم وجهك للدين القيم) أى البليغ الاستقامة (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له) لا يقدر أحد على رده (من الله متعلق بيأتى أو بمرد لانه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق ارادته القديمة بمجيئه (يومئذ يصدعون) أصله يتصدعون أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره وهو النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أى يسوون منزلا فى الجنة وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل بيمهدون أى يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك فى معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الاثابة بطريق التفضل لا الوجوب وأشير الى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته أن يرسل الرياح) أى الشمال والصبا والجنوب فانها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الريح على ارادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهى المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذى هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل

فانه يسمع ولا يفهم (المسئلة الثالثة) قال فى الاصم لا تسمع الصم الدعاء ولم يقل فى الموتى ذلك لان الاصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوى ولكن صوت الداعى لا يبلغ ذلك الحد فقال انك داع لست بمجئ الى الايمان والداعى لا يسمع الاصم الدعاء (المسئلة الرابعة) قال وما أنت بهادى العمى أى ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وانما ينظم بيتا وبيتين أى ليس شغله ذلك فقوله انك لا تسمع الموتى نفى ذلك عنه وقوله وما أنت بهادى العمى يعنى ليس شغلك ذلك وما أرسلت له * ثم قال تعالى (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما نفى اسماع الميت والاصم وأثبت اسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لان المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت فى قلبه العقائد الحقة ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان غير ان بعضهم يخالف ارادة الله وقوله ان تسمع الا من يؤمن دليل على انه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم قالوا سمعنا واطعنا * ثم قال تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) لما أعاد من الدلائل التى مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا وذكر أحوال الريح من أوله الى آخره أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله فقال خلقكم من ضعف أى مبناكم على الضعف كما قال تعالى خلق الانسان من عجل ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيا أى من حالة فقره * ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف اشارة الى حالة كان فيها جنينا وطفلا مولودا ورضيعا ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف وقوله ثم جعل من بعد ضعف قوة اشارة الى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) اشارة الى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ثم بين بقوله يخلق ما يشاء ان هذا ليس طبعا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق فيبسطه فى السماء كيف يشاء وقوله وهو العليم القدير لم قدم العلم على القدرة وقال من قبل وهو العزيز الحكيم فالعزة اشارة الى تمام القدرة والحكمة الى العلم فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة تكون بكن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأعمال الخلق كان عالما بأحوال المخلوقات فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا فاذا علم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة

ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الارسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها الا لامر آخر لاتعلق له بمنافعكم (ولتجرى الفلك) بسوقها (بأمره ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة (ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) كما أرسلناك الى قومك (فجاؤهم بالبينات) اى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى ❊ ٧٢٨ ❊ (فانتقمنا من الذين أجرموا) فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف ولاشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم واشعار بأن الانتقام من الكفرة لاجلهم وقد يوقف على حقا على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ماسبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لانذار الكفرة وتحذيرهم عن الاخلال بواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بارسالها كيلا يحل بهم مثل ماحل بأولئك الامم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحابا فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب الى غير ذلك (ويجعله كسفا) تارة أخرى أى قطعا وقرئ بسكون السين على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين (فاذا أصاب به من يشاء من عباده) أى بلادهم وأراضيهم

والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الاحوال مع العقاب فقال وهو العليم الحكيم والى مثل هذا أشار فى قوله فتبارك الله أحسن الخالقين عقيب خلق الانسان فنقول أحسن اشارة الى العلم لان حسن الخلق بالعلم والخلق المفهوم من قوله الخالقين اشارة الى القدرة ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها ❊ فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) قيل مالبثوا فى الدنيا غير ساعة وقيل مالبثوا فى القبور وقيل مالبثوا من وقت فناء الدنيا الى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق الى الباطل ومن الصدق الى الكذب (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) ونحن نبين ماهو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين فنقول الموعود بوعد اذا ضرب له اجل يستكثر الاجل ويريد تعجيله والموعد بوعيد اذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها لكن المجرم اذا حشر علم ان مصيره الى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء فى القبر والمؤمن اذا حشر علم ان مصيره الى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التاخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما ان مدة لبثنا قليل واليه الاشارة بقوله يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مديدا واليه الاشارة بقوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث يعنى كان فى كتاب الله ضرب الاجل الى يوم البعث ونحن صبرنا الى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) يعنى طلبكم التأخير لانكم كنتم لاتعلمون البعث ولاتعترفون به فصار مصيركم الى النار فتطلبون التأخير ❊ ثم قال تعالى (فيومئذ لاتنفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون) أى لايطلب منهم الاعتاب وهو ازالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لاتطلب منهم لانها لاتقبل منهم * ثم قال تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار والى انه لم يبق من جانب الرسول تقصير فان طلبوا شيأ آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لايصعب عليه تكذيب الدلائل بل لايجوز للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ماذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهرا لاغبار عليه وعانده الخصم لانه اما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لايعترف فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أو المستدل اما بأن الدليل فاسد واما بان المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال وكلاهما لايجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام وان لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهما ان الخصم ليس معاندا فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى أكثر لانه يقول العناد افاد فى الاول حيث التزم ذكر دليل آخر فان قيل فالانبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل نقول سردوها سردا ثم قرروها فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا والثالث

(اذاهم يستبشرون) فاجؤا الاستبشار بمجئ الخصب (وان كانوا) ان مخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف أى وان الشان كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) أى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والايذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الارسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين (فانظر الى آثار رحمة الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ أثر بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيى) أى الله تعالى (الارض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر الى احيائه البديع للارض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأياما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع مافيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرئ تحيى بالتأنيث على الاسناد الى ضمير الرحمة (ان ذلك) العظيم الشان الذى ذكر بعض شؤنه (لمحيى الموتى) لقادر على احيائهم فانه احداث لمثل ماكان فى مواد ابدانهم من القوى الحيوانية كما أن احياء الارض احداث لمثل ماكان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى (وهو على كل شئ قدير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الاشياء التى من جملتها احياؤهم لما ان نسبة قدرته الى الكل سواء

والثالث كذا وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يزيد بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ماوعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال * والى هذا وقعت الاشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله جئتهم والجمع فى قوله ان أنتم لطيفة وهى ان الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم ايها المدعون للرسالة مبطلون * ثم بين تعالى ان ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لايعلم شيأ أية فائدة فى الاخبار عن الطبع على قلبه نقول المعنى هو ان من لايعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل * ثم انه تعالى سلى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (فاصبر ان وعد الله حق) أى ان صدقك يبين وقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة الى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء الى الايمان فانه او سكت لقال الكافر انه متقلب الرأى لا ثبات له والله أعلم بالصواب * واليه المرجع والمآب * والحمد لله رب العالمين * وصلاته على سيد المرسلين * وآله وصحبه أجمعين

* (سورة لقمان عليه السلام مكية كلها الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ولو أن مافى الارض من شجرة الآيتين او الا آية نزلت بالمدينة وهى الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لان الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهى ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) وجه ارتباط اول هذه السورة بآخر ماقبلها هو ان الله تعالى لما قال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل اشارة الى كونه معجزة وقال ولئن جئتهم بآية اشارة الى انهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله الم تلك آيات الكتاب الحكيم أى هذه آيات ولم يؤمنوا بها والى هذا أشار بعد هذا بقوله واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا * وقوله (هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فقوله هدى أى بيانا وفرقانا وأما التفسير فنقول تفسير قوله تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى وكما قيل هناك ان المعنى بذلك هذا كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ويمكن ان يقال كما قلنا هناك ان تلك اشارة الى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند انزال هذه الآيات التى نزلت مع الم تلك آيات الكتاب الحكيم لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك اشارة الى الكل أى آيات القرآن تلك آيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال فى سورة البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للمتقين فقوله هدى فى مقابلة قوله الكتاب وقوله ورحمة فى مقابلة قوله الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على

(ولئن أرسلنا ريحا فرأوه) أى الأثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بالآثار فانه اسم جنس يعم القليل والكثير (مصفرا)
بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير للسحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم
دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام فى قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم الساد مسد الجوابين
أى وبالله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار ﴿ ٧٣٠ ﴾ فرأوه مصفرا لظلوا (من بعده
يكفرون) من غير تلعثم
وفيه من ذمهم بعد تثبيتهم
وسرعة تزلزلهم بين طرفى
الافراط والتفريط ما لا يخفى
حيث كان الواجب عليهم
أن يتوكلوا على الله تعالى
فى كل حال ويلجؤا اليه
بالاستغفار اذا احتبس عنهم
القطر ولا ييأسوا من روح
الله تعالى ويبادروا
الى الشكر بالطاعة اذا
أصابهم برحمته ولا يفرطوا
فى الاستبشار وأن يصبروا
على بلائه اذا اعترى زرعهم
آفة ولا يكفروا بنعمائه
فعكسوا الامر وأبوا
ما يجديهم وأتوا بما يرديهم
(فانك لا تسمع الموتى) لما
انهم مثلهم لانسداد
مشاعرهم عن الحق
(ولا تسمع الصم الدعاء اذا
ولوا مدبرين) تقييد الحكم
بما ذكر لبيان كمال سوء حال
الكفرة والتنبيه على أنهم
جامعون لخصلتى السوء نبو
أسماعهم عن الحق
واعراضهم عن الاصغاء
اليه ولو كان فيهم احداهما
لكفاهم ذلك فكيف
وقد جمعوهما فان الاصم
المقبل الى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته شيئ من كلامه وان لم يسمعه أصلا وأما اذا كان
معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيئا وقرئ بالياء المفتوحة ورفع الصم (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) سموا عميا
اما لفقدهم المقصود الحقيقى من الابصار أو لعمى قلوبهم وقرئ تهدى العمى (ان تسمع) أى ما تسمع (الا من يؤمن

معنى ذى الحكمة كقوله تعالى فى عيشة راضية أى ذات رضا (المسئلة الثانية) قال
هناك للمتقين وقال ههنا للمحسنين لانه لما ذكر انه هدى ولم يذكر شيئا آخر قال للمتقين
أى يهتدى به من يتقى الشرك والعناد والتعصب وينظر فيه من غير عناد ولما زاد ههنا
رحمة قال للمحسنين أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الاحسان فالمحسن هو
الآتى بالايمان والمتقى هو التارك للكفر كما قال تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم
محسنون ومن جانب الكفر كان متقيا وله الجنة ومن أتى بحقيقة الايمان كان محسنا
وله الزيادة لقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولانه لما ذكر انه رحمة قال
للمحسنين لان رحمة الله قريب من المحسنين (المسئلة الثالثة) قال هناك الذين يؤمنون
بالغيب ويقيمون الصلاة وقال ههنا الذين يقيمون الصلاة ولم يقل يؤمنون لما بينا ان المتقى
هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمنا والمحسن هو الآتى بحق الايمان يلزمه ان
لا يكون كافرا فلما كان المتقى دالا على المؤمن فى الالتزام صرح بالايمان هناك تبيينا
ولما كان المحسن دالا على الايمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى الذين يقيمون
الصلاة قد ذكرنا ما فى الصلاة واقامتها مرارا وما فى الزكاة والقيام بها وذكرنا فى تفسير
الانفال فى أوائلها ان الصلاة ترك التشبه بالسيد فانها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى
تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة وترك التشبه لازم على العبد أيضا فى أمور فلا يجلس
عند جلوسه ولا يتكى عند اتكائه والزكاة تشبه بالسيد فانها دفع حاجة الغير والله دافع
الحاجات والتشبه لازم على العبد أيضا فى أمور كما ان عبد العالم لا يتلبس بلباس الاجناد
وعبد الجندى لا يتلبس بلباس الزهاد وبهما تتم العبودية * ثم قال تعالى (ومن الناس من
يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين)
لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار انهم يتركون
ذلك ويشتغلون بغيره ثم ان فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الاول) ان ترك الحكمة
والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو ان الحديث اذا كان لهوا لا فائدة فيه كان اقبح
(الثالث) هو ان اللهو قد يقصد به الاحماض كما ينقل عن ابن عباس انه قال أحمضوا ونقل
عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال روحوا القلوب ساعة فساعة رواه الديلمى عن أنس
مرفوعا ويشهد له ما فى مسلم يا حنظلة ساعة وساعة والعوام يفهمون منه الامر بما يجوز
من المطايبة والخواص يقولون هو أمر بالنظر الى جانب الحق فان الترويح به لا غير فلما
لم يكن قصدهم الا الاضلال لقوله ليضل عن سبيل الله كان فعله أدخل فى القبيح ثم قوله تعالى
بغير علم عائد الى الشراء أى يشترى بغير علم ويتخذها أى يتخذ السبيل هزوا أولئك لهم
عذاب مهين قوله مهين اشارة الى أمر يفهم منه الدوام وذلك لان الملك اذا أمر بتعذيب
عبد من عبيده فالجلاد ان علم انه ممن يعود الى خدمة الملك ولا يتركه الملك فى الحبس يكرمه
ويخفف من تعذيبه وان علم انه لا يعود الى ما كان عليه وأمره قد انقضى فانه لا يكرمه
﴿ فقوله ﴾

بآياتنا) فان ايمانهم يدعوهم الى التدبر فيها وتلقيها القبول أو الامن بشارف الايمان بها وتقبل عليها اقبالا لاانفا (فهم
مسلمون) منقادون لما تأمرهم به من الحق (الله الذى خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر أى ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف
أساس أمركم كقوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا أى خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة)
وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بأبدانكم ﴿ ٧٣١ ﴾ (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) اذا أخذ منكم السن
وقرئ بضم الضاد فى الكل
وهو أقوى لقول ابن عمر
رضى الله عنهما قرأتها
على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاقرأنى من ضعف
وهما لغتان كالفقر والفقر
والتنكير مع التكرير لان المتقدم
غير المتاخر (يخلق ما يشاء)
من الاشياء التى من جملتها
ماذكر من الضعف والقوة
والشيبة (وهو العليم القدير)
المبالغ فى العلم والقدرة فان
الترديد فيما ذكر من الاطوار
المختلفة من أوضح دلائل
العلم والقدرة (ويوم تقوم
الساعة) أى القيامة سميت
بها لانها تقوم فى آخر ساعة
من ساعات الدنيا أو لانها
تقع بغتة وصارت علما لها
كالنجم للثريا والكوكب
للزهرة (يقسم المجرمون
ما لبثوا) أى فى القبور أو فى
الدنيا والاول هو الاظهر
لان لبثهم مغيى بيوم البعث
كما سيأتى وليس لبثهم فى
الدنيا كذلك وقيل فيما بين
فناء الدنيا والبعث وانقطاع
عذابهم وفى الحديث ما بين
فناء الدنيا والبعث أربعون
وهو محتمل للساعة والايام والاعوام وقيل لا يعلم أهى أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم
نسيانا أو كذبا أو تخمينا (كذلك كانوا يؤفكون) مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق (وقال
الذين أوتوا العلم والايمان) فى الدنيا من الملائكة والانس

فقوله عذاب مهين اشارة الى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر فان عذاب
المؤمن ليطهره فهو غير مهين * ثم قال تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن
لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) أى يشترى الحديث الباطل والحق الصراح يأتيه مجانا
يعرض عنه واذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث ان المشترى يطلب
المشترى مع انه يطلبه ببذل الثمن ومن يأتيه الشئ لا يطلبه ولا يبذل شيأ ثم ان الواجب
أن يطلب العاقل الحكمة بأى شئ يجده ويشتريها وهم ما كانوا يطلبونها واذا جاءتهم
مجانا ما كانوا يسمعونها ثم ان فيه أيضا مراتب (الاولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح
(والثانى) الاستكبار ومن يشترى حكاية رستم وبهرام ويحتاج اليها كيف يكون
مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها وانما يستكبر الشخص عن الكلام اذا كان
يقول انا أقول مثله فمن لا يقدر بصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على
الحكمة البالغة التى من عند الله (الثالث) قوله تعالى كأن لم يسمعها شغل المتكبر الذى
لا يلتفت الى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله كأن فى أذنيه وقرا أدخل
فى الاعراض * ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أى له عذاب مهين فبشره انت به
وأوعده أو يقال اذا كان حاله هذا فبشره بعذاب أليم * وقوله تعالى (ان الذين آمنوا
وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم)
لما بين حال من اذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات يقبلها وكما
ان ذلك له مراتب من التولية والاستكبار فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل
به فان من سمع شيأ وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم ان هذا
له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف (احداها) توحيد العذاب وجمع الجنات
اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة
بالاضافة الى المعرف اشارة الى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها ايصالا للراحة الى القلب
ولا يبين النقمة وانما ينبه عليها تنبيها (الثالثة) قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون
وانما أشار الى الخلود بقوله مهين وصرح فى الثواب بالخلود بقوله خالدين فيها (الرابعة)
أكد ذلك بقوله وعد الله حقا ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره فبشره بعذاب
وقال ههنا بنفسه وعد الله ثم لم يقل أبشركم به لان البشارة لا تكون الا بأعظم ما يكون
لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله وانما تكون بشارتهم منه برحمته
ورضوانه كما قال تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ولولا
قوله منه لما عظمت البشارة ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة
من غير اضافة فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون
نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها بل بها وبما ذكر بعدها الى قوله تعالى نزلا من
غفور رحيم والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو العزيز الحكيم كامل

(لقد لبثتم فى كتاب الله) فى علمه او قضائه وما كتبه وعينه او فى اللوح او القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (الى يوم البعث) ردوا بذلك ماقالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذى كانو ينكرونه وكانوا يسمعون انه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زمانا مديدا وان لم يعتقدوا تحققه فردالعالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا الى غاية بعيدة كانوا يسمعونها ﴿٧٣٢﴾ وينكرونها وبكتوهم بالاخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذى كنتم توعدون فى الدنيا (ولكنكم كنتم لاتعلمون) أنه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال ﴿ قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ﴿ ثم القفول فقد جئنا خراسانا (فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم) أى عذرهم وقرئ تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وان توسط بينهما فاصل (ولاهم يستعتبون) لايدعون الى مايقتضى اعتابهم أى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا اليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فاعتبته أى استرضانى فارضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم ومايقولون ومايقال لهم ويفعل بهم من رد اعتذارهم

القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل كامل العلم يفعل الافعال كما ينبغى فلايعذب من يؤمن ولايثيب من يكفر ﴿ ثم قال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها) بين عزته وحكمته بقوله خلق السموات بغير عمد اختلف قول العلماء فى السموات فمنهم من قال انها مبسوطة كصحيفة مستوية وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالى رحمه الله قال نحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لاتجوز وان كان فى الباب خبر نؤوله بما يحتمله فضلا من أن ليس فى القرآن والخبر مايدل على ذلك صريحا بل فيه مايدل على الاستدارة كما قال تعالى كل فى فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب ان يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهى مخلوقة بقدرة الله لاموجودة بايجاب وطبع واذا علم هذا فقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لانهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس الابقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد أى ليس على شئ يمنعها الزوال من موضعها وهى لاتزول الابقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى ان السموات باسرها ومجموعها لامكان لها لان المكان مايعتمد عليه مافيه فيكون متمكنا والحيز مايشار الى مافيه بسببه فيقال ههنا وهناك وعلى هذا قالوا ان من يقع من شاهق جبل فهو فى الهواء فى حيز اذ يقال له هو ههنا وهناك وليس فى مكان اذ لايعتمد على شئ فاذا حصل على الارض حصل فى مكان اذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلاعمد لها وقوله ترونها فيه وجهان (أحدهما) انه راجع الى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) انه راجع الى العمد أى بغير عمد مرئية وان كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وارادته ﴿ ثم قال تعالى (والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم) أى جبالا راسية ثابتة ان تميد أى كراهية ان تميد وقيل المعنى أن لاتميد واعلم ان الارض ثباتها بسبب ثقلها والاكانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما ترى الاراضى الرملة ينتقل الرمل الذى فيها من موضع الى موضع ثم قال تعالى وبث فيها من كل دابة أى سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكنا الارض وحركنا الدواب ولو كانت الارض متزلزلة وبعض الاراضى يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التى لاتعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب اما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ثم قال تعالى وانزلنا من السماء ماء هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى ان ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات والعدول من المغايبة الى النفس فيه فصاحة وحكمة اما الفصاحة فذكورة فى باب

(ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بامثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان أنتم الامبطلون) أى مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) لايطلبون العلم ولايتحرون الحق بل

﴿ الالتفات ﴾

الاتفات من ان السامع اذا سمع كلاما طويلا من نمط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه
الا ترى انك اذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمر وكذا ثم ان بكرا
قال قولا حسنا يستطاب لما قد تكرر القول مرارا واما الحكمة فمن وجهين (أحدهما)
أن خلق الارض ثقيلا والسماء فى غير امكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع
لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها اختيارا فنقول الاول طبيعى والآخر اختيارى
للحيوان ولكن لا يشك أحد فى أن الماء فى الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء
لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا اذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى فقال وأنزلنا
من السماء (الثانى) هو ان انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة فى كل زمان متكثرة فى كل
مكان فأسنده الى نفسه صريحا ليتنبه الانسان لشكر نعمته فيزيده من رحمته وقوله
تعالى فأنبتنا فيها من كل زوج أى من كل جنس وكل جنس فتحته زوجان لان النبات اما
أن يكون شجرا واما ان يكون غير شجر والذى هو الشجر اما أن يكون مثمرا واما أن يكون
غير مثمر والمثمر كذلك ينقسم قسمين وقوله تعالى كريم أى ذى كرم لانه يأتى كثيرا من
غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض ❊ ثم قال تعالى (هذا خلق الله فأرونى ماذا
خلق الذين من دونه) يعنى الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق
وتشتغلون بعبادة المخلوق ❊ ثم قال تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) أى بين أو مبين
للعاقل انه ضلال وهذا لان ترك الطريق والحيد عنه ضلال ثم ان كان الحيد يمنة أو يسرة
فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد الى وراء فانه يكون غاية الضلال
فالمقصد هو الله تعالى فمن يطلبه و يلتفت الى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال لكن من
وجهه الى الله قد يصل الى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ومن يطلبه ولا يلتفت الى
ما سواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب واما الذى تولى
لا يصل الى المقصود أصلا وان دام فى السفر والمراد بالظالمين المشركون الواضعون
لعبادتهم فى غير موضعها او الواضعون أنفسهم فى عبادة غير الله ❊ ثم قال تعالى (ولقد
آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم باشراك من
لا يخلق شيئا بمن خلق كل شئ بقوله هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه و بين
أن المشرك ظالم ضال ذكر ما يدل على انضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وان لم يكن
هناك نبوة وهذا اشارة الى معنى وهو ان اتباع النبى عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه
اظهارا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبى عليه
السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وانه أدركه بالحكمة وقوله ولقد آتينا لقمان
الحكمة عبارة عن توفيق العمل بالعلم فكل من أوتى توفيق العمل بالعلم فقد أوتى الحكمة
وان أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول حصول العمل على وفق المعلوم
والذى يدل على ما ذكرنا ان من تعلم شيئا ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وانما

يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق و يوجب تكذيب الحق (فاصبر) على
ما تشاهد منهم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة (ان وعد الله حق) وقد وعدك بالنصرة واظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولا بد
من انجازه والوفاء به لامحالة (ولا يستخفنك) لا يحملنك على الخفة والقلق (الذين لا يوقنون) بما تتلو عليهم من الآيات البينة
بتكذيبهم اياها وايذائهم اياك بأباطيلهم التي ❊ ٧٢٣ ❊ من جملتها قولهم ان أنتم الا مبطلون فانهم شاكون ضالون ولا يستبدع
منهم أمثال ذلك وقرئ بالنون
المخففة وقرئ ولا يستحقنك
من الاستحقاق أى لا يفتننك
فيملكوك و يكونوا أحق بك
من المؤمنين وأيا ما كان فظاهر
النظم الكريم وان كان نهيا
للكفرة عن استخفافه لكنه فى
الحقيقة نهى له عليه السلام
عن التأثر من استخفافهم
والافتتان بفتنتهم على طريق
الكناية كما فى قوله تعالى ولا
يجرمنكم شنآن قوم على ان لا
تعدلوا ❊ عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم من قرأ سورة
الروم كان له من الاجر عشر
حسنات بعدد كل ملك يسبح
الله تعالى بين السماء والارض
وأدرك ما ضيع فى يومه وليلته

(سورة لقمان مكية وقيل الا الذين
يقيمون الصلاة و يؤتون
الزكاة فان وجوبهما بالمدينة
وهو ضعيف لانه ينافى
شرعيتهما بمكة وقيل الا ثلاثا
من قوله ولو أن ما فى الارض
من شجرة أقلام
وهى أربع أو ثلاث وثلاثون
آية)

❊ بسم الله الرحمن الرحيم ❊
(الم تلك آيات الكتاب)
سلف بيانه فى نظائره (الحكيم)
أى ذى الحكمة لاشتماله عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله او قائله فحذف المضاف وأقيم
المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل

يكون مبخوتا ألا ترى أن من يلقي نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال انه حكيم وان ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة لعدم علمه به أولا ومن يعلم أن الالقاء فيه اهلاك النفس ويلقي نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال انه حكيم وان علم ما يكون في فعله ثم الذي يدل على ما ذكرنا قوله تعالى أن اشكر لله فان أن في مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله ايتاء الحكمة بقوله أن اشكر لله وهو كذلك لأن من جملة ما يقال ان العمل موافق للعلم لأن الانسان اذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر فان اشتغل بالاهم كان عمله موافقا لعلمه وكان حكمة وان أهمل الاهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة في شئ لكن شكر الله أهم الاشياء فالحكمة أول ما تقتضي ذلك

ثم ان الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع الا الشاكر * بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غني حميد) أي الله غير محتاج الى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه وفي الآية مسائل ولطائف (الاولى) فسر الله ايتاء الحكمة بالامر بالشكر لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي أن يكون قد أوتي الحكمة والجواب أن قوله تعالى أن اشكر لله أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين وفي الكافر الامر بالشكر أمر تكليف (المسئلة الثانية) قال في الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل وفي الكفران ومن كفر فان الله غني وان كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد كقول القائل من دخل داري فهو حر ومن يدخل داري فهو حر فنقول فيه اشارة الى معنى وارشاد الى أمر وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغي أن يكرر والكفر ينبغي أن ينقطع فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ولأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبدا يكون منه شئ في العدم يريد الشاكر ادخاله في الوجود كما قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك وكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فأشار اليه بصيغة المستقبل تنبيها على أن الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضي (المسئلة الثالثة) قال تعالى هنا ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران وقال في سورة الروم من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون وههنا الذكر للترغيب لأن وعظ الاب للابن يكون بطريق اللطف والوعد وقوله ومن عمل صالحا يحقق ما ذكرنا أولا لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الاعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله ومن كفر فان الله غني عن حمد الحامدين حميد في ذاته من غير حمدهم وانما الحامد ترتفع

﴿مرتبته﴾

بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن فهو عقيد أي معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الاشارة وقرئا بالرفع على أنهما خبران آخران لاسم الاشارة أو لمبتدأ محذوف (للمحسنين) أي العاملين للحسنات فان أريد بها مشاهيرها المعهودة في الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوه من الحسنات على طريقة قوله * الالمعي ﴿٧٣٤﴾ الذي يظن بك الظن * كأن قد رأى وقد سمعا * وان أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين سائر شعبها لاظهار فضلها وانافتها على غيرها وتخصيص الوجه الاول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الاخير بصورة كونه مبتدأ مما لا وجه له (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطري العلم والعمل وقد مر ما فيه من المقال في مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه او بتقدير الموصوف ومن في قوله تعالى (من يشتري لهو الحديث) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذي يشتري أو فريق يشتري على أن مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما في حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث ما يلهي عما يعني من المهمات كالاحاديث التي لا أصل لها والاساطير التي لا اعتداد بها والمضاحك وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام والافاضة بمعنى من التبيينية ان

مرتبته بكونه حامدالله تعالى * ثم قال تعالى (واذقال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) عطف على معنى ماسبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا فى نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لان علو مرتبة الانسان بان يكون كاملا فى نفسه ومكملا لغيره فقوله أن اشكر اشارة الى الكمال وقوله واذقال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل وفى هذا لطيفة وهى ان الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث ارشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبى عليه السلام الذى أرشد الاجانب والاقارب فان ارشاد الولد امر معتاد واما تحمل المشقة فى تعليم الاباعد فلا ثم انه فى الوعظ بدأ بالاهم وهو المنع من الاشراك وقال ان الشرك لظلم عظيم اما انه ظلم فلانه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم فى عبادة الخسيس اولانه وضع العبادة فى غير موضعها وهى غير وجه الله وسبيله واما انه عظيم فلانه وضع فى موضع ليس موضعه ولا يجوز أن يكون موضعه وهذا لان من ياخذ مال زيد و يعطى عمرا يكون ظلما من حيث انه وضع مال زيد فى يد عمرو ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق واما الاشراك فوضع المعبودية فى غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا * ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين انها غير ممتنعة بل هى واجبة لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الابوين ثم بين السبب فقال حملته أمه يعنى لله على العبيد نعمة الايجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله للام ماله صورة ذلك وان لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود و بالرضاع تحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده وفصاله فى عامين أى صارت بقدرته أيضا سبب بقائه فاذا كان منهما ماله صورة الوجود والبقاء وجب عليه ماله شبه العبادة من الخدمة فان الخدمة لها صورة العبادة فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب فى حق الام فنقول خص الام بالذكر وفى الاب ما وجد فى الام فان الاب حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو ابلغ وقوله أن اشكر لى ولوالديك لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله فان الوجود فى الحقيقة من الله وفى الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال أن اشكر لى ولوالديك ثم بين الفرق وقال الى المصير يعنى نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى فى الدنيا والآخرة فان لى المصير اونقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير الى * ثم قال تعالى (وان جاهداك على ان تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون) يعنى ان خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة مالم يكن فيها ترك طاعة الله اما اذا أفضى اليه فلا تطعهما وقد

أو يدبا لحديث المنكر و بعنى التبعضية ان أريد به الاعم من ذلك وقيل نزلت الآية فى النضر بن الحرث اشترى كتب الاعاجم وكان يحدث بها قريشا و يقول ان كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فانا احدثكم بحديث رستم واسفنديار والا كاسرة وقيل كان يشترى القيان و يحملهن على معاشرة من أراد الاسلام ويمنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أى دينه الحق الموصل اليه تعالى أوعن قراءة كتابه الهادى اليه تعالى وقرئ ليضل بفتح الياء أى ليثبت و يستمر على ضلاله أو يزداد فيه (بغير علم) أى بحال مايشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (و يتخذها) بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فانه مما يذكر و يؤنث وهو دين الاسلام أوالقرآن أى و يتخذها (هزوا) مهزوا به وقرئ و يتخذها بالرفع عطفا على يشترى وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للاضلال (لهم عذاب مهين) لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (واذا تتلى عليه) أى على المشترى أفراد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الاول باعتبار لفظة من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها (آياتنا) التى هى آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين (ولى) أعرض عنها غير معتد بها (مستكبرا) مبالغا فى التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبرا والاصل كأنه فحذف ضمير الشان وخففت المثقلة أى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز الى أن من سمعها لا يتصور منه التولية

والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال * كأنك لم تجزع على ابن طريف *
(كأن في اذنيه وقرا) حال من ضمير لم يسمعها أي مشبها حاله حال من في أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز ان يكونا استئنافين وقرئ
في أذنيه بسكون الذال (فبشره بعذاب أليم) أي فأعلمه بان العذاب المفرط في الايلام لاحق به لامحالة وذكر البشارة للتهكم
(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى اثر بيان *٧٣٦* حال الكافر بها أي الذين آمنوا بآياته
تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ما ذكر من ايمانهم وأعمالهم (جنات النعيم) أي نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبر ان والاحسن ان يجعل لهم هو الخبر لان وجنات النعيم مرتفعا به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم لاشتماله على ضميريهما والعامل ما تعلق به اللام (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان الاول لنفسه والثاني لغيره لان قوله تعالى لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقا فدل على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعا لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذي لا يغلبه شيء ليمنعه من انجاز وعده وتحقيق وعيده (الحكيم) الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة (خلق السموات بغير عمد) الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وابطال
أمر الاشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد كأهب جمع اهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته
أي بغير دعائم على ان الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جيء به للاستشهاد على ماذكر من خلقه تعالى لها
غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك اوصفة لعمد أي خلقها

ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت وقال ههنا واتبع سبيل من اناب الي يعني صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك فانه مربي عقلك كما ان الوالد مربي جسمك * ثم قال تعالى (يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) لما قال فانبئكم بما كنتم تعملون وقع لابنه ان ما يفعل في خفية يخفى فقال يابني انها أي الحسنة والسيئة ان كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فتكن بالفاء لافادة الاجتماع يعني ان كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لان الفاء للاتصال بالتعقيب (المسئلة الثانية) لوقيل الصخرة لابد من ان تكون في السموات اوفي الارض فما الفائدة في ذكرها ولان القائل لوقال هذا رجل أوامرأة او ابن عمرو لايصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا في أحد القسمين فكيف يفهم هذا فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ماقاله بعض المفسرين وهو ان المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لافي الارض ولافي السماء (والثاني) ماقاله الزمخشري وهو ان فيه اضمارا تقديره فتكن في صخرة أوفي موضع آخر في السموات أوفي الارض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز اما الثاني فلما بينتم ان من قال هذا في دار زيد أوفي غيرها اوفي دار عمرو لايصح لكون دار عمرو داخلة في قوله اوفي غيرها واما الاول فلان قول القائل هذا في دار زيد اوفي دار عمرو اوفي غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الاخص اونقول خفاء الشيء يكون بطرق منها ان يكون في غاية الصغر ومنها ان يكون بعيدا ومنها ان يكون في ظلمة ومنها ان يكون من وراء حجاب فان انتفت الامور باسرها بان يكون كبيرا قريبا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة فاثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله انها ان تك مثقال حبة اشارة الى الصغر وقوله فتكن في صخرة اشارة الى الحجاب وقوله اوفي السموات اشارة الى البعد فانها ابعد الابعاد وقوله اوفي الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض اظلم الاماكن وقوله يات بها الله ابلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له الشيء ولايقدر على اظهاره غيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله اي يظهرها الله للاشهاد وقوله ان الله لطيف أي نافذ القدرة خبير اي عالم ببواطن الامور * ثم قال تعالى (يابني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور) لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته امره بما يلزم من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصا وبهذا يعلم ان الصلاة كانت في سائر الملل غير ان هيئتها اختلفت ثم قال تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اى اذا كملت انت في نفسك بعبادة الله فكمل

﴿ غيرك ﴾

بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز الى أنه تعالى عمدها بعمد لاترونها هى عمد القدرة (والقى فى الارض رواسى) جبالا ثوابت وقدم مافيه من الكلام فى سورة الرعد البديع فى قرار الارض اثر بيان صنعه الحكيم فى قرار السموات أى ألقى فيها جبالا ثوابت (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم فان بساطة أجزائها تقتضى تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منهم لذاته أو لشئ من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص ﴿٧٣٧﴾ (وبث فيها من كل دابة) من كل نوع من أنواعها (وانزلنا من السماء ماء) هو المطر (فانبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم) من كل صنف كثير المنافع والالتفات الى نون العظمة فى الفعلين لابراز مزيد الاعتناء بامرها (هذا) أى ماذكر من السموات والارض وماتعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) أى مخلوقه (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه فى العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأرونى متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون فى ضلال مبين) اضراب عن تبكيتهم بماذكر الى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئا فيهتدوا به الى العلم ببطلان ماهم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم باشراكهم واضعون للشئ فى غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لانفسهم ﴿٩٣﴾ س تعريضها للعذاب الخالد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من اولاد آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى ادرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتى قبل

غيرك فان شغل الانبياء و ورثتهم من العلماء هو ان يكملوا فى انفسهم و يكملوا غيرهم فان قال قائل كيف قدم فى وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهى عن المنكر وقبل قدم النهى عن المنكر على الامر بالمعروف فانه اول ماقال يابنى لاتشرك ثم قال يابنى اقم الصلاة فنقول هو كان يعلم من ابنه انه معترف بوجود الله فما امره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذى يترتب على هذا المعروف فان المشرك بالله لايكون نافيا لله فى الاعتقاد وان كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف فى مقابلته منكر والمعروف فى معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لانه ورد فى التفسير ان ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى اسلم واما ههنا فامره امرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى واصبر على ما اصابك يعنى ان من يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر يؤذى فامره بالصبر عليه وقوله ان ذلك من عزم الامور أى من الامور الواجبة المعزومة أى المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول أكلى فى النهار رغيف خبز أى ماكولى ☼ ثم قال تعالى (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا ان الله لايحب كل مختال فخور) لما امره بان يكون كاملا فى نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (احدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثانى) التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه فقال ولا تصعر خدك للناس تكبرا ولا تمش فى الارض مرحا تبخترا ان الله لايحب كل مختال يعنى من يكون به خيلاء وهو الذى يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر فخور يعنى من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذى يرى عظمة لنفسه فى عينه وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال اقم الصلاة ثم قال وأمر بالمعروف وفى النهى قدم مايورثه التكميل على مايورثه الكمال حيث قال ولا تصعر خدك ثم قال لاتمش فى الارض مرحا لان فى طرف الاثبات من لايكون كاملا لايمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا لانه لايتكبر على الغير الا عند اعتقاده انه اكبر منه من وجه واما من يكون متبخترا فى نفسه فقد لايتكبر ويتوهم انه يتواضع للناس فقدم نفى التكبر ثم نفى التبختر لانه لوقدم نفى التبختر لزم منه نفى التكبر فلا يحتاج الى النهى عنه ومثاله انه لايجوز أن يقال لاتفطر ولاتأكل لان من لايفطر لايأكل ويجوز أن يقال لاتأكل ولاتفطر لان من لاياكل قد يفطر بغير الاكل ولقائل أن يقول ان مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لاتفطر ولاتأكل أى لاتفطر بان تأكل ولايكون نهيين بل واحدا ☼ ثم قال تعالى (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير) لما قال ولاتمش فى الارض مرحا وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذى يخالف غاية الاختلاف وهو مشى المتماوت الذى يرى من نفسه الضعف تزهدا فقال واقصد فى مشيك اى كن وسطا بين الطرفين المذمومين وفى الآية مسائل (الاولى) هل للامر بالغض من الصوت مناسبة مع

الامر بالقصد في المشي فنقول نعم سواء علمناها نحن أولم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد مالا يحصره حد ولا يحصيه عدو لا يعلمه الا واحد والذي يظهر وجوه (الاول) هو ان الانسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرا فاقدر الله الانسان على تحصيلها بالمشي فان عجز عن ادراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له او يأتيه مشيا اليه فان عجز عن ابلاغ كلامه اليه يكتب اليه و بعض الحيوانات يشارك الانسان في تحصيل المطلوب بالصوت كما ان الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لاتتعدى الى غيرها والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشي والصوت مفضيين الى مقصود واحد لما أرشده الى احدهما أرشده الى الآخر (الثاني) هو أن الانسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون وقول باللسان ولايشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه الا لله وقد اشار اليه بقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل أي اصلح ضميرك فان الله خبير بخفي الامور فقال واقصد في مشيك واغضض من صوتك اشارة الى التوسط في الافعال والاقوال (الثالث) هو ان لقمان أراد ارشاد ابنه الى السداد في الاوصاف الانسانية والاوصاف التي هي للملك الذي هو أعلى مرتبة منه والاوصاف التي للحيوان الذي هو أدنى مرتبة منه فقوله وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اشارة الى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لايأمر ملكا آخر بشيء ولاينهاه عن شيء وقوله ولاتصعر خدك للناس ولاتمش في الارض مرحا الذي هو اشارة الى عدم التكبر والتجبر اشارة الى المكارم التي هي صفة الملائكة فان عدم التكبر والتجبر صفاتهم وقوله واقصد في مشيك واغضض من صوتك اشارة الى المكارم التي هي صفة الحيوان ثم قال تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير وفيه مسائل (الاولى) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي نقول اما على قولنا ان المشي والصوت كلاهما موصلان الى شخص مطلوب ان أدركه بالمشي اليه فذاك والا فيوقفه بالنداء فنقول رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي داخل الاذن واما السرعة في المشي فلا تؤذي أو ان كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشي واما على قولنا الاشارة بالمشي والصوت الى الافعال والاقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى (المسئلة الثانية) كيف يفهم كونه انكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد اشد تنفيرا نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما ان المراد ان انكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ماذكرتم وماذكرتم في أكثر الامر لمصلحة وعمارة فلا ينكر بخلاف صوت الحمير وهذا هو

بختونين كان قاضيا في بني اسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا والحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الانسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهورا وان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ماسميت حكيما وان داود ✻ ٧٣٨ ✻ عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري فتفكر داود فيه فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بان يذبح شاة ويأتي باطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بان يأتي باخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضا فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شيء اذا طابا وأخبث شيء اذا خبثا ومعنى (أن اشكر لله) أي اشكره تعالى على أن ان مفسرة فان ايتاء الحكمة في معنى القول وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ماقبله موجب للامتثال بالامر أي ومن يشكره تعالى (فانما يشكر لنفسه) لان منفعته التي هي ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها (ومن كفر فان الله غني) عن كل شيء فلا يحتاج الى الشكر ليتضرر بكفر من كفر (حميد) حقيق بالحمد وان لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فاثباته له تعالى اثبات للشكر له قطعا (واذ قال لقمان لابنه) أنعم وقيل أشكر وقيل ✻ الجواب ✻ ماثان (وهو يعظه يابني) تصغير اشفاق وقرئ يابني باسكان الياء وبكسرها (لاتشرك بالله) قيل كان ابنه كافرا فلم يزل به حتى أسلم ومن وقف على لاتشرك جعل بالله قسما (ان الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهي أو للانتهاء عن الشرك

(ووصينا الانسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى اثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى (حملته أمه) الى قوله فى عامين اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى (وهنا) حال من أمه أى ذات وهن او مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهنا وقوله تعالى (على وهن) صفة للمصدر أى كائنا على وهن أى تضعف ضعفا فوق ضعف فانها لاتزال يتضاعف ضعفها وقرئ وهنا على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا

الجواب الثانى (المسئلة الثالثة) أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو نقول يحتمل ان يكون من باب أطوع له من بنانه بمعنى أشد طاعة فان افعل لايجئ فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب الا ماشذ كقولهم أطوع له من كذا للتفضيل على المطيع وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول وأحمق من فلان من باب العيوب وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر او نقول هو من باب اشغل ماخوذا من نكر الشئ فهو منكر وهذا انكور منه وعلى هذا فله معنى لطيف وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك والحمار لومات تحت الحمل لايصيح ولو قتل لايصيح وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ويمكن ان يقال هو من نكر كاجدر من جدر * ثم قال تعالى (ألم تروا ان الله سخر لكم مافى السموات والارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لما استدل بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكاية لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق الحكمة وماجاء به النبى عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الاخلاق كلها حكمة بالغة ولو كان تعبدا محضا للزم قبوله فضلا عن انه على وفق الحكمة استدل على الوحدانية بالنعمة لانا بينا مرارا ان الملك يخدم لعظمته وان لم ينعم ويخدم لنعمته أيضا فلما بين انه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد والقائه فى الارض الرواسى وذكر بعض النعم بقوله وأنزلنا من السماء ماء ذكر بعده عامة النعم فقال سخر لكم مافى السموات أى سخر لاجلكم مافى السموات فان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامر الله وفيها فوائد لعباده وسخر مافى الارض لاجل عباده وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وهى مافى الاعضاء من السلامة وباطنة وهى مافى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى أن العين والاذن شحم وغضروف ظاهر واللسان والانف لحم وعظم ظاهر وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائما وهذا أحسن مما قيل فان على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الانفس فقوله مافى السموات ومافى الارض يكون اشارة الى النعم الآفاقية وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة يكون اشارة الى النعم الانفسية وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع التفاسير ولايبعد أن يكون ماذكرناه منقولا وان لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغا معقولا * ثم قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله) يعنى لما ثبتت الوحدانية بالخلق والانعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره اما الها أو منعما (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب وبيانه هو ان العلم تدخل فيه الاشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون

(وفصاله فى عامين) اى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند ابى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهرا وقد بين وجهه فى موضعه وقرئ وفصله (أن أشكر لى ولوالديك) تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال له من أبر امك ثم امك ثم امك ثم قال بعد ذلك ثم اباك (الى المصير) تعليل لوجوب الامتثال اى الى الرجوع لا الى غيرى فاجازيك على ماصدر عنك من الشكر والكفر (وان جاهداك على ان تشرك بى ماليس لك به) أى بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة (واتبع سبيل من أناب الى) بالتوحيد والاخلاص فى الطاعة (ثم الى مرجعكم) أى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب الى (فانبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم تعملون) بان أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى (يابنى) الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان اثر تقرير مافى مطلعها من النهى عن الشرك وتأكيده بالاعتراض (انها ان تك مثقال حبة من خردل) أى ان الخصلة من الاساءة والاحسان ان تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرئ برفع مثقال

على ان الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لاضافة المثقال الى الحبة كما فى قول من قال * كما شرقت صدر القناة من الدم * أولان المراد به الحسنة أو السيئة (فتكن فى صخرة او فى السموات أو فى الارض) اى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة وحيث كانت فى العالم العلوى او السفلى (يأت بها الله) أى يحضرها ويحاسب عليها (ان الله لطيف) يصل علمه الى كل خفى (خبير) بكنهه وبعدما أمره بالتوحيد * ٧٤٠ * الذى هو أول ما يجب على الانسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له (يابنى اقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد والمحن لاسيما فيما أمرت به (ان ذلك) اشارة الى كل ما ذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من الاشعار ببعد منزلته فى الفضل (من عزم الامور) أى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الامور لمزيد مزيتها مصدر أطلق على المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فاذا عزم الامر أى جد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الامر والنهى وايذان بأن ما بعدها ليس بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) أى لا تمله ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرئ ولا تصاعر وقرئ ولا تصعر من الافعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه وأعلاه (ولا تمش فى الارض مرحا) * والوجه * اى فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تمرح مرحا او لاجل

فى كتاب والذى يكون من الهام ووحى فقال تعالى يجادل ذلك المجادل لامن علم واضح ولامن هدى أتاه من هاد ولامن كتاب وكأن الاول اشارة الى من أوتى من لدنه علما كما قال تعالى وعلمك مالم تكن تعلم (الثانى) اشارة الى مرتبة من هدى الى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى علمه شديد القوى (والثالث) اشارة الى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين وقال فى هذه السورة هدى ورحمة للمحسنين وقال فى السجدة ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فالكتاب هدى لقوم النبى عليه السلام والنبى هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الامين فقال تعالى يجادل من يجادل لابعلم آتيناه من لدنا كشفا ولا بهدى أرسلناه اليه وحيا ولا بكتاب يتلى عليه وعظا ثم فيه لطيفة أخرى وهو انه تعالى قال فى الكتاب ولا كتاب منير لان المجادل منه من كان يجادل عن كتاب ولكن محرف مثل التوراة بعد التحريف فلو قال ولا كتاب لكان لقائل ان يقول لا يجادل من غير كتاب فان بعض ما يقولون فهو فى كتابهم ولان المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم فقال ولا كتاب منير فان ذلك الكتاب مظلم ولما لم يحتمل فى المرتبة الاولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير او حق أو غير ذلك * ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهى فى غاية القبح فان النبى عليه السلام يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم ان ههنا شيئا آخر وهو انهم قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يعنى نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل والقول أدل من الفعل لان الفعل يحتمل أن يكون جائزا ويحتمل أن يكون حراما وهم تعاطوه ويحتمل أن يكون واجبا فى اعتقادهم والقول بين الدلالة فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله لكان الواجب الاخذ بالقول فكيف والقول من الله والفعل من الجهال * ثم قال تعالى (أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) استفهاما على سبيل التعجب فى الانكار يعنى الشيطان يدعوهم الى العذاب والله يدعو الى الثواب وهم مع هذا يتبعون الشيطان ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور) لما بين حال المشرك والمجادل فى الله بين حال المسلم المستسلم لامر الله فقوله ومن يسلم وجهه الى الله اشارة الى الايمان وقوله وهو محسن اشارة الى العمل الصالح فتكون الآية فى معنى قوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى اى تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه الى أعلى المقامات وفى الآية مسائل (الاولى) قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله وقال فى سورة البقرة بلى من أسلم وجهه لله فعدى ههنا بالى وهناك باللام قال الزمخشرى معنى قوله اسلم لله أى جعل نفسه لله سالما أى خالصا

المراح والبطر (ان الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهي او موجبه وتاخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال
وهو بمقابلة الماشي مرحا لرعاية الفواصل (واقصد في مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين الدبيب والاسراع
وعنه عليه الصلاة والسلام سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن وقول عائشة في عمر رضى الله عنهما كان اذا مشى أسرع فالمراد به
ماقوق دبيب المتماوت وقرئ بقطع همزة ✲ ٧٤١ ✲ من أقصد الرامي اذا سدد سهمه نحو الرمية (واغضض
من صوتك) وانقص منه
واقصر (ان أنكر الاصوات)
أى أوحشها (لصوت الحمير)
تعليل للامر على أبلغ وجه
وآكده مبنى على تشبيه الرافعين
أصواتهم بالحمير وتمثيل
أصواتهم بالنهاق وافراط
فى التحذير عن رفع الصوت
والتنفير عنه وافراد الصوت
مع اضافته الى الجمع لما ان المراد
ليس بيان حال صوت كل
واحد من آحاد هذا الجنس
حتى يجمع بل بيان حال صوت
هذا الجنس من بين أصوات
سائر الاجناس وقوله تعالى
(ألم تروا ان الله سخر لكم
مافى السموات ومافى الارض)
رجوع الى سنن ماسلف قبل
قصة لقمان من خطاب
المشركين وتوبيخهم على
اصرارهم على ماهم عليه مع
مشاهدتهم لدلائل التوحيد
والمراد بالتسخير اما جعل
المسخر بحيث ينفع المسخر له
اعم من أن يكون منقادا له
يتصرف فيه كيف يشاء
ويستعمله حسبما يريد كعامة
مافى الارض من الاشياء
المسخرة للانسان المستعملة له
من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع مافى السموات
من الاشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا واما جعله منقادا للامر مذللا على أن معنى لكم لاجلكم فان جميع
مافى السموات والارض من الكائنات مسخرة

والوجه بمعنى النفس والذات ومعنى قوله يسلم وجهه الى الله يسلم نفسه الى الله كما يسلم
واحد متاعا الى غيره ولم يزد على هذا ويمكن أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة
ممن يسلم الى الله لان الى للغاية واللام للاختصاص يقول القائل أسلمت وجهى اليك أى
توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لان التوجه الى الشئ قبل الوصول وقوله
أسلمت وجهى لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها
للوصول اذا علم هذا فنقول فى البقرة قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الا من كان
هودا أو نصارى فقال الله ردا عليهم تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ثم بين فساد قولهم
بقوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله أى أنتم مع انكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل
وتشترون بآياته ثمنا قليلا تدخلون ومن كان بكليته لله لا يدخلها هذا كلام باطل فأورد
عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التى هى الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذى
ليس له أمر الا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ثم بين كذبهم وقال بلى وبين
أن له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله فله أجره عند ربه واما ههنا أراد وعد المحسن
بالثواب والوصول الى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه
بالطريق الاولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة ✲ ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة
الوثقى) أوثق العرى جانب الله لان كل ماعداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ثم
قال تعالى (والى الله عاقبة الامور) يعنى استمسك بعروة توصله الى الله وكل شئ عاقبته
اليه فاذا حصل فى الحال ماليه عاقبته تكون عاقبته فى غاية الحسن وذلك لان من يعلم أن
عاقبة الامور الى واحد ثم يقدم اليه الهدايا قبل الوصول اليه يجد فائدته عند القدوم
عليه والى هذا وقعت الاشارة بقوله وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ✲ ثم قال
تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات
الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) لما بين حال المسلم رجع الى بيان حال
الكافر فقال ومن كفر فلا يحزنك أى لا تحزن اذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن
صدقه يتبين عن قريب لا يحزن بل قد يؤنب المكذب على الزيادة فى التكذيب اذا لم يكن من
الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل واما اذا كان لا يرجو ظهور صدقه
يتألم من التكذيب فقال فلا يحزنك كفره فان المرجع الى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله ان
الله عليم بذات الصدور أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم وذات
الصدور وهى المهلكات ثم ان الله تعالى فصل ماذكرنا وقال نمتعهم قليلا أى بقاؤهم مدة قليلة
ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله ثم نضطرهم أى نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا
بانفسهم عذابا غليظا فيضطرون الى عذاب النار فرارا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين
يعذبونهم بمقامع من نار وفيه وجه آخر لطيف وهو انهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الامر
وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدى ربهم بمحضر الانبياء

لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخراً له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقدمر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرئ أصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين او الخاء او القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ وصالغ وقرئ نعمة (ومن الناس من يجادل فى الله) فى توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام (ولا كتاب منير) أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (واذا قيل لهم) أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الاصنام (أولو كان الشيطان يدعوهم) أى آباءهم لأنفسهم كما قيل فان مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك أى ايتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك (الى عذاب السعير) فهم متوجهون اليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ ولا يهتدون من سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن يسلم وجهه الى الله) بأن فوض اليه مجامع أموره واقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرئ بالتشديد (وهو محسن) أى فى أعماله آت بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقدمر فى آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تعلق بأوثق ما تتعلق به من الاسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى الى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه (والى الله)

وهو يتحقق بقوله تعالى فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ثم قال تعالى

(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) الآية متعلقة بما قبلها من وجهين (أحدهما) انه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين انهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد كله لله لان خالق السموات والارض يحتاج اليه كل ما فى السموات والارض وكون الحمد كله لله يقتضى ان لا يعبد غيره لكنهم لا يعلمون هذا (والثانى) ان الله تعالى لما سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم الينا قال وليس لا يتبين الا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لانهم معترفون بان خالق السموات والارض هو الله وهذا يصدقك فى دعوى الوحدانية ويبين كذبهم فى الاشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك بل أكثرهم لا يعلمون أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يكون فى ضميره من يعطى بل يريد ان له عطاء ومنعا فكذلك ههنا قال لا يعلمون أى ليس لهم علم وعلى الاول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو انهم لا يعلمون ان الحمد كله لله والثانى أبلغ لان قول القائل فلان لا علم له بكذا دون قوله فلان لا علم له، كذا قوله فلان لا ينفع زيدا ولا يضره دون قوله فلان لا يضر ولا ينفع * ثم قال تعالى (لله ما فى السموات والارض ان الله هو الغنى الحميد) ذكر بما يلزم منه وهو أنه يكون له ما فيهما والامر كذلك عقلا وشرعا اما عقلا فلان ما فى السموات المخلوقة مخلوق واضافة خلقه الى من منه خلق السموات والارض لازم عقلا لانها ممكنة والممكن لا يقع ولا يوجد الا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب اهل السنة او بواسطة كما يقوله غيرهم وكيفما فرض فكله من الله لان سبب السبب سبب واما شرعا فلان من يملك أرضا وحصل منها شئ ما يكون ذلك لمالك الارض فكذلك كل ما فى السموات والارض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والارض واذا كان الامر كذلك تحقق ان الحمد كله لله ثم قوله تعالى ان الله هو الغنى الحميد فيه معان لطيفة (أحدها) ان الكل لله وهو غير محتاج اليه غير منتفع به وفيها منافع فهى لكم خلقها فهو غنى لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على ان الحمد كله لله ولا تصلح العبادة الا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال انه غنى عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين وحميد فى نفسه فيتبين به اصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات وما فيها والارض وما فيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى الا الله فهو الغنى المطلق وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون

الحميد المطلق الا الغني المطلق فهو الحميد وعلى هذا الحميد بمعنى المحمود والله اذا قيل له الحميد لا يكون معناه الا الواصف أي وصف نفسه اوعباده باوصاف حميدة والعبد اذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ويحتمل كونه عابدا شاكراله ❊ ثم قال تعالى (ولو أن مافي الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) لما قال تعالى لله مافي السموات والارض وكان ذلك موهما لتناهي ملكه لانحصار مافي السموات ومافي الارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لانهاية لها فقال ولو أن مافي الارض من شجرة اقلام و يكتب بها والابحر مداد لاتفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ووجهها ان العجائب بقوله كن وكن كلمة واطلاق اسم السبب على المسبب جائز يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك و يقال للدواء في حق المريض هذا شفاؤك ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لانه كان امرا عجيبا وصنعا غريبا الوجود من غير أب فان قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شئ في التوراة ولم يبق شئ لم يذكره فقال الذي في التوراة بالنسبة الى كلام الله تعالى ليس الا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية وقيل أيضا انها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وتقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فنزلت الآية دالة على انه خير كثير بالنسبة الى العباد و بالنسبة الى الله وعلومه قليل وقيل ايضا انها نزلت ردا على الكفار حيث قالوا بان مايورده محمد سينفد فقال انه كلام الله وهو لا ينفد وماذكر من اسباب النزول ينافي ماذكرتم من التفسير لانها تدل على أن المراد الكلام فنقول ماذكرتم من اختلاف الاقوال فيه يدل على جواز ماذكرنا لانه اذا صلح جوابا لهذه الاشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم انها عامة وماذكرنا لاينافي هذا لان كلام الله عجيب معجز لايقدر أحد على الاتيان بمثله واذا قلنا بان عجائب الله لانهاية لها دخل فيها كلامه ❊ لايقال انك جعلت الكلام مخلوقا ❊ لانا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب واما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم ان الآية وان كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله فانه بأمر الرسول كتب كذلك وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه ثم ان الآية فيها لطائف (الاولى) قال ولو ان مافي الارض من شجرة اقلام وحد الشجرة وجمع الاقلام ولم يقل ولو أن مافي الارض من الاشجار اقلام ولا قال ولو أن مافي الارض من شجرة قلم اشارة الى التكثير يعني ولو ان بعدد كل شجرة اقلاما (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ثم قوله يمده من بعده سبعة أبحر اشارة الى بحار غير موجودة يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر اخر وقوله سبعة ليس لانحصارها في سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصصت بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة

لا الى أحد غيره (عاقبة الامور) فيجازيه احسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فانه لايضرك في الدنيا ولا في الآخرة وقرئ فلا يحزنك من احزن المنقول من حزن بكسر الزاي وليس بمستفيض (الينا مرجعهم) لا الى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد في الاول باعتبار لفظها (ان الله عليم بذات الصدور) تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب (نمتعهم قليلا) تمتيعا أو زمانا قليلا فان مايزول وان كان بعد أمد طويل بالنسبة الى مايدوم قليل (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ أو يضم الى الاحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لغاية وضوح الامر بحيث اضطروا الى الاعتراف به (قل الحمد لله) على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لايكاد ينكرها المكابرون أيضا (بل أكثرهم لايعلمون) شيئا من الاشياء فلذلك لايعلمون بمقتضى اعترافهم وقيل لايعلمون أن ذلك يلزمهم (لله مافي السموات والارض) فلا يستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغني) عن العالمين (الحميد) المستحق للحمد وان لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو أن مافي الارض من شجرة أقلام) اى لو أن الاشجار اقلام وتوحيد الشجرة لما ان المراد تفصيل الآحاد (والبحر يمده من بعده) اى من بعد نفاده (سبعة ابحر) اى والحال ان البحر المحيط بسعته يمده الابحر السبعة مدا لاينقطع ابدا وكتبت بتلك الاقلام و بذلك المداد كلمات الله (مانفدت كلمات الله) ونفدت تلك الاقلام والمداد كما في قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي وقرئ يمده من الامداد بالياء والتاء واسناد المد الى الابحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه اعظم منها واطم لانها هي المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية

واليها تنصب الانهار العظام اولا ومنها ينصب الى البحر المحيط ثانيا واوايثار جمع القلة فى الكلمات للايذان بان ماذكر لايفى بالقليل منها فكيف بالكثير (ان الله عزيز) لايعجزه شئ (حكيم) لايخرج عن علمه وحكمته امر فلاتنفد كلماته المؤسسة عليهما (ماخلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة) اى الا كخلقها و بعثها فى سهولة التأتى اذلايشغله شان عن شان لان مناط وجود الكل تعلق ارادته الواجبة مع قدرته الذاتية

حسبما يفصح عنه قوله تعالى انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون (ان الله سميع) يسمع كل مسموع (بصير) يبصر كل مبصر لايشغله علم بعضها عن علم بعض وكذلك الخلق والبعث (الم تر) قيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل احد ممن يصلح للخطاب وهو الاوفق لماسبق وما لحق اى الم تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية (أن الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما أن ايلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين واما تسخير النيرين فأمر لاتعدد فيه ولاتجدد وانما التعدد والتجدد فى آثاره وقد أشير الى ذلك حيث قيل (كل يجرى) أى يحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المخالفة المتعددة حسب تعدد الايام جريا مستمرا (الى اجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن ﴿ الليل ﴾ رحمه الله فانه لاينقطع جريهما الاحينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير

والذى يدل عليه وجوه (الاول) هو ان ماهو معلوم عند كل أحد لحاجته اليه هو الزمان والمكان لان المكان فيه الاجسام والزمان فيه الافعال لكن المكان منحصر فى سبعة أقاليم والزمان فى سبعة أيام ولان الكواكب السيارة سبعة وكان المنجمون ينسبون اليها أمورا فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت فى كل كثير (الثانى) هو أن الآحاد الى العشرة وهى العقد الاول ومابعده يبتدأ من الآحاد مرة اخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ثم المئات من العشرات والالوف من المئات اذا علم هذا فنقول أقل مايلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة لانه يحتاج الى طرفين مبدا ومنتهى ووسط ولهذا يقال اقل مايكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف فاذا كانت الثلاثة هو القسم الاول من العشرة التى هو العدد الاصلى تبقى السبعة القسم الاكثر فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ولهذا فان المعدودات فى العبادات من التسبيحات فى تنقلات فى الصلوات ثلاثة والمرات فى الوضوء ثلاث تيسيرا للامر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول اذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام المؤمن يأكل فى معى والكافر يأكل فى سبعة امعاء اشارة الى قلة الاكل وكثرته من غير ارادة السبعة بخصوصها ويحتمل أن يقال ان لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية ابواب اشارة الى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها والذى يدل على ماذكرنا فى السبعة ان العرب عند الثامن يزيدون واوا يقول الفراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد بالسبعة يتم فى العرف ثم بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل فى الاقلام المدد لوجهين (أحدهما) هو ان قوله ولو ان مافى الارض من شجرة اقلام بينا ان المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة اقلام فتكون الاقلام أكثر من الاشجار الموجودة وقوله فى البحر والبحر يمده سبعة أبحر اشارة الى ان البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر فى المعنى (والثانى) هو ان النقصان بالكتابة يلحق المداد اكثر فانه هو النافد والقلم الواحد يمكن ان يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد فى البحر الذى هو كالمداد ثم قال تعالى (ان الله عزيز حكيم) لماذكر ان ملكوته كثير اشار الى ماتحقق ذلك فقال انه عزيز حكيم أى كامل القدرة فتكون له مقدورات لانهاية لها والا لانتهت القدرة الى حيث لاتصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم ففى علمه مالانهاية له فتحقق ان البحر لو كان مدادا لمانفد مافى علمه وقدرته ثم قال تعالى (ماخلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة) لمابين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للحشر وقال ماخلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة ومن لانفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا ثم قال تعالى (ان الله سميع بصير) سميع لمايقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادرا على البعث ومحيطا بالاقوال والافعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل ثم قال تعالى (ألم تر ان الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى

الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير) يحتمل أن يقال ان وجه الترتيب هو ان الله تعالى لما قال ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض على وجه العموم ذكر منهما بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله يولج الليل فى النهار وقوله وسخر الشمس والقمر اشارة الى ما فى السموات وقوله بعد هذا ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله اشارة الى ما فى الارض ويحتمل أن يقال ان وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول وما يهلكنا الا الدهر والدهر هو بالليالى والايام قال الله تعالى هذه الليالى والايام التى تنسبون اليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ثم ان قائلا لو قال ان ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الارض أكثر من التى تحت الارض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس فيكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى ان كنتم لا تعترفون بأن هذه الاشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة الى الله تعالى فالآجال ان كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس الا بالله وقدرته وفى الآية مسائل (الاولى) ايلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد ايلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل وذلك لان الليل اذا كان مثلا اثنى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد ايلاج زمان الليل فى النهار أى يجعل زمان الليل فى النهار وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا اثنى عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا فى النهار ولا يمكن غير هذا لان ايلاج الليل فى النهار محال الوجود فما ذكرنا من الاضمار لا بد منه لكن الاول أولى لان الليل والنهار أفعال والافعال فى الازمنة لان الزمان ظرف فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لان الثانى يجعل الظرف مظروفا اذا ثبت هذا فقوله تعالى يولج الليل فى النهار أى يوجده فى وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم ايجاد الليل على ايجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين وقوله وجعل الظلمات والنور وقوله واختلاف الليل والنهار ومن جنسه قوله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى أن الظلمة قد يظن بها انها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك اذ فى الازل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الامور كالاعمى والاصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع اذ الحجر والشجر لا بصر لهما ولا سمع ولا يقال لشئ منهما انه أصم أو أعمى اذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما والا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شئ ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب

اختصاصه به عليه الصلاة والسلام بجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فان جريانهما الى يوم القيامة ... عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والاجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية ايلاج أحد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها الى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الارض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل اليه الى أن يبلغ المدار الذى هو أقرب المدارات الى سمت الرأس وذلك عند بلوغها الى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة الى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى هى فوق الارض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه الى الليل الى أن يبلغ المدار الذى هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدى وقوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) عطف على أن الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فان من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل اعماله ودقائقها (ذلك) اشارة الى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق الهيته فقط ولاجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى ولاجل بيان بطلان الهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرئ بالتاء شاهدة والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الالهية به تعالى مستتبعة

على بطلان الهية ما عداه لابراز كمال الاعتناء بامر التوحيد وللايذان بان الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضا (وأن الله هو العلى الكبير) أى وبيان أنه تعالى هو المترفع عن كل شئ المتسلط عليه فان ما فى تضعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى أى بيان هذا وقيل ذلك أى ما ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى تعالى به بسبب أنه الثابت ﴿٧٤٦﴾ فى ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت الهيته وأنت خبير بان حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وان كانت صالحة لمناطية ما ذكر من الاحكام المعدودة لكن بطلان الهية الاصنام لادخل له فى المناطية قطعا فلا مساغ لنظمه فى سلك الاسباب بل هو تعكيس للامر ضرورة أن الاحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) باحسانه فى تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول انعامه والباء اما متعلقة بتجرى أو بمقدر هو حال من فاعله أى ملتبسة بنعمته تعالى وقرئ الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته) أى بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله أى ان فيما ذكر لآيات عظيمة فى ذاتها كثيرة فى عددها لكل من يبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى الانفس والآفاق ويبالغ فى الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن (واذا غشيهم) أى علاهم وأحاط بهم (موج كالظلل) كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى

النفس له سببا لان من يرى المتعيش فى السوق لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سببا كمن يرى ملكا فى السوق يقول لم دخل السوق فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيرا واذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبا سببه ثم ذكر بعده الامر الآخر (المسئلة الثانية) قال يولج بصيغة المستقبل وقال فى الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لان ايلاج الليل فى النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم (المسئلة الثالثة) قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا ان تقدم الليل كان لان الانفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار وههنا كذلك لان الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب والنفس تطلب سبب الامر العجيب أكثر مما تطلب سبب الامر الذى لا يكون عجيبا (المسئلة الرابعة) ما تعلق قوله تعالى وان الله بما تعملون خبير بما تقدم نقول لما كان الليل والنهار محل الافعال بين ان ما يقع فى هذين الزمانين الذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ألم تر يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثرون وكأنه ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لاصرارهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون اليه (الوجه الثانى) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدا فيقول لجمع عظيم يا مسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك فقوله ألم تر يكون خطابا من ذلك القبيل أى يا أيها الغافل ألم تر هذا الامر الواضح * ثم قال تعالى (ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله ان الله هو الغنى الحميد وقوله ان الله عزيز حكيم وقوله ان الله سميع بصير وأشار الى الارادة والكمال بقوله ما نفدت كلمات الله وبقوله يولج الليل فى النهار وعلى الجملة فقوله هو الغنى اشارة الى كل صفة سلبية فانه اذا كان غنيا لا يكون عرضا محتاجا الى الجوهر فى القوام ولا جسما محتاجا الى الحيز فى الدوام ولا شيئا من الممكنات المحتاجة الى الموجود ذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحا وتضمنا فان الحياة فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بانه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لا زوال له وهو الثبوت فان المذهب الصحيح ان وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظرا اليه والله له الثبوت والوجود نظرا اليه فهو الحق وما عداه الباطل لان الباطل هو الزائل يقال بطل ظله اذا زال واذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاما لا نقص فيه ثم اعلم ان الحكماء

قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الاشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ماليس له ماينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والاعمى (والمكتفي) وهو الذي أعطى مايدفع به حاجته في وقته كالانسان والحيوان الذي له من الآلات مايدفع به حاجته في وقتها لكنها في التحلل والزوال (والتام) ماحصل له كل ماجاز له وان لم يحتج اليه كالملائكة المقربين لهم درجات لاتزداد ولاينقص الله منها لهم شيأ كما قال جبريل عليه السلام لودنوت انملة لاحترقت لقوله تعالى ومامنا الاله مقام معلوم (وفوق التمام) هو الذي حصل له ماجاز له وحصل لما عداه ماجاز له أو احتاج اليه لكن الله تعالى حاصل له كل مايجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تام وحصل لغيره كل ماجاز له أو احتاج اليه فهو فوق التمام اذا ثبت هذا فنقول قوله هو الحق اشارة الى التمام وقوله وأن الله هو العلي الكبير أي فوق التمام وقوله وهو العلي أي في صفاته وقوله الكبير أي في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسما في مكان لانه يكون حينئذ جسدا مقدرا بمقدار فيمكن فرض ماهو أكبر منه فيكون صغيرا بالنسبة الى المفروض لكنه كبير مطلقا أكبر من كل مايتصور ۞ ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية وأشار الى السبب والمسبب فقوله الفلك تجري اشارة الى المسبب وقوله بنعمة الله اشارة الى السبب أي الى الريح التي هي بأمر الله ليريكم من آياته يعني يريكم باجرائها بنعمته من آياته أي بعض آياته ۞ ثم قال تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) صبار في الشدة شكور في الرخاء وذلك لان المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء وعند النعم والآلاء فيصبر اذا أصابته نقمة ويشكر اذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر اشارة الى ان التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام الصوم صبر والافعال شكر على المعروف ۞ ثم قال تعالى (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) لما ذكر الله ان في ذلك لآيات ذكر ان الكل معترفون به غير ان البصير يدركه أولا ومن في بصيرته ضعف لايدركه أولا فاذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصا أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله موج كالظلل وحد الموج وجمع الظلل وقيل في معناه كالجبال وقيل كالسحاب اشارة الى عظم الموج ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول واذا نظرت في الجرية الواحدة

والتقليد بما دهاهم من الدواهي والشدائد (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) أي مقيم على القصد السوي الذي هو التوحيد أو متوسط في الكفر لانزجاره في الجملة (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) غدار فانه نقض للعهد الفطري أو رفض لما كان في البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) مبالغ في كفران نعم الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزي والد عن ولده) أي لايقضي عنه وقرئ لايجزئ من أجزأ اذا أغنى والعائد الى الموصوف محذوف أي لايجزي فيه (ولا مولود) عطف على والد أو هو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده شيأ) وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لايجزي وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة (ان وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لايمكن اخلافه أصلا (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان المبالغ في الغرور بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة (ان الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روي ان الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة واني قد ألقيت حباتي في الارض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتي ذكر أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزلت وعنه عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل الغيث) في ابانه الذي قدره والى محله الذي عينه في علمه وقرئ ينزل من الانزال (ويعلم ما في الارحام) من ذكر او انثى تام أو ناقص (وما تدري نفس) من النفوس (ماذا تكسب غدا) من خير أو شر وربما تعزم على شئ منهما فتفعل خلافه (وما تدري نفس بأي ارض تموت) كما لاتدري في أي وقت تموت روي أن ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدني فمر الريح ان تحملني وتلقيني

ببلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دواء نظرى اليه تعجبا منه حيث كنت أمرت بان أقبض روحه بالهند وهو عندك ، نسبة العلم الى الله تعالى والدراية الى العبد للايذان بأنه ان أعمل حيله وبذل فى التعرف وسعه لم يعرف ماهو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل فى كلتهن (ان الله عليم) مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شئ من الاشياء التى ﴿ ٧٢٨ ﴾ من جملتها ماذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر

(سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) اما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدإ محذوف أى هذا مسمى بالم والاشارة اليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها واما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدإ محذوف أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لالم أى المسمى به تنزيل الكتاب وقد مر مرارا أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وقوله تعالى (لا ريب فيه) خبر ثالث على الوجه الاول وثان على الاخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله ﴿ الابن ﴾ تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور أى كائنا منه تعالى لا بتنزيل لان المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والاوجه حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير

من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة (المسئلة الثانية) قال فى العنكبوت فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله ثم قال فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون وقال ههنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى فى الكفر وهو الذى انزجر بعض الانزجار أو مقتصد فى الاخلاص فبقى معه شئ منه ولم يبق على ماكان عليه من الاخلاص وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عنده أثر (المسئلة الثالثة) قوله وما يجحد بآياتنا فى مقابلة قوله تعالى ان فى ذلك لآيات يعنى يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار الكفور والصبار فى موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور فى موازنة الشكور أما لفظا فظاهر وأما معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لان الصبور ان لم يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوض الامر الى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه وأما ان الكفور فى مقابلة الشكور معنى فظاهر * ثم قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) لما ذكر الدلائل من أول السورة الى آخرها وعظ بالتقوى لانه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى البالغة فان من يعلم ان الامر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الأمر بيد أحدهما لا غير ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد وذلك لان الملك اذا كان واحدا ويعهد منه انه لا يعلم شيأ ولا يستعرض عباده لا يخاف منه مثل ما يخاف اذا علم ان له يوم استعراض واستكشاف ثم أكده بقوله لا يجزى والد عن ولده وذلك لان المجرم اذا علم أن له عند الملك من يتكلم فى حقه ويقضى ما يخرج عليه بر فدمن كسبه لا يخاف مثل ما يخاف اذا علم انه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ثم ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالادنى على الاعلى وذكر الولد والوالد جميعا فيه لطيفة وهى ان من الامور ما يبادر الاب الى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر الى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد الى تحمله عن الولد ومنها ما يبادر الولد الى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد الى تحمله عن الولد كالاهانة فان من يريد احضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الاهانة عن والده ويحضر هو بدله فاذا انتهى الامر الى الايلام يهون على الاب أن يدفع الايلام عن ابنه ويحمله هو بنفسه فقوله لا يجزى والد عن ولده فى دفع الآلام ولا مولود هو جاز عن والده شيأ فى دفع الاهانة وفى قوله لا يجزى وقوله ولا مولود هو جاز لطيفة أخرى وهى انا ذكرنا ان الفعل يتأتى وان كان ممن لا ينبغى ولا يكون من شأنه لان الملك اذا كان يخيط شيأ يقال انه يخيط ولا يقال هو خياط وكذلك من يحيك شيأ ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك اذا علمت هذا فنقول

فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (ام يقولون افتراه) فان قولهم هذا انكار منهم لكونه من رب العالمين فلابد أن يكون مورده حكما مقصود الافادة لاقيدا للحكم بنفي الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جيء بأم المنقطعة انكارا له وتعجيبا منه لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه الى بيان حقيقة ماأنكروه ﴿٧٤٩﴾ حيث قيل (بل هو الحق من ربك) باضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد اضافته فيما سبق الى العالمين تشريفا له عليه الصلاة والسلام ثم أيد ذلك ببيان غايته حيث قيل (لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فان بيان غاية الشيء وحكمته لاسيما عند كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة اليها مما يقرر وجود الشيء ويؤكده لامحالة ولقد كانت قريش أضل الناس وأحوجهم الى الهداية بارسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث اليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام أى ماأتاهم من نذير من قبل انذارك أو من قبل زمانك والترجي معتبر من جهته عليه الصلاة والسلام أى لتنذرهم راجيا لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ماذكر من التأييد انما يتسنى على ماذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لان قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الاول وخبر ثالث على الوجهين الاخيرين وأياما كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الافادة لاقيد لحكم آخر فتدبر (الله الذى خلق السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) مر بيانه فيما سلف (مالكم من دونه من ولى ولاشفيع) أى مالكم اذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أى مالكم سواه ولى ولاشفيع بل هو الذى يتولى

الابن من شأنه أن يكون جازيا عن والده لماله عليه من الحقوق والوالد يجزى لمافيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لايجزى وقال فى الولد ولامولود هو جاز * ثم قال تعالى (ان وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للوم يعنى اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقا لعدم الجزاء يعنى لايجزى والد عن ولده لان الله وعد بأن لاتزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق فلايجزى والاول أحسن وأظهر * ثم قال تعالى (فلاتغرنكم الحياة الدنيا) يعنى اذا كان الامر كذلك فلاتغتروا بالدنيا فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق * ثم قال تعالى (ولايغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لاينبغى أن تغركم بنفسها ولاينبغى أن تغتروا وان حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا الى نفسها فيميل اليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول انك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فيجتمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الامرين وقال كونوا قسما ثالثا وهم الذين لايلتفتون الى الدنيا ولا الى من يحسن الدنيا فى الاعين * ثم قال تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الارحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير) يقول بعض المفسرين ان الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك لان الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق الى المغرب كم مرة ويعلم أنه أين هو ولايعلمه غيره ولانه يعلم انه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لايسلكها أحد ولايعلمه غيره فلاوجه لاختصاص هذه الاشياء بالذكر وأما الحق فيه ان نقول لماقال الله اخشوا يوما لايجزى والد عن ولده وذكر انه كائن بقوله ان وعد الله حق كان قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارا على البعث (أحدهما) احياء الارض بعد موتها كما قال تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وقال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وقال ههنا يا أيها السائل انك لاتعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على احياء الارض حيث قال وهو الذى ينزل الغيث وقال ويحيى الارض (وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وقال تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة الى غير ذلك فقال ههنا ويعلم مافى الارحام اشارة الى ان الساعة وان كنت لاتعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على الخلق فى الارحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ثم قال لذلك الطالب علمه يا أيها السائل انك تسأل عن الساعة أيان مرساها فلك أشياء أهم منها لاتعلمها فانك

مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازا فاذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير (أفلا تتذكرون) أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون فالانكار على الاول متوجه الى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق مايوجبه من السماع (يدبر الامر من السماء الى الارض) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها ﴿٧٥٠﴾ وأحكامها الى الارض (ثم يعرج اليه) أى يثبت فى علمه موجودا بالفعل (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتدادها مابين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية باثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج اليه فى زمان هو كألف سنة مما تعدون فان مابين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الالف لألف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعا الى قيام الساعة ثم يعرج اليه الامر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء الى الارض بالوحى ثم لا يعرج اليه خالصا الا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والاعمال الخالص وأنت خبير بأن قلة الاعمال الخالصة لا تقتضى بطء عروجها الى السماء بل قلته وقرئ يعدون بالياء (ذلك) اشارة الى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات ﴿أى﴾ على ماذكر من الوجه البديع وهو مبتدا خبره مابعده أى ذلك العظيم الشان (عالم الغيب والشهادة) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه ايماء

لا تعلم معاشك ومعادك ولا تعلم ماذا تكسب غدا مع انه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع انه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون فالله ما أعلمك كسب غدك مع ان لك فيه فوائد تبنى عليها الامور من يومك ولا أعلمك أين تموت مع ان لك فيه اغراضا تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وانما لم يعلمك لكى تكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الارض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها فاذا لم يعلمك ماتحتاج اليه كيف يعلمك مالا حاجة لك اليه وهى الساعة وانما الحاجة الى العلم بأنها تكون وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه ثم قال تعالى ان الله عليم خبير لما خصص أولا علمه بالاشياء المذكورة بقوله ان الله عنده علم الساعة ذكر ان علمه غير مختص بها بل هو عليم مطلقا بكل شئ وليس علمه علما بظاهر الاشياء فحسب بل هو خبير علمه واصل الى بواطن الاشياء والله أعلم بالصواب

﴿سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الاصل الآخر وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة فى هذه السورة فقال الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه وقد علم مافى قوله الم وفى قوله لا ريب فيه من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال من رب العالمين وقال من قبل هدى ورحمة للمحسنين وقال فى البقرة هدى للمتقين وذلك لان من يرى كتابا عند غيره فأول ماتصير النفس طالبة تطلب مافى الكتاب فيقول ماهذا الكتاب فاذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ولا يقول أولا هذا الكتاب تصنيف من ثم يقول فيماذا هو اذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لان كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعوا النفس الى مطالعته * ثم قال تعالى (أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ثم أجاب وبين ان الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الانذار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف قال لتنذر قوما ماأتاهم من نذير مع أن النذر سبقوه والجواب من وجهين (احدهما) معقول والآخر منقول أما المنقول فهو أن قريشا كانت امة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد فانهم كانوا من أولاد ابراهيم وجميع أنبياء بنى اسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلا دين ولا شرع وان كنت تقول بأنهم ماجاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وانما

أتى الرسل آباءهم وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الاكثرون ان آباء
محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارا ولان النبى أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب
وقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما المعقول وهو ان الله تعالى أجرى عادته
على ان أهل عصر اذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده و يرسل رسولا
ثم انه اذا أراد طهرهم بازالة الشرك والكفر من قلوبهم وان أراد طهر وجه الارض
باهلاكهم ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الارض عالم هاد ينتفع
بهدايته قوم و بقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام
فقال لتنذر قوما ما أتاهم أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير (المسئلة
الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ما عداه فقوله لتنذر قوما ما أتاهم
يوجب أن يكون انذاره مختصا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون
الكتاب منزلا الى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا اليهم نقول هذا فاسد من
وجوه (أحدها) ان التخصيص لا يوجب نفى ما عداه (والثانى) انه وان قال به قائل لكنه
وافق غيره فى أن التخصيص ان كان له سبب غير نفى ما عداه لا يوجب نفى ما عداه وههنا
وجد ذلك لان انذارهم كان أولى ألا ترى أنه تعالى قال وأنذر عشيرتك الاقربين ولم يفهم
منه انه لا ينذر غيرهم أولم يؤمر بانذار غيرهم وانذار المشركين كان أولى لان انذارهم كان
بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا الا بسبب انكارهم الرسالة فكانوا أولى
بالذكر فوقع التخصيص لاجل ذلك (الثالث) هوان على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا
لان أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون
مرسلا الى الكل على درجة سواء و بهذا يتبين حسن ما اخترناه وقوله لعلهم يهتدون يعنى
تنذرهم راجيا أنت اهتداءهم * ثم قال تعالى (الله الذى خلق السموات والارض
وما بينهما فى ستة أيام) لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة
الدليل فقال الله الذى خلق السموات والارض الله مبتدأ وخبره الذى خلق يعنى الله هو
الذى خلق السموات والارض ولم يخلقهما الا واحد فلا اله الا واحد وقد ذكرنا ان قوله
تعالى فى ستة أيام اشارة الى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لان السموات والارض
وما بينهما ثلاثة أشياء و كل واحد منها ذات وصفة فنظرا الى خلقه ذات السموات حالة
ونظرا الى خلقه صفاتها أخرى ونظرا الى ذات الارض والى صفاتها كذلك ونظرا الى
ذوات ما بينهما والى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء فى ستة أحوال وانما ذكر الايام
لان الانسان اذا نظر الى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والايام أشهر الازمنة
والا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره
ان يوما ولدت فيه * كان يوما مباركا وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج
عن مراده لان المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته * ثم قال تعالى (ثم استوى على

الى أنه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالاحسان (الذى أحسن كل شئ خلقه) خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن
كل مخلوق خلقه اذ ما من مخلوق خلقه الا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة
وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء
ما يحسن أى يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وايقان وقرئ خلقه على أنه بدل اشتمال من كل
شئ والضمير للمبدل منه
أى حسن خلق كل شئ
وقيل بدل الكل على أن الضمير
لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق
أى حسن كل مخلوقاته وقيل
هو مفعول ثان لاحسن على
تضمينه معنى أعطى أى
أعطى كل شئ خلقه
اللائق به بطريق الاحسان
والتفضل وقيل هو مفعوله
الاول و كل شئ مفعوله
الثانى والخلق بمعنى المخلوق
وضميره لله سبحانه على تضمين
الاحسان معنى الالهام
والتعريف والمعنى ألهم
خلقه كل شئ مما يحتاجون
اليه وقال أبو البقاء عرف
مخلوقاته كل شئ يحتاجون
اليه فيؤل الى معنى قوله تعالى
الذى أعطى كل شئ خلقه
ثم هدى (و بدأ خلق الانسان)
من بين جميع المخلوقات
(من طين) على وجه بديع
تحار العقول فى فهمه حيث
برأ آدم عليه السلام على
على فطرة عجيبة منطوية
على فطرة سائر أفراد الجنس
انطواء اجماليا مستتبعا
لخروج كل فرد منها من القوة
الى الفعل بحسب استعداداتها
المتفاوتة قربا و بعدا كما ينبئ عنه قوله تعالى (ثم جعل نسله) الخ أى ذريته سميت بذلك لانها تنسل وتنفصل منه (من سلالة
من ماء مهين) هو المنى الممتهن (ثم سواه) أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه)
أضافه اليه تعالى تشريفا له وايذانا بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأنا له مناسبة الى حضرة الربوبية وأن أقصى
ما تنتهى اليه العقول

البشرية من معرفة هذا القدر الذى تعبر عنه تارة بالاضافة اليه تعالى واخرى بالنسبة الى أمره تعالى كما فى قوله تعالى
قل الروح من أمر ربى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) الجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول
الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقدمه بجزالة النظم الكريم
أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا انها مع كونها فى انفسها نعما ﴿٧٥٢﴾ جليلة لا يقادر قدرها وسائل الى التمتع
بسائر النعم الدينية والدنيوية
الفائضة عليكم وتشكروها
بأن تصرفوا كلا منها
الى ما خلق هو له فتدركوا
بسمعكم الآيات التنزيلية
الناطقة بالتوحيد والبعث
وبأبصاركم الآيات
التكوينية الشاهدة بهما
وتستدلوا بأفئدتكم على
حقيتهما وقوله تعالى
(قليلا ما تشكرون) بيان
لكفرهم بتلك النعم بطريق
الاعتراض التذييلى على
ان القلة بمعنى النفى كما ينبئ
عنه ما بعده اى شكرا قليلا
او زمانا قليلا تشكرون
وفى حكاية احوال الانسان
من مبدأ فطرته الى نفخ
الروح فيه بطريق الغيبة
وحكاية احواله بعد ذلك
بطريق الخطاب المنبئ
عن استعداده للفهم
وصلاحيته له من الجزالة
ما لا غاية وراءه (وقالوا)
كلام مستأنف مسوق لبيان
اباطيلهم بطريق الالتفات
ايذانا بأن ما ذكر من عدم
شكرهم بتلك النعم موجب
للاعراض عنهم وتعديد
جناياتهم لغيرهم بطريق
المباثة (أئذا ضللنا فى الارض) اى صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا نتميز منه او غبنا فيها بالدفن ﴿ولا﴾
وقرئ ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم اذا أنتن وقيل من الصلة وهى الارض
أى صرنا من جنس الصلة

العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك
التعرض الى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والاول أسلم والى الحكمة أقرب
أما انه أسلم فذلك لان من قال أنا لا أتعرض الى بيان هذا أولا أعرف المراد من هذا
لا يكون حاله الا حال من لا يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئا لم يجب عليه
أن يعلمه وذلك لان الاصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن
الحشر أجمعنا واتفقنا ان العلم به واجب والعلم تفصيله انه متى يكون غير واجب ولهذا
قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة ان الله عنده علم الساعة فكذلك الله يجب معرفة
وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الاجمال وتعاليه
عن وصمات الامكان وصفات النقصان ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى وصفة
الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض اليه لم يترك واجبا وأما من يتعرض اليه
فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالاول غاية ما يلزمه انه لا يعلم والثانى يكاد أن
يقع فى أن يكون جاهلا مركبا وعدم العلم والجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك
أحد فى ان السكوت خير من الكذب وأما انه أقرب الى الحكمة فذلك لان من يطالع
كتابا صنفه انسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر انه لا يأتى على جميع
ما أتى عليه المصنف ولهذا كثيرا ما نرى ان الانسان يورد الاشكالات على المصنف
المتقدم ثم يجئ من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وانما أراد كذا وكذا واذا كان
حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك فما ظنك بالكتاب العزيز الذى فيه
كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل انى علمت كل سر فى هذا الكتاب وكيف ولو ادعى عالم
انى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك فكيف من
يدعى انه علم كل ما فى كتاب الله ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لان
تأخير البيان الى وقت الحاجة جائز ولعل فى القرآن ما لا يحتاج اليه أحد غير نبيه فبين له
لا لغيره اذ ثبت هذا علم أن فى القرآن ما لا يعلم وهذا أقرب الى ذلك الذى لا يعلم المتشابه
البالغ الذى فيه لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفى بعض ما يعلمه قطعا انه ليس بمراد
وهذا لان قائلا اذا قال ان هذه الايام أيام قرء فلانة نعلم انه لا يريد أن هذه الايام أيام موت
فلانة ولا يريد أن هذه الايام أيام سفر فلانة وانما المراد منحصر فى الطهر أو الحيض فكذلك
ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصا فى ذاته لاستحالة ذلك والجلوس والاستقرار
المكانى من ذلك الباب فيجب القطع بنفى ذلك التوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثانى)
خطر ومن يذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب
أو الاستقرار المكانى (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والاول جهل محض والثانى
يجوز أن يكون جهلا والاول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفرا والثانى وان كان
جهلا فليس بجهل يورث بدعة وهذا كما ان واحدا اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار

قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول الى الكل والعامل فى اذا مايدل عليه قوله تعالى (أئنا فى خلق جديد) وهو نبعث او يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الانكار السابق وتأكيده وعرى أئنا على الخبر وأياما كان فالمعنى على تأكيد الانكار لا انكار التأكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على ان فانها مؤخرة عنها فى الاعتبار وانما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل هم ﴿٧٥٣﴾ بلقاء ربهم كافرون) اضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث الى بيان ماهو أبلغ واشنع منه وهو كفرهم بالوصول الى العاقبة ومايلقونه فيها من الاحوال والاهوال جميعا (قل) بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لاكما تزعمون أن الموت من الاحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة أى يقبض أرواحكم بحيث لايدع فيكم شيئا أولا يترك منكم أحدا على أشد مايكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم (الذى وكل بكم) أى بقبض أرواحكم واحصاء آجالكم (ثم الى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى اذ المجرمون) وهم القائلون أئذا ضللنا فى الارض الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسوا رؤسهم عند ربهم) من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا (ربنا) اى يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) أى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لادراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عميا وصما لاندرك شيئا ﴿٩٥﴾ س (فارجعنا) الى الدنيا (نعمل) ع (صالحا) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (انا موقنون) ادعاء منهم لصحة الافئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بموجبها كما أن ماقبله ادعاء لصحة مشعرى البصر والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لانعقل شيئا أصلا وانما

ولايعاقب أحدا منهم يكون جهلا وبدعة وكفرا واذا اعتقد انه يرحم زيدا الذى هو مستور الحال لايكون بدعة مايكون انه اعتقاد غير مطابق (ومما قيل فيه) ان المراد منه استوى على ملكه والعرش يعبر به عن الملك يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وان لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة اشارة الى البخل مع انهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ولو كان مراد الله ذلك لكان كذبا جل كلام الله عنه ثم لهذا فضل تقرير وهو ان الملوك على درجات فمن يملك مدينة صغيرة أو بلادا يسيرة ماجرت العادة بأن يجلس أول مايجلس على سرير ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك فى خدمته يكون سرير يجلس عليه وقدامه كرسى يجلس عليه وزيره فالعرش والكرسى فى العادة لايكون الا عند عظمة المملكة فلما كان ملك السموات والارض فى غاية العظمة عبر بما ينبئ فى العرف عن العظمة ومما ينبهك لهذا قوله تعالى انا خلقنا وانا زينا ونحن أقرب ونحن نزلنا أيظن أو يشك مسلم فى أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملا غير ان العظيم فى العرف لايكون واحدا وانما يكون معه غيره فكذلك الملك العظيم فى العرف لايكون الا ذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريدا العظمة ومما يؤيد هذا ان المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الارض حتى لم يبق له مكان أيظن انهم يريدون به انه صار لامكان له وكيف يتصور الجسم بلامكان ولاسيما من يقول بان الهه فى مكان كيف يخرج الانسان عن المكان فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش وان كان لتنزه عن المكان واجباله وعلى هذا كله ثم معناها خلق السموات والارض ثم القصة انه استوى على الملك وهذا كما يقول القائل فلان أكرمنى وانعم على مرارا ويحكى عنه أشياء ثم يقول انه ماكان يعرفنى ولا كنت فعلت معه مايجازينى بهذا فنقول ثم للحكاية لا للمحكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا أما النقل فكثير مذكور فى كتب اللغة منها ديوان الادب وغيره مما يعتبر النقل عنه واما الاستعمال فقول القائل

قد استوى بشر على العراق ❊ من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم معناها ماذكرنا كانه قال خلق السموات والارض ثم ههنا ماهو أعظم منه استوى على العرش فانه أعظم من الكرسى والكرسى وسع السموات والارض (والوجه الثالث) قيل ان المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولايفيد انه فى مكان وذلك لان الانسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولايشك أحد انه لايريد ان الرأى فى مكان وهو الخروج لما أن الرأى لايجوز فيه أن يقال انه متمكن أو هو مما يدخل فى مكان اذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن حتى اذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم

أبصرنا الخ أي ونقول لو شئنا أي لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بان نعطي كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدي به الى الايمان
والعمل الصالح لاعطيناها اياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه الى دار الجزاء (ولكن حق القول مني) أي سبقت كلمتي
حيث قلت لابليس عند قوله لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم
أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى (لاملأن جهنم ﴿٧٥٥﴾ من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فيوجب
ذلك القول لم نشأ اعطاء الهدى
على العموم بل منعناه من اتباع
ابليس الذين أنتم من جملتهم
حيث صرفتم اختياركم الى
الغي باغوائه ومشيئتنا الافعال
العباد منوطة باختيارهم اياها
فلما لم تختاروا الهدى واخترتم
الضلالة لم نشأ اعطاءه لكم
وانما اعطيناه الذين اختاروه
من النفوس البرة وهم المعنيون
بما سيأتي من قوله تعالى انما
يؤمن بآياتنا الآية فيكون
مناط عدم مشيئة اعطاء الهدى
في الحقيقة سوء اختيارهم
لا تحقق القول وانما قيدنا
المشيئة بما مر من التعلق الفعلي
بافعال العباد عند حدوثها
لان المشيئة الازلية من حيث
تعلقها بما سيكون من أفعالهم
اجمالا متقدمة على تحقق كلمة
العذاب فلا يكون عدمها
منوطا بتحققها وانما مناطه
علمه تعالى ازلا بصرف اختيارهم
فيما سيأتي الى الغي وايثارهم
له على الهدى فلو اريدت
هي من تلك الحيثية لاستدرك
بعدمها وبنيط ذلك بما ذكر
من المناط على منهاج قوله تعالى
ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم
فمن توهم أن المعنى ولو شئنا
لاعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره
فقد اشتبه عليه الشؤن والفاء في قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفي الرجع الى الدنيا
أو على الوعيد المحكي والباء في قوله

السموات (والثاني) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي الى حدوث
الباري أو يبطل دلائل حدوث الاجسام وان لم يكن مكان وما حصل في مكان يحيل العقل
وجوده بلا مكان ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزليا فاما أن يكون في الازل
ساكنا أو متحركا لانهما فرعا الحصول في مكان واذا كان كذلك فيلزمه القول
بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم لانه ان سلم انه قبل المكان لا يكون فهو القول
بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم في الازل لم يكن في مكان ثم حصل
في مكان فلا يتم دليله في حدوث العالم فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ثم ان هذا القائل يقول
انك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس في مكان ولا يعلم انه جعله معدوما حيث أحوجه الى
مكان وكل محتاج نظرا الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام
❋ ثم قال تعالى (مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) لما ذكر أن الله خالق
السموات والارض قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والارض واحد هو
اله السموات وهذه الاصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا وقال آخرون هذه صور
الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا اله غير الله ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة
الا باذن الله فعبادتكم لهذه الاصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم
ثم قال تعالى أفلا تتذكرون ما علمتموه من انه خالق السموات والارض وخلق هذه
الاجسام العظام لا تقدر عليه مثل هذه الاصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون
عنده لهذه الاشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة ❋ ثم قال تعالى
(يدبر الامر من السماء الى الارض) لما بين الله تعالى الخلق بين الامر كما قال تعالى ألا له
الخلق والامر والعظمة تتبين بهما فان من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة
ثم اذا كان أمره نافذا فيهم يزداد في أعين الخلق وان لم يكن له نفاذ أمر ينقص من
عظمته وقوله تعالى (ثم يعرج اليه) معناه والله أعلم ان أمره ينزل من السماء على عباده
وتعرج اليه اعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الامر فان العمل اثر الامر ❋ وقوله
تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه (أحدها) ان نزول الامر وعروج
العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فان بين السماء والارض مسيرة خمسمائة
سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة
(ثانيها) هو ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ
في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى في يوم
كان مقداره ألف سنة يعني يدبر الامر في زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم
تكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين
ألف سنة لان تلك اذا كانت اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بالالف أو بالخمسين
ألفا لا يتفاوت الا ان المبالغة تكون في الخمسين أكثر ونبين فائدتها في موضعها ان شاء الله

عدلوا الى الجملة الاسمية المؤكدة اظهارا لثباتهم على الايمان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعا فى الاجابة الى ماسألوه من الرجعة وأبى لهم ذلك ويجوز ان يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فانهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصى على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم الى النار لامحالة فالمعنى ابصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا ان مردنا الى النار ✽ ✽ وهو الانسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون باظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالاخبار بأنهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل أى سمعناه سمع طاعة واذعان ولا يقدر لترى مفعول اذ المعنى اولتكون منك رؤية فى ذلك الوقت أو يقدر ما ينبئ عنه صلة اذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن عمل عموم الخطاب بالقصد الى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور الى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل ✽ السموات ✽ فى هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق الحق لان المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها فانه مسوق مساق المسلمات فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول معطوف على ما قدر قبل قوله تعالى ربنا

منه التمكن وكونه فى مكان واذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان ما لم يعلم انه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أولا يجوز فاذن فهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان فجواز كونه فى مكان ان استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه وهو محال ثم الذى يدل على انه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكانا له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى وان الله لهو الغنى وهذا يقتضى أن يكون غنيا على الاطلاق وكل ماهو فى مكان فهو فى بقائه محتاج الى مكان لان بديهة العقل حاكمة بان الحيز ان لم يكن لا يكون المتحيز باقيا فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه فى استمراره فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان فجاز عليه أن لا يكون فى مكان وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى وهو معكم ووجه التمسك به هو ان على اذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع اذا استعملت فى متمكن يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو واذا استعمل هذا فان كان الله فى مكان ونحن متمكنون فقوله ان الله معنا وقوله وهو معكم كان ينبغى أن يكون للاقتران وليس كذلك فان قيل كلمة مع تستعمل للكون معه اليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى أى بالاعانة والنصر فنقول كلمة على تستعمل للكون حكمه على الغير يقول القائل لولا فلان على فلان لاشرف فى الهلاك ولاشرف على الهلاك وكذلك يقال لولا فلان على املاك فلان أو على أرضه لما حصل له شئ منها ولا أكل حاصلها بمعنى الاشراف والنظر فكيف لا نقول فى استوى على العرش انه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولو كان فى مكان لاحاط به المكان وحينئذ فاما أن يرى واما أن لا يرى لا سبيل الى الثانى بالاتفاق لان القول بأنه فى مكان ولا يرى باطل بالاجماع وان كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الابصار وأما اذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الابصار اما اذا لم ير فظاهر وأما اذا روئى فلان البصر لا يحيط به فلا يدركه وانما قلنا ان البصر لا يحيط به لان كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ولو تدبر الانسان القرآن لوجده مملوأ من عدم جواز كونه فى مكان كيف وهذا الذى تمسك به هذا القائل يدل على انه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان وذلك لان كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله اما أن يكون فى مكان أو لا يكون فان كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزليا ثم ان هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى فيصير فلسفيا يقول بقدم سماء من

... ان تعذيبهم ليس بمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضا بسبب موجب له
من قبلهم كأنه قيل لا رجع لكم الى الدنيا أو حق وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه
والاستعداد له بالكلية (انا نسيناكم) أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة ❁ وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم
تعملون) تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى للذوق والاشعار ﴿٧٥٦﴾ بأن سببه ليس مجرد ماذكر من النسيان
بل له أسباب أخر من فنون
الكفر والمعاصى التى كانوا
مستمرين عليها فى الدنيا وعدم
نظم الكل فى سلك واحد
للتنبيه على استقلال كل منها
فى استيجاب العذاب وفى ابهام
المذوق أولا وبيانه ثانيا بتكرير
الامر وتوسيط الاستئناف
المنبئ عن كمال السخط بينهما
من الدلالة على غاية التشديد
فى الانتقام منهم مالا يخفى
وقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا)
استئناف مسوق لتقرير عدم
استحقاقهم لايتاء الهدى
والاشعار بعدم ايمانهم او أوتوه
بتعيين من يستحقه بطريق
القصر كأنه قيل انكم لا تؤمنون
بآياتنا ولا تعملون بموجبها
عملا صالحا ولو رجعنا كم الى
الدنيا كما تدعون حسبما نطق
به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا
لما نهوا عنه وانما يؤمن بها
(الذين اذا ذكروا بها) أى
وعظوا (خروا سجدا) اثر ذى
أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلا
عن التسويف الى معاينة
ما نطقت به من الوعد والوعيد
أى سقطوا على وجوههم
(وسبحوا بحمد ربهم) أى
ونزهوه عند ذلك عن كل ما
لا يليق به من الامور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى أجلها الهداية بايتاء الآيات ﴿صحيح﴾
والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة التسبيح والتحميد
وبانهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (وهم لا يستكبرون) أى والحال أنهم خاضعون لله تعالى

تعالى (وفى هذه لطيفة) وهو ان الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الاجسام والخلق وأشار
الى عظمة الملك وذكر فى هذه الآية عالم الارواح والامر بقوله يدبر الامر والروح من عالم
الامر كما قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وأشار الى دوامه بلفظ
يوهم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول وانما
الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة فأشار
هناك الى عظمة الملك بالمكان وأشار الى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه
والزمان بحكمه وأمره (واعلم) ان ظاهر قوله يدبر الامر فى يوم يقتضى أن يكون أمره
فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثا وبعض من
يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف وكلمة كن فكيف
فهم من كلمة على كونه فى مكان ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين ان هذا الملك
العظيم النافذ الامر غير غافل فان الملك اذا كان آمرا ناهيا يطاع فى أمره ونهيه ولكن
يكون غافلا لا يكون مهيبا عظيما كما يكون مع ذلك خبيرا يقظا لا يخفى عليه أمور الممالك
والممالك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الاشباح بقوله خلق
السموات وعالم الارواح بقوله يدبر الامر من السماء الى الارض قال عالم الغيب يعلم ما
فى الارواح والشهادة يعلم ما فى الاجسام أو نقول قال عالم الغيب اشارة الى ما لم يكن بعد
والشهادة اشارة الى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لانه أقوى وأشد انباء عن كمال العلم
❁ ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين انه عالم ذكر انه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة
رحيم واسع الرحمة على البررة ❁ ثم قال تعالى (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق
الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله خلق السموات
والارض وما بينهما وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليها من الانفس بقوله
الذى أحسن كل شئ يعنى أحسن كل شئ مما ذكره وبين ان الذى بين السموات والارض
خلقه وهو كذلك لانك اذا نظرت الاشياء رأيتها على ما ينبغى صلابة الارض للنبات
والثبات وسلالة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء
لنقدر عليه فى كل موضع وحركة النار الى فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة
لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شئ هناك يقبل الاحتراق وقوله وبدأ خلق
الانسان من طين قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ويمكن أن يقال بأن الطين
ماء وتراب مجتمعان والآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء والاغذية اما حيوانية واما نباتية
والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين
❁ وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الاول ظاهر لان آدم
كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة وعلى التفسير الثانى هو ان أصله
من الطين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هى من ماء مهين فان قال قائل التفسير الثانى غير

لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) أى تنبو وتتنحى (عن المضاجع) أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى عليه الصلاة والسلام وعن أنس أيضا رضى الله عنه انه قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى عليه الصلاة ﴿ ٧٥٧ ﴾ والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء وهى صلاة الاوابين وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام اذا جمع الله الاولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا الى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال من ضمير جنوبهم أى داعين له تعالى على الاستمرار (خوفا) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته (وطمعا) فى رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) فى وجوه البر والحسنات (فلا تعلم نفس) من النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عن عداهم (ما أخفى لهم) أى لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقر به أعينهم

صحيح لان قوله بدأ خلق الانسان ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الانسان من طين فنقول لا بل التفسير الثانى أقرب الى الترتيب اللفظى فانه تعالى بدأ بذكر الامر من الابتداء فى خلق الانسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائدا الى آدم أيضا لان كلمة ثم للتراخى فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة وذلك بعد خلق آدم واعلم ان دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر ودلائل الانفس أدل على نفاذ الارادة فان التغيرات فيها كثيرة واليه الاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه أى كان طينا فجعله منيا ثم جعله بشرا سويا وقوله تعالى ونفخ فيه من روحه اضافة الروح الى نفسه كاضافة البيت اليه للتشريف واعلم ان النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بان عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون ان كل أحد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى ولم يقل أعطاه من جسمه لان الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون) وفيه مسائل (الاولى) قال وجعل لكم مخاطبا ولم يخاطب من قبل وذلك لان الخطاب يكون مع الحى فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه من بعده وقال جعل لكم فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب فنقول هناك لم يذكر الامور المرتبة وانما أشار الى تمام الخلق وههنا ذكر الامور المرتبة وهى كون الانسان طينا ثم منيا ثم خلقا مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض (المسئلة الثانية) الترتيب فى السمع والابصار والافئدة على مقتضى الحكمة وذلك لان الانسان يسمع أولا من الابوين أو الناس أمورا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الامور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك ادراك تام وذهن كامل فيستخرج الاشياء من قلبه ومثاله شخص يسمع من استاذ شيئا ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتابا فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الامور الخفية (المسئلة الثالثة) ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فان الانسان لا يضبط فى زمان واحد كلامين والاذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل اليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بادراك البعض دون البعض واما الابصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فانها تتحرك الى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره واذا كان

كذلك فلم يكن للمحل فى السمع تأثير والقوة مستبدة فذكر القوة فى الاذن و فى العين والفؤاد للمحل نوع اختيار فذكر المحل لان الفعل يسند الى المختار ألا ترى انك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو الا نادرا لما بينا ان المختار هو الاصل وغيره آلته فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الابصار والافئدة الاسم الذى هو محل القوة ولان السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك فى زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما (المسئلة الرابعة) لم قدم السمع ههنا والقلب فى قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فنقول ذلك يحقق ماذكرنا وذلك لان عند الاعطاء ذكر الادنى وارتقى الى الاعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها وقد ذكرنا هناك ما هو السبب فى تأخير الابصار مع أنها فى الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة ❁ ثم قال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا فى الارض) لما قال قليلا ما تشكرون بين عدم شكرهم باتيانهم بضده وهو الكفر وانكار قدرته على احياء الموتى وقد ذكرنا ان الله تعالى فى كلامه القديم كلما ذكر أصلين من الاصول الثلاثة لم يترك الاصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله تنزيل الكتاب الى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وذكر الوحدانية بقوله الله الذى خلق الى قوله وجعل لكم السمع والابصار ذكر الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى وقالوا أئذا ضللنا فى الارض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو للعطف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن (المسئلة الثانية) ان الله تعالى قال فى تكذيبهم الرسول فى الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال فى تكذيبهم اياه فى الحشر وقالوا بلفظ الماضى وذلك لان تكذيبهم اياه فى رسالته لم يكن قبل وجوده وانما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه وأما انكارهم للحشر كان سابقا صادرا منهم ومن آبائهم فقال وقالوا (المسئلة الثالثة) انه تعالى صرح بذكر قولهم فى الرسالة حيث قال أم يقولون وفى الحشر حيث قال وقالوا أئذا ولم يصرح بذكر قولهم فى الوحدانية وذلك لانهم كانوا مصرين فى جميع الاحوال على انكار الحشر والرسول واما الوحدانية فكانوا يعترفون بها فى المعنى ألا ترى ان الله تعالى قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يقل قالوا ان الله ليس بواحد وان كانوا قالوه فى الظاهر (المسئلة الرابعة) لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان

وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقرئ ما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرئ قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا يعملون) أى جزوا ❁ جزاء أو أخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا من الاعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أى ابعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت احواله (لا يستوون) التصريح به مع افادة الانكار لنفى المشابهة بالمرة على ابلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى (اما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا وأضيفت الجنة الى المأوى لانها المأوى الحقيقى وانما الدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة وقيل المأوى جنة من الجنات وأياما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز الى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا (نزلا) اى ثوابا وهو فى الاصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه على الحالية (بما كانوا يعملون) فى الدنيا من الاعمال الصالحة او بأعمالهم (وأما الذين ❁ من فسقوا) اى خرجوا عن الطاعة (فمأواهم) اى ملجؤهم ومنزلهم (النار) مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى

انه يضربهم لهب النار فيرتفعون الى طبقاتها حتى اذا قربوا من بابها وارادوا ان يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون الى قعرها وهكذا يفعل بهم ابدا وكلمة فى للدلالة على انهم مستقرون فيها وانما الاعادة من بعض طبقاتها الى بعض (وقيل لهم) تشديدا عليهم وزيادة فى غيظهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) اى بعذاب النار (تكذبون) على الاستمرار فى الدنيا (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) اى عذاب الدنيا وهو ما محنوا به من السنة سبع سنين والقتل والاسر (دون العذاب الاكبر) الذى هو عذاب الآخرة (لعلهم) لعل الذين يشاهدونه وهم فى الحياة (يرجعون) يتوبون عن الكفر روى ان الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات (ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها) بيان اجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالاعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الاعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وارشادها الى سعادة الدارين كما فى بيت الحماسة * ولا يكشف الغماء الا ابن حرة * يرى غمرات الموت ثم يزورها * أى هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (انا من المجرمين (اى من كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته (منتقمون) فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم واشد جرما من كل مجرم (ولقد آتينا موسى الكتاب) اى التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على ان ايتاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كايتائها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وانك لتلقى القرآن والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت

من طين ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل نقول فى الجواب ذكر دليله أيضا وذلك لان خلق الانسان ابتداء دليل على قدرته على اعادته ولهذا استدل الله على امكان الحشر بالخلق الاول كما قال ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وكذلك خلق السموات كما قال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى * وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا كائنون فى خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب عن الاول يعنى ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم فانهم أنكروا فانكروا المفضى اليه ثم بين ما يكون لهم من الموت الى العذاب * فقال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) يعنى لابد من الموت ثم من الحياة بعده واليه الاشارة بقوله (ثم الى ربكم ترجعون) وقوله الذى وكل بكم اشارة الى انه لا يغفل عنكم واذا جاء أجلكم لا يؤخركم اذ لا شغل له الا هذا وقوله يتوفاكم ملك الموت ينبئ عن بقاء الارواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الاخذ والاعدام المحض ليس بأخذ ثم ان الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم والاول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته والحكماء يقولون ان الارواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به والارواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فان أرادوا ما ذكرنا فقد وافقونا والا فيتغير النظر فى ذلك بحسب ارادتهم فقد يكون قولهم حقا وقد يكون غير حق فان قيل هم أنكروا الاحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) ان ذلك دليل الاحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك فقال الملك يقبض الروح والاجزاء تتفرق فجمع الاجزاء لا بعد فيه وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضا وقوله قل يتوفاكم ملك الموت أى الارواح معلومة فترد الى أجسادها * ثم قال تعالى (ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون) لما ذكر أنهم يرجعون الى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم يعنى لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبا وقوله ترى يحتمل أن يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفيا للصدر فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل ان فلانا كريم ان خدمته ولو لحظة يحسن اليك طول عمرك ولا يريد به خاصا وقوله عند ربهم لبيان شدة الخجالة لان الرب اذا أساء اليه المربوب ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة * ثم قال تعالى ربنا أبصرنا وسمعنا يعنى يقولون أو قائلين ربنا أبصرنا وحذف يقولون

مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى وعنه عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة (وجعلناه) أى الكتاب الذى آتيناه موسى (هدى لبنى اسرائيل) قيل لم تعبد بما فى التوراة ولد اسمعيل (وجعلنا منهم أئمة يهدون) بغيتهم بما فى تضاعيف الكتاب من الحكم والاحكام الى طريق الحق او يهدونهم الى ما فيه من دين الله وشرائعه (بأمرنا) اياهم بذلك او بتوفيقنا له ﴿٧٦٠﴾ (لما صبروا) هى لما التى فيها معنى الجزاء نحو أحسنت اليك لما جئتنى والضمير للائمة تقديره لما صبروا جعلناهم أئمة او هى ظرف بمعنى الحين اى جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد فى نصرة الدين اوصبرهم عن الدنيا وقرئ لما صبروا اى لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التى فى تضاعيف الكتاب (يوقنون) لامعانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذى آتيناكه هدى لامتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية (ان ربك هو يفصل) اى يقضى (بينهم) قيل بين الانبياء وامهم وقيل بين المشركين (يوم القيامة) فيميز بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من امور الدين (اولم يهد لهم) الهمزة للانكار والواو للعطف على منوى يقتضيه المقام وفعل الهداية اما من قبيل فلان يعطى فى ان المراد ايقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول واما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل مادل عليه قوله تعالى (كم اهلكنا) اى أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم او ولم يبين لهم مآل امرهم كثرة اهلاكنا ﴿ التاجر ﴾ (من قبلهم من القرون) مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرئ نهد لهم بنون العظمة وقد يجوز أن يكون الفاعل على القراءة الاولى ايضا ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم اهلكنا الخ استئنافا مبينا لكيفية هدايته تعالى

اشارة الى غاية خجالتهم لان الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم وقوله ربنا أبصرنا وسمعنا أى أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا الى الدنيا نعمل صالحا وقولهم انا موقنون معناه انا فى الحال امنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون الا عند التكليف به وهو فى الدنيا فارجعنا للعمل وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل فى الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه انهم ينكرون الشرك كما قالوا وما كنا مشركين فقالوا ان هذا الذى جرى علينا ماجرى الا بسبب ترك العمل الصالح وأما الايمان فانا موقنون وما أشركنا * ثم قال تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) جوابا عن قولهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا وبيانه هو أنه تعالى قال انى لو أرجعتكم الى الايمان لهديتكم فى الدنيا ولما لم أهدكم تبين انى ما أردت وماشئت ايمانكم فلا أردكم وقوله ولو شئنا لآتينا صريح فى ان مذهبنا صحيح حيث نقول ان الله ما أراد الايمان من الكافر وماشاء منه الا الكفر * ثم قال تعالى (ولكن حق القول منى لاملأن جهنم) أى وقع القول وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك هذا من حيث النقل وله وجه فى العقل وهو ان الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف فى انه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحث تحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم أن فعله لا يخلوا عن الحكمة فقال الحكماء حكمة افعاله بأسرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون فى العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلى وهو ان الفعل اما أن يكون خيرا محضا أو شرا محضا او خيرا مشوبا بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره مثلان اذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوى وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو عالم السفلى ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلى الذى هو عالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذى خيره غالب فانك اذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار تجد المنافع أكثر واذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره الى آخره كالانبياء عليهم السلام والاولياء والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية ما فى الباب ان الكفر يحبط خيره ولا ينفعه انما يستحيل نظرا الى العادة أن يوجد كافر لا يسقى العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه فى عمره وكيف لا وهو فى زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضيه للخيرات اذا ثبت هذا فنقول قالوا ولولا الشر فى هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة فى الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذى فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك خلق هذا القسم ان كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لا يناسب الحكمة الا ترى أن

التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال فى هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكى فيقال له لكن فى مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار فى ملكك وكذلك الانسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة فاذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من الالطاف فخلق العالم الذى يقع فيه الشر والى هذا أشار بقوله انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال الله تعالى فى جوابهم انى أعلم مالا تعلمون أى أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها يعنى أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوى لا يناسب الحكمة وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب فقوله تعالى أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعنى لو شئنا لخلصنا الخير من الشر لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة لان ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير فى القضاء والشر فى القدر فالله قضى بالخير ووقع الشر فى القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل ❊ وقوله (من الجنة والناس) لانه تعالى قال لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك وهذا اشارة الى أن النار لمن فى العالم السفلى والذين فى العالم العلوى مبرؤن عن دخول النار وهم الملائكة وهذا يقتضى أن لا يكون ابليس من الملائكة وهو الصحيح ❊ وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيدا وهو الظاهر (الثانى) أن يكون حالا أى مجموعين فان قيل كيف جعل جميع الانس والجن مما يملأ بهم النار نقول هذا لبيان الجنس أى جهنم تملأ من الجن والانس لا غير أمنا للملائكة ولا يقتضى ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس فان قيل فهذا يقتضى أن تكون جهنم ضيقة تملأ ببعض الخلق نقول هو كذلك وانما الواسع الجنة التى هى من الرحمة الواسعة والله أعلم ولما بين الله تعالى بقوله ولو شئنا لآتينا أنهم لا رجوع لهم قال لهم اذا علمتم أنكم لا رجوع لكم (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) وفى تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فذوقوا بما نسيتم لقاء لقاء يحتمل أن يكون منصوبا بذوقوا أى ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسى هو الميثاق الذى أخذ منهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى أو بما فى الفطرة من

(يمشون فى مساكنهم) اى يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرئ يمشون للتكثير (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من كثرة اهلاكنا للامم الخالية العاتية أو فى مساكنهم (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (أفلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ (أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز) اى التى جرز نباتها اى قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن (فنخرج به) من تلك الارض (زرعا تأكل منه) اى من ذلك الزرع (انعامهم) كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرئ يأكل بالياء (وأنفسهم) كالحبوب التى يقتاتها الانسان والثمار (أفلا يبصرون) اى ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كان المسلمون يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة اذا سمعوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء (متى هذا الفتح) اى النصر أو الفصل بالحكومة (ان كنتم صادقين) فى أن الله تعالى ينصركم أو يفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتا لهم وتحقيقا للحق (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولاهم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنه ليس مما ينبغى أن يسئل عنه لكونه أمرا بينا غنيا عن الاخبار به وكذا ايمانهم واستنظارهم يومئذ وانما المحتاج الى البيان عدم نفع ذلك الايمان وعدم الانظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأنى بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الاول ظاهر واما على الاخيرين فالموصول عبارة عن

...تعالى الوجه الاول كيف لا وقد نفع الايمان الطلقاء يوم الفتح وناسا آمنوا يوم بدر (فأعرض عنهم) ولا تبال بتكذيبكم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (انهم منتظرون) قيل اى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون والاظهر أن يقال انهم منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية ويقرب منه ماقيل وانتظر عذابنا انهم منتظرون فان استعجالهم المذكور وعكوفهم على ماهم عليه من الكفر والمعاصى فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لامحالة وقرئ على صيغة المفعول على معنى أنهم أحقاء بان ينتظر هلاكهم أو فان الملائكة ينتظرونه * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك أعطى من الاجر كانما أحيا ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام

(سورة الاحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبى اتق الله) فى ندائه عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فان له بابا واسعا وعرضا عريضا لاينال مداه (ولا تطع الكافرين) اى المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له اى فيما يعود بوهن فى الدين واعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الاعور السلمى قدموا عليه عليه الصلاة والسلام فى الموادعة التى كانت بينه عليه السلام وبينهم وقام ❁ يقول ❁ معهم عبد الله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق

الوحدانية فينسى بالاقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبا بقوله نسيتم اى بمانسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا وعلى هذا لوقال قائل النسيان لايكون الافى المعلوم أولا اذا جهل آخرا نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان اشارة الى كونهم منكرين لامر ظاهر كمن ينكر أمرا كان قد علمه (المسئلة الثانية) قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون اشارة الى اليوم اى فذوقوا بمانسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون اشارة الى لقاء اليوم اى فذوقوا بمانسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون اشارة الى العذاب اى فذوقوا هذا العذاب بمانسيتم لقاء يومكم ثم قال انا نسيناكم اى تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعله الناسى قطعا لرجائكم ثم ذكر مايلزم من تركه اياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب لان من لايخلصه الله فلا خلاص له فقال وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون * ثم قال تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون) اشارة الى أن الايمان بالآيات كالحاصل وانما يفساء البعض فاذا ذكر بها خر ساجدا له يعنى انقادت أعضاؤه له وسبح بحمده يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك وهم لايستكبرون يعنى وكان قلبه خاشعا لايتكبر ومن لايستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقا * ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) يعنى بالليل قليلا مايهجعون وقوله يدعون ربهم اى يصلون فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لاينافى الاول لان الطلب قد يكون بالصلاة والحمل على الاول أولى لانه قال بعده ومما رزقناهم ينفقون وفى أكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله خوفا وطمعا يحتمل ان يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا اى خائفين طامعين كقولك جاءنى زورا أى زائرين وكان فى الآية الاولى اشارة الى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى اذا ذكروا بها خروا فانه يدل على ان عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وان لم يكن خوف وطمع وفى الآية الثانية اشارة الى المرتبتين الاخيرتين وهى العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعا فى بره ثم بين مايكون لهم جزاء فعلهم * فقال (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) يعنى مما تقر العين عنده ولا تلتفت الى غيره يقال ان هذا لايدخل فى عينى يعنى عينى تطلع الى غيره فاذا لم يبق تطلع للعين الى شئ آخر لم يبق للعين مسرح الى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد وهذا فيه لطيفة وهى ان من العبد شيئا وهو العمل الصالح ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والاكرام فلله تعالى أن يقول جزاء الاحسان احسان وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن فى مقابلته فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض وله أن

ذلك على النبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت اى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولاتساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا اليك (ان الله كان عليما حكيما) مبالغا فى العلم والحكمة فيعلم جميع الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ولاينهاك الا عما فيه مفسدة ولايحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للامر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بهما (واتبع) اى فى كل ماتأتى وتذر من أمور الدين (مايوحى اليك من ربك) من الآيات التى من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالامر (ان الله كان بما تعملون خبيرا) قيل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولايخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب وأياما كان فالجملة تعليل للامر وتأكيد لموجبه أما على الوجهين الاولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل ان الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا وأما على الوجه الاخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل ان الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك الى ما فيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على مايعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغى لك أن تعمله فى دفعها وردها فلا بد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما (وتوكل على الله) اى فوض جميع أمورك اليه (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل الامور (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) شروع فى القاء الوحى الذى أمر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله

يقول جعلت الاول تفضلا لا أطلب عليه جزاء فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شئ لانى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيا بالحسنة ابتداء وجزاء الاحسان احسان فاجعل الثواب جزاء كلاهما جائز لكن غاية الكرم أن يجعل الاول هبة ويجعل الثانى مقابلا وعوضا لان العبد ضعيف لو قيل له بان فعلك جزاء فلا تستحق جزاء وانما الله يتفضل يثق ولكن لايطمئن قلبه واذا قيل له الاول غير محسوب عليك والذى أتيت به أنت به بادولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم اذا عرف ان هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولااستحق به جزاء فاذا أثابه الله تعالى يقول الذى أتيت به كان جزاء وهذا ابتداء احسان من الله تعالى يستحق حمدا وشكرا اذا أتى بحسنة فيقول الله انى أحسنت اليه جزاء فعله الاول ومافعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثالثا فيشكر العبد ثالثا فيجازيه رابعا وعلى هذا لاتقطع المعاملة بين العبد والرب ومثله فى الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما الى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى الى المهدى عوضا فرآه المهدى الاول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة وهذه هدية ماعوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الامر بينهما ولاينقطع التهادى والتحاب بخلاف من أرسل الى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضا يقول المهدى هذا عوض ماأهديت اليه فيسكت ويترك الاهداء فينقطع واعلم أن التكاليف يوم القيامة وان ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لاترتفع بل العبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما يعبده فى الدنيا وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال فى حقهم يسبحون الليل والنهار لايفترون غاية مافى الباب ان العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وان قرب العبد منه بل تزداد لذتها

ثم قال تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ثم بين انهما لايستويان ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل فقال أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى اشارة الى ماذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض أو غرض فلما آمن العبد وعمل صالحا قبله منه كانه ابتداء فجازاه بان أعطاه الجنة ثم قال تعالى نزلا اشارة الى أن بعدها أشياء لان النزل مايعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجعل له راتبا أو يكتب له خبزا وقوله بما كانوا يعملون يحقق ماذكرنا وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها اشارة الى حال الكافر وقد ذكرنا مرارا ان

تعالى (وما جعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم) وتنبيها على أن كون المظاهر منها أما وكون الدعى ابنا اى بمنزلة الام والابن فى الآثار والاحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هورد لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الاريب له قلبان ولذلك قيل لابى معمر أو لجميل بن أسد الفهرى ذوا قلبين اى ما جمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله ❊ ٧٦٤ ❊ تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ولا زوجية ولا امومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقية الزوجية والامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام الزوجية وأحكام الامومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام البنوة على الاطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام البنوة لابطال ما كانوا عليه من اجراء احكام الامومة على المظاهر منها واجراء أحكام البنوة على الدعى ومعنى الظهار أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لانه كان طلاقا فى الجاهلية وهو فى الاسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة الى أداء الكفارة كما عدى الى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فان ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فانهم كانوا يحرمون اتيان الزوجة وظهرها الى السماء وقرئ اللاى وقرئ تظاهرون بحذف احدى التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بادغام التاء الثانية فى الظاء وتظهرون من اظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد ❊ أمران ❊

العمل الصالح له مع الايمان اثر اما الكفر اذا جاء فلا التفات الى الاعمال فلم يقل واما الذين فسقوا وعملوا السيآت لان المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب فى مقابلة الكفر والعمل لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه وقوله فى حق المؤمنين لهم بلام التمليك زيادة اكرام لان من قال غيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده واذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك فى قوله لهم جنات ألا ترى انه تعالى لما أسكن آدم الجنة كان فى علمه انه يخرجه منها قال اسكن أنت وزوجك الجنة ولم يقل لكما الجنة وفى الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال لكم الجنة ولهم جنات وقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا اشارة الى معنى حكمى وهو ان المؤلم اذا تمكن والالم اذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الاطباء ان حرارة حمى الدق بالنسبة الى حرارة الحمى البلغمية نسبة النار الى الماء المسخن ثم ان المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بطهور حرارة الحمى البلغمية وكذلك الانسان اذا وضع يده فى ماء بارد يتألم من البرد فاذا صبر زمانا طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الالم الشديد مع فساد مزاجه اذا علمت هذا فقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها اشارة الى أن الاله لا يسكن عنهم بل يرد عليهم فى كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون يقرر ما ذكرنا ومعناه انهم فى الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار فلما ذاقوه كان أشد ايلاما لان من لا يتوقع شيأ فيصيبه يكون أشد تأثيرا ثم انهم فى الآخرة كما هم فى الدنيا يجزمون أن لا عذاب الا وقد وصل اليهم ولا يتوقعون شيأ آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الاول وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ليس مقتصرا على تكذيبهم الذى كان فى الدنيا بل كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل اما فى الدنيا بقولكم لا عذاب فى الآخرة واما فى الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه ❊ ثم لما هددهم قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون) يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فان عذاب الدنيا لا نسبة له الى عذاب الآخرة لان عذاب الدنيا لا يكون شديدا ولا يكون مديدا فان العذاب الشديد فى الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه فلا يمتد وان أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب فى غاية الشدة وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد وفى الآية مسئلتان (احداهما) قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى العذاب الادنى فى مقابلته العذاب الاقصى والعذاب الاكبر فى مقابلته العذاب الاصغر فما الحكمة فى مقابلة الادنى بالاكبر فنقول حصل فى عذاب الدنيا أمران أحدهما انه قريب والآخر انه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضا

... ادا على الشذوذ لاختصاص أفعل التفضيل ...
وتظهرون من ظهر ظهورا وأدعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ابنا على الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل
واتقياء كأنه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه كقتلاء وأسراء (ذلكم) اشارة الى ما يفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو الى الاخير الذى
هو المقصود من مساق الكلام اى دعاؤكم بقولكم هذا ابنى (قولكم بأفواهكم) فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الاعيان
فاذن هو بمعزل من استتباع أحكام البنوة كما زعمتم (والله يقول الحق) المطابق للواقع (وهو يهدى السبيل) اى
سبيل الحق لا غير فدعوا
اقوالكم وخذوا بقوله عز وجل
(ادعوهم لآبائهم) اى
انسبوهم اليهم وخصوهم بهم
وقوله تعالى (هو أقسط عند
الله) تعليل له والضمير لمصدر
ادعوا كما فى قوله تعالى اعدلوا
هو أقرب للتقوى وأقسط أفعل
تفضيل قصد به الزيادة
مطلقا من القسط بمعنى العدل
اى الدعاء لآبائهم بالغ فى العدل
والصدق فى حكم الله تعالى
وقضائه (فان لم تعلموا آباءهم)
فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم)
فهو اخوانكم (فى الدين
ومواليكم) وأولياؤكم فيه اى
فادعوهم بالاخوة الدينية
والمولوية (وليس عليكم
جناح) اى اثم (فيما أخطأتم)
اى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين
بالسهو أو النسيان أو سبق اللسان
(ولكن ما تعمدت قلوبكم)
اى ولكن الجناح فيما تعمدت
قلوبكم بعد النهى أو ما تعمدت
قلوبكم فيه الجناح (وكان الله
غفورا رحيما) لعفوه عن
المخطئ وحكم التبنى بقوله هو
ابنى اذا كان عبد للقائل العتق
على كل حال ولا يثبت نسبه منه
الا اذا كان مجهول النسب
وكان بحيث يولد مثله لمثل
المتبنى ولم يقر قبله بنسبه من غيره (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) اى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به
الاطلاق فيجب عليهم أن يكون عليه الصلاة والسلام

أمران أحدهما انه بعيد والآخر انه عظيم كثير لكن القرب فى عذاب الدنيا هو الذى
يصلح للتخويف به فان العذاب العاجل وان كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر
مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض
الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل واما فى عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به
هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال فى عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل
عنه ولو قال لنذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا
وقال فى عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال دون العذاب الابعد الاقصى لما حصل
التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر وبالجملة فقد اختار الله تعالى فى العذابين
الوصف الذى هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة (المسئلة
الثانية) قوله تعالى لعلهم يرجعون لعل هذه للترجى والله تعالى محال ذلك عليه فالحكمة
فيه نقول فيه وجهان (احدهما) معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله تعالى
انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه أصلا فكذلك ههنا نذيقهم
على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب اذاقة
يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ونزيد وجها آخر من عندنا وهو ان كل فعل يتلوه أمر
مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الامر كما يقال فلان اتجر ليربح ثم ان
هذا التعليل ان كان فى موضع لا يحصل الجزم بحصول الامر من الفعل نظرا الى نفس
الفعل وان حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء
كذا كما يقال يتجر رجاء أن يربح وان حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك فى صحة قولنا
يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرا الى التجارة وان كان الجزم حاصلا نظرا الى الفعل
لا يصح أن يقال يرجو وان كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه
رجاء أن يموت لا يصح لحصول الجزم بالموت عقيب الحز نظرا اليه وان أمكن أن لا يموت
نظرا الى قدرة الله تعالى ويصح قولنا قوله تعالى فى حق ابراهيم والذى أطمع أن يغفر لى
خطيئتى مع انه كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه
الطمع وكذلك قوله تعالى وارجوا اليوم الآخر مع أن الجزم به لازم اذا علم ما ذكرنا
فنقول فى كل صورة قال الله تعالى لعلهم فان نظرنا الى الفعل لا يلزم الجزم فان من
التعذيب لا يلزم الرجوع لزوما بينا فصح قولنا يرجو وان كان علمه حاصلا بما يكون غاية
ما فى الباب ان الرجاء فى أكثر الامر استعمل فيما لا يكون الامر معلوما فأوهم أن لا يجوز
الاطلاق فى حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز فى حق الله تعالى ولا يلزم منه
عدم العلم وانما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل
فيصح حقيقة الترجى فى حقه على ما ذكرنا من المعنى ❁ ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر
بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من

[أحـ]ـب اليهم من انفسهم وحكمه انفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى
أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرئ وهو أب لهم اى
فى الدين فان كل نبى أب لامته من حيث انه أصل فيما به الحياة الابدية ولذلك صار المؤمنون اخوة (وأزواجه أمهاتهم) اى
منزلات منزلة الامهات فى التحريم واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن كالاجنبيات ولذلك قالت عائشة
رضى الله عنها لسنا أمهات
النساء (وأولوا الارحام) اى
ذوو القرابات (بعضهم أولى
ببعض) فى التوارث وهو نسخ
لما كان فى صدر الاسلام من
التوارث بالهجرة والموالاة فى
الدين (فى كتاب الله) فى اللوح
أو فيما أنزله وهو هذه الآية
أو آية المواريث أو فيما فرض
الله تعالى (من المؤمنين
والمهاجرين) بيان لاولى
الارحام أو صلة لاولى اى أولو
الارحام بحق القرابة أولى
بالميراث من المؤمنين بحق الدين
ومن المهاجرين بحق الهجرة
(الا أن تفعلوا الى أوليائكم
معروفا) استثناء من أعم ما تقدر
الاولوية فيه من النفع والمراد
بفعل المعروف التوصية أو
منقطع (كان ذلك فى الكتاب
مسطورا) اى كان ما ذكر من
الآيتين ثابتا فى اللوح أو القرآن
وقيل فى التوراة (واذ أخذنا
من النبيين ميثاقهم) اى اذكر
وقت أخذنا من النبيين كافة
عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء
الى الدين الحق (ومنك ومن
نوح وابراهيم وموسى وعيسى
ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر
مع اندراجهم فى النبيين اندراجا
بينا للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم ﴿ قيا ﴾
نبينا عليهم عليهم الصلاة والسلام لابانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) اى عهدا عظيم الشأن

النعم أولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لان من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى
البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الى طلل اى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما
قال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد اى دليلك الله لا تحتاج بانير الباطن الى
دليل على الله ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر
الموجودات سواء كان فيها نفع أو ضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى سنريهم آياتنا
فى الآفاق وفى أنفسهم فان لم يكفهم ذلك فيسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فالاول الذى
لا يحتاج الى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج الى دليل فهو متوسط والثالث الذى
لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه
آخر وهو الذى اذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته فان الاكثر كان من صفتهم انهم
اذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين اليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال ومن
أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ❁ ثم قال تعالى (انا من المجرمين منتقمون) اى لما لم
ينفعهم العذاب الادنى فانا منتقم منهم بالعذاب الاكبر ❁ ثم قال تعالى (ولقد آتينا موسى
الكتاب) لما قرر الاصول الثلاثة على ما بيناه عاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة
المذكورة فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير وقال قل ما كنت بدعا من الرسل بل كان
قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من
كان على دينه الزاما لهم وانما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود
ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك
بالمجمع عليه ❁ وقوله (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء
موسى فانك تراه وتلقاه وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء
الكتاب فانك تلقاه كما لقى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل
لتسلية النبى عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم
فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقى ما لقيت وأوذى كما أوذيت وعلى هذا فاختيار
موسى عليه السلام لحكمة وهى أن أحدا من الانبياء لم يؤذه قومه الا الذين لم يؤمنوا به
وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان من لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره
ومن آمن به من بنى اسرائيل أيضا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله
جهرة ومثل قولهم اذهب انت وربك فقاتلا ثم بين له ان هدايته غير خالية عن المنفعة كما
انه لم تخل هداية موسى ❁ فقال (وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون
بامرنا) فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك
هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام أصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم
اهتديتم ثم بين ان ذلك يحصل بالصبر ❁ فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك
اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق ❁ ثم قال تعالى (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة

فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جوابا لسؤال وهو انه لما قال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد فقال فيهم هداة والله يبين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة وفيه وجه آخر وهو ان الله تعالى بين انه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الامم فينبغي أن لا يأمن من آمن وان لم يجتهد فان المبتدع معذب كالكافر غاية ما فى الباب ان عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم * ثم قال تعالى (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب تقرير لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم واعادة لبيان ما سبق فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد فقال تعالى أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم * وقوله (يمشون فى مساكنهم) زيادة ابانة اى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها * وقوله تعالى (ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع لانهم ما كان لهم قوة الادراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم فقال أفلا يسمعون يعنى ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشئ ويفهمه * ثم قال تعالى (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) لما بين الاهلاك وهو الامانة بين الاحياء ليكون اشارة الى أن الضر والنفع بيد الله والجرز الارض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات * ثم قال تعالى (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم الانعام على الانفس فى الاكل لوجوه (أحدها) ان الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو ان الزرع غذاء الدواب وهو لابد منه وأما غذاء الانسان فقد يحصل من الحيوان فكأن الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (الثالث) اشارة الى أن الاكل من ذوات الدواب والانسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة * ثم قال تعالى (أفلا تبصرون) لان الامر يرى بخلاف حال الماضين فانها كانت مسموعة ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) الى آخر السورة فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله لتنذر قوما وفى آخرها بقوله ولقد آتينا موسى الكتاب وذكر التوحيد بقوله الذى خلق السموات والارض وقوله الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين وفى آخر السورة ذكره بقوله أولم يهد لهم وقوله أولم يروا انا نسوق وذكر الحشر فى أولها بقوله وقالوا أئذا ضللنا فى الارض وفى آخرها بقوله ويقولون متى هذا الفتح * وقوله تعالى (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) اى لا يقبل ايمانهم فى تلك الحالة لان الايمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ولا ينظرون اى لا يمهلون بالاعادة الى الدنيا ليؤمنوا فيقبل ايمانهم ثم لما بين المسائل واتقن الدلائل ولم ينفعهم * قال تعالى (فأعرض عنهم)

أومؤكدا باليمين وهذا هو الميثاق الاول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ اثر قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع الى ما ذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فان المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصديا كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات الى الغيبة أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الانبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للايذان من أول الامر بانهم صادقون فيما سئلوا عنه وانما السؤال لحكمة تقتضيه اى ليسأل الانبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم اياهم تبكيتا لهم كما فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فان مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق واما ما قيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا أليما) عطف على ما ذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والتوجيه بان بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لاثابة المؤمنين او بان المعنى ان الله تعالى أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفض الى كون بيان اعداد العذاب الاليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) ان جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها والا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها اى كائنة عليكم

(اذجاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة اولثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على انه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثنى عشر ألفا فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب الى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بنى محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا مضيقا فضربوا خيولهم واقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن أبى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه يا عمرو انى أدعوك الى الله ورسوله والاسلام قال لا حاجة لى اليه فانى أدعوك الى النزال قال يا ابن أخى والله لا أحب أن أقتلك قال على لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيورا مشهورا بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أوضرب وجهه ثم أقبل * استوى * على على فتناولا وتجاولا فضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى قتله أيضا على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم

اى لا تناظرهم بعد ذلك وانما الطريق بعد هذا القتال * وقوله (وانتظر انهم منتظرون) يحتمل وجوها (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك وعلى هذا فرق بين الانتظارين لان انتظار النبى صلى الله عليه وسلم بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وقالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين الى غير ذلك والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين

* (سورة الاحزاب سبعون وثلاث آيه وهى مدنية باجماع) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى (يا أيها النبى اتق الله) فى تفسير الآية مسائل (الاولى) فى الفرق بين النداء والمنادى بقوله يا رجل ويا أيها الرجل وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضا وينبئ عن خطر خطب المنادى له أوغفلة المنادى (اما الثانى) فمذكور (واما الاول) فلان قوله يا أى جعل المنادى غير معلوم أولا فيكون كل سامع متطلعا الى المنادى فاذا خص واحدا كان فى ذلك انباء لكل لتطلعهم اليه واذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت الى جانب المنادى الا المذكور واذا علم هذا فنقول يا أيها لا يجوز حمله على غفلة النبى لان قوله النبى ينافى الغفلة لان النبى عليه السلام خبير فلا يكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب (المسئلة الثانية) الامر بالشئ لا يكون الا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به اذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبى عليه السلام كان متقيا فما الوجه فيه نقول فيه وجهان (أحدهما) منقول وهو انه أمر بالمداومة فانه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا الى أن أجيئك ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم اى دم على ما أنت عليه (والثانى) وهو معقول لطيف وهو ان الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبى لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الاول ولا بالمعنى الثانى واما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام فى الدنيا وكيف والامور الدنيوية شاغلة والآدمى فى الدنيا تارة مع الله وأخرى مقبل على ما لا بد منه وان كان معه الله والى هذا أشار بقوله انما أنا بشر مثلكم يوحى الى يعنى يرفع الحجاب عنى وقت الوحى ثم أعود اليكم كأنى منكم فالامر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثانى) هو ان النبى عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة الى ما هو فيه تركا للافضل فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة فقوله اتق الله على هذا أمر بما ليس فيه والى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله من

استوى يوماه فهو مغبون ولانه طلب من ربه بامر الله اياه به زيادة العلم حيث قال وقل رب زدني علما وأيضا الى هذا وقعت الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام انه ليغان على قلبي فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئا اذا علم هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم بحكم انما أنا بشر مثلكم كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فامره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد الا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له اى يا أيها النبى أنت ما بقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى مثل تقوى الاحاد أو تقوى الاوتاد بل لا يقنع منك الا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى ان الانسان اذا كان يخاف فوت مال ان هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه فكذلك النبى عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيدا وعمرا اخف عمرا فان زيدا لا يقدر عليك اذا كان عمرو معك ولا يكون ذلك أمرا بالخوف من عمرو فانه يخافه وانما يكون ذلك نهيا عن الخوف من زيد فى ضمن الامر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدا * ثم قوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) يقرر قولنا اى اتق الله تمنعك من طاعتهم (المسئلة الثالثة) لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع ان النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن لا يطيع أحدا غير الله نقول لوجهين (أحدهما) ان ذكرا غير لا حاجة اليه لان غيرهما لا يطلب من النبى عليه الصلاة والسلام الاتباع ولا يتوقع أن يصير النبى عليه الصلاة والسلام مطيعا له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده الامطاعا (والثانى) هو أنه تعالى لما قال ولا تطع الكافرين والمنافقين منعه من طاعة الكل لان كل من طلب من النبى عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبى عليه الصلاة والسلام بأمر أمر ايجاب معتقدا على انه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرا * ثم قال تعالى (ان الله كان عليما حكيما) اشارة الى أن التقوى ينبغى أن تكون عن صميم قلبك لا تخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم وقوله حكيما اشارة الى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال اذا قال الله شيئا وقال جمع الكافرين والمنافقين مع انهم أقارب النبى عليه الصلاة والسلام شيئا آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجها معقولا فاتباعهم لا يكون الا مصلحة فقال الله تعالى انه حكيم ولا تكون المصلحة الا فى قول الحكيم فاذا أمرك الله بشئ فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه * وقوله تعالى (واتبع ما يوحى اليك من ربك) يقرر ما ذكرنا من انه حكيم فاتباعه هو الواجب * ثم قال تعالى (ان الله كان بما تعملون خبيرا) لما قال انه عليم بما فى قلوب العباد بين انه عالم خبير باعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم * ثم قال تعالى

الا الترامى بالنبل والحجارة حتى انزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ...) النعمة اجمالا وسيأتى تفصيلها فى آخر القصة (وجنودا لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا الفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب وأطفأت النيران واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الاسدى اما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب وقيل من التجائكم اليه ورجائكم من فضله وقرئ بالياء أى بما يعمله الكفار أى من التحزب والمحاربة أو من الكفر والمعاصى (بصيرا) ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله (اذ جاؤكم) بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من اهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) اى من اسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الاحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (واذ زاغت الابصار) عطف على ما قبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لان الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب

... في قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الايمان على الاطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى ينجز وعده فى اعلاء دينه كما يعرب عنه ما سيحكى عنهم من قولهم هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله الآية أو يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما لاخير فيه والجملة معطوفة على زاغت * ٧٧٠ * وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرئ الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد فى القوافى (هنالك) ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أى فى ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض (ابتلى المؤمنون) أى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من الهول والفزع وقرئ بفتح الزاى (واذ يقول المنافقون) عطف على اذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله) من اعلاء الدين والظفر (الا غرورا) أى وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور (واذ قالت طائفة منهم) هم أوس ابن قيظى وأتباعه وقيل عبد الله ابن أبى وأشياعه (يا أهل يثرب) هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة فى ناحية منها وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام ونداؤهم اياهم بعنوان أهليتهم لها ترشيح لما بعده من الامر

(وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وان توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعا ينفع ولا يضر معه شئ وان ضر لا ينفع معه شئ * ثم قال تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى أبى معمر كان يقول لى قلبان اعلم وافهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه * وقال الزمخشرى قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال ان الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبى اتق الله فكان ذلك أمرا له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقى ويخاف شيئا خوفا شديدا لا يدخل فى قلبه شئ آخر ألا ترى ان الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكأن الله تعالى قال يا أيها النبى اتق الله حق تقاته ومن حقها أن لا يكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله وبالآخر غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب عن جهة الله الى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى انه يتقى الله حق تقاته ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام انه لا ينبغى أن يتقى أحدا ولا مثل ما اتقيت فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه يعنى مثل تلك التقوى لا ينبغى أن تدخل فى قلبك ثم لما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء * فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم أى انكم اذا قلتم لأزواجكم أنت على كظهر أمى فلا تصير هى اما باجماع الكل أما فى الاسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء وأما فى الجاهلية فلأنه كان طلاقا حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد فاذا كان قول القائل لزوجته أنت أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة اما كذلك قول القائل للدعى أنت ابنى لا يوجب كونه ابنا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن لأحد أن يقول فى ذلك شيئا فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمرا مخوفا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحدا * ثم قوله تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو ان الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شئ كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين اذا قالوا شيئا جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب لان الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز عن التخلق بأخلاقها فقول القائل هذا ابن

بالرجوع اليها (لامقام لكم) لاموضع اقامة لكم اولا اقامة لكم ههنا يريدون العسكر وقرى بفتح الميم اى لاقيام
اولاموضع قيام لكم (فارجعوا) اى الى منازلكم بالمدينة مرادهم الامر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا
لمقالهم وايذانا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لاقيام لكم فى دين محمد عليه الصلاة والسلام فارجعوا
الى ماكنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه الى أعدائه أولا مقام لكم فى يثرب
فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام بها والاول هو الانسب لما بعده فان قوله تعالى (ويستأذن فريق منهم النبى) معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام فى الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى (يقولون) بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو استئناف مبنى على السؤال عن كيفية الاستئذان (ان بيوتنا عورة) أى غير حصينة معرضة للعدو والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع الى العسكر والعورة فى الاصل الخلل اطلقت على المختل مبالغة وقد جوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار اذا اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق (وماهى بعورة) والحال انها ليست كذلك (ان يريدون) ما يريدون بالاستئذان (الافرارا) من القتال (ولو دخلت عليهم) أسند الدخول الى بيوتهم
وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور
ولا فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو أسند الى الجار والمجرور (من أقطارها) أى من جميع جوانبها لا من
بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية ودخلها كل من أراد من اهل الدعارة والفساد (ثم سئلوا)

فلان مع انه ليس ابنه ليس كلاما فان الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لاغير والاطيفة هى
ان الله تعالى ههنا قال ذلكم قولكم بأفواهكم وقال فى قوله وقالت النصارى المسيح ابن
الله ذلك قولهم بأفواههم يعنى نسبة الشخص الى غير الاب قول لاحقيقة له ولا يخرج
من قلب ولا يدخل أيضا فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم * ثم قال تعالى
(والله يقول الحق) اشارة الى معنى لطيف وهو ان العاقل ينبغى ان يكون قوله اما عن
عقل أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع
بأن يكون ابنه شرعا وان لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدا وكانت
الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى
لقيام الفراش ونقول انه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لانه لايقول
الا الحق وهذا خلاف الحق لان أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو انهم قالوا هذه
زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم
كأصوات البهائم وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله وهو يهدى السبيل يؤكد قوله
والله يقول الحق يعنى يجب اتباعه لكونه حقا ولكونه هاديا وقوله تعالى ذلكم قولكم
بأفواهكم والله يقول الحق فيه لطيفة وهو ان الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت
البهائم الذى يوجد لا عن قلب ثم ان الكلام الذى بالقلب قد يكون حقا وقد يكون باطلا
لان من يقول شيأ عن اعتقاد قد يكون مطابقا فيكون حقا وقد لا يكون فيكون باطلا
فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقا وقد يكون باطلا لانه يتبع
الوجود وقول الله حق لانه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون فاذن
قول الله خير من أقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته الى أقوالكم التى
بأفواهكم فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق
فمن يقول بأن تزوج النبى عليه الصلاة والسلام زينب لم يكن حسنا يكون قد ترك قول
الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم * ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) اشارة الى أن
اتباع ما أنزل الله خير من الاخذ بقول الغير * ثم بين الهداية وقال (ادعوهم لآبائهم)
أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى أعدله فانه وضع الشئ فى موضعه وهو يحتمل
وجهين (أحدهما) ان يكون ترك الاضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل
الله أكبر (وثانيهما) ان يكون ماتقدم منويا كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن
فلان * ثم تم الارشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى
قولوا لهم اخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان * ثم قال تعالى
(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يابنى بطريق الشفقة وقول
القائل لغيره ياأبى بطريق التعظيم فانه مثل الخطا الاترى ان اللغو فى اليمين مثل الخطا
وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد

من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة (الفتنة) أى الردة والرجعة الى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الايمان والطاعة (لآتوها) لاعطوها غير مبالين بما هاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرئ لأتوها بالقصر أى لفعلوها وجاؤها (وماتلبثوا بها) بالفتنة أى ما لبثوها وما أخروها (الا يسيرا) ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعليل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد الا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزبة فمع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم اذا دعوا الى الحق تعللوا بشئ يسير وان دعوا الى الباطل سارعوا اليه آثر ذى أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة واسناد سؤال الفتنة والدعوة الى الكفر الى طائفة أخرى مع أن العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الاعراض عن الحق المجدون فى الدعاء الى الكفر والضلال بمعزل من التقريب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار) فان بنى حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان عهد الله مسئولا) مطلوبا مقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) فانه لا بد لكل شخص من حتف أنف أو قتل سيف فى وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه

الى اثبات النسب سواء * وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفورا رحيما) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاما شافيا فى المغفرة والرحمة فى مواضع ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى ان العبد اذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال انه غفر له والرحمة هو ان يميل اليه بالاحسان لعجز المرحوم اليه لا لعوض فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه وكذا من أحسن الى غيره رجاء فى خيره أو عوضا عما صدر منه آنفا من الاحسان لا يقال رحمه اذا علم هذا فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها انه ستر عيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه واذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال اليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه * ثم قال تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكان هذ جواب عن سؤال وهو ان قائلا لو قال هب ان الادعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابنا اذا كان لدعيه شئ حسن لا يليق بمروأته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفا فقال الله تعالى النبى أولى بالمؤمنين جوابا عن ذلك السؤال وتقريره هو ان دفع الحاجات على مراتب دفع حاجة الاجانب ثم دفع حاجة الاقارب الذين على حواشى النسب ثم دفع حاجة الاصول والفصول ثم دفع حاجة النفس والاول عرفا دون الثانى وكذلك شرعا فان العاقلة تحمل الدية عنهم ولا تحملها عن الاجانب والثانى دون الثالث أيضا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير واليه أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله ابدأ بنفسك ثم بمن تعول اذا علمت هذا فالانسان اذا كان معه ما يغطى به احدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شقى بدنه فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لاحد أن يقول له لم فعلت فضلا من أن يقول بئسما فعلت اللهم الا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما اذا وقى الانسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذى هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا وفى عكس الامر يقال له لم فعلت واذا تبين هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه فى برد مفرط قاصدا به تربية شعره ولا يعلم انه يؤذى رأسه الذى لا نبات لشعره الا منه فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها الى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة الا من الرسول عليه الصلاة والسلام فلو دفع الانسان حاجته لا للعبادة فهو ليس دفعا للحاجة لان دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبى الذى منه يتعلم كيفية العبادة فى الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس فتبين أن النبى صلى الله عليه

وسلم اذا أراد شيئا حرم على الامة التعرض اليه فى الحكمة الواضحة * ثم قال تعالى
(وأزواجه أمهاتهم) تقريرا آخر وذلك لان زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ماجعلها
الله تعالى فى حكم الام الالقطع نظر الامة عما تعلق به غرض النبى عليه الصلاة والسلام
فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى التعلق فحرمت مثل ماحرمت أزواجه على
غيره فلوقال قائل كيف قال وأزواجه أمهاتهم وقال من قبل وماجعل أزواجكم اللائى
تظاهرون منهن امهاتكم اشارة الى ان غيرمن ولدت لاتصير اما بوجه ولذلك قال تعالى
فى موضع آخر ان امهاتهم الااللائى ولدنهم فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة والله
يقول الحق وهو يهدى السبيل جواب عن هذا معناه ان الشرع مثل الحقيقة ولهذا
يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة الى الشريعة كما ان امرأتين اذا ادعت كل واحدة
ولدا بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت احداهما دون الاخرى حكم لها بالولد وان تبين
ان التى حلفت دون البلوغ أو بكر ببينة لايحكم لها بالولد فعلم ان عند عدم الوصول
الى الحقيقة يرجع الى الشرع لابل فى بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة
فان الزانى لا يجعل أبا لولد الزنا اذ ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه امى
قول يفهم لاعن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة وأما قول الشارع حق والذى يؤيده هو
أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها الاترى ان الام ماصارت اما الا
بخلق الله الولد فى رحمها ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الام غيرها فاذا كان هو الذى
يجعل الام الحقيقية اما فله أن يسمى امرأة أما و يعطيها حكم الامومة والمعقول فى جعل
أزواجه أمهاتنا هو ان الله تعالى جعل زوجة الاب محرمة على الابن لان الزوجة محل الغيرة
والتنازع فيها فان تزوج الابن بمن كانت تحت الاب يفضى ذلك الى قطع الرحم
والعقوق لكن النبى عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الاب و أولى
بالارضاء فان الاب يربى فى الدنيا فحسب والنبى عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا
والآخرة فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء فان قال قائل فلم لم يقل ان النبى
أبوكم و يحصل هذا المعنى أولم لم يقل ان أزواجه أزواج أبيكم فنقول لحكمة وهى
ان النبى لما بينا أنه اذا أراد زوجة واحد من الامة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبى
عليه الصلاة والسلام فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ولانه
لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الاب لقوله عليه الصلاة والسلام ابدأ
بنفسك ثم بمن تعول ولذلك فان المحتاج الى القوت لايجب عليه صرفه الى الاب و يجب
عليه صرفه الى النبى عليه الصلاة والسلام ثم ان أزواجه لهم حكم زوجات الاب حتى
لاتحرم أولادهن على المؤمنين ولا اخواتهن ولا امهاتهن وان كان الكل يحرمن فى الام
الحقيقية والرضاعية * ثم قال تعالى (واولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله
من المؤمنين والمهاجرين الا ان تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب

القلم (واذن لاتمتعون الا قليلا) أى وان نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع الا تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا (قل من
ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) أى أو يصيبكم بسوء ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى
على الاول لما فى العصمة من معنى المنع (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله
المعوقين منكم) أى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) من منافقى
المدينة (هلم الينا) هو صوت
سمى به فعل متعد نحو احضر
أو قرب و يستوى فيه الواحد
والجماعة على لغة أهل الحجاز
وأما بنو تميم فيقولون هلم يارجل
وهلموا يارجال أى قربوا أنفسكم
الينا وهذا يدل على أنهم عند
هذا القول خارجون من المعسكر
متوجهون نحو المدينة (ولا
يأتون البأس) أى الحرب والقتال
(الا قليلا) أى اتيانا أو زمانا
أو بأسا قليلا فانهم يعتذرون
ويثبطون ماأمكن لهم ويخرجون
مع المؤمنين يوهمونهم أنهم
معهم ولا تراهم يبارزون
و يقاتلون الاشيئا قليلا اذا
اضطروا اليه كقوله تعالى
ماقاتلوا الا قليلا وقيل انه من
تتمة كلامهم معناه ولا يأتى
أصحاب محمد حرب الاحزاب
ولا يقاومونهم الا قليلا (اشحة
عليكم) أى بخلاء عليكم بالمعاونة
أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر
والغنيمة جمع شحيح ونصبه على
الحالية من فاعل يأتون أو من
المعوقين أو على الذم (فاذا جاء
الخوف رأيتهم ينظرون اليك
تدور أعينهم) فى أحداقهم
(كالذى يغشى عليه من الموت)
صفة لمصدر ينظرون أو حال
من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا
ولواذا بك أى ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا

كدوران عينه أوندور أعينهم كائنة كعينه (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بالسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فانا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرئ صلقوكم (اشحة على الخير) نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (لم يؤمنوا) بالاخلاص (فاحبط الله أعمالهم) أى اظهر بطلانها اذ لم يثبت ﴿٧٧٤﴾ لهم اعمال فتبطل أو ابطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الاحباط (على الله يسيرا) هينا وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الاحزاب لم ينهزموا ففروا الى داخل المدينة (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب) تمنوا أنهم خارجون الى البدو وحاصلون بين الاعراب وقرئ بدى جمع باد كغاز وغزى (يسألون) كل قادم من جانب المدينة وقرئ يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الاعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فان صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت اليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا الا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا القدر

مسطورا) اشارة الى الميراث وقوله الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا اشارة الى الوصية يعنى ان أوصيتم فغير الوارثين أولى وان لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لا يتبين الا لمن هداه الله بنوره وهو ان غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لا يصير له مال الغير وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصير له مال الغير اذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته كأن الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ما تركه يرجع اليهم حتى لا يكون حرج على المؤمنين فى ان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيئا يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع اليهم فقال تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض يعنى بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالارث والنبى لا توارث بينه وبين أقاربه فينبغى أن يكون له بدل هذا أنه أولى فى حياته بما فى أيديكم (الثانى) هو ان الله تعالى ذكر دليلا على ان النبى عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو ان أولى الارحام بعضهم أولى ببعض ثم اذا أراد أحد برا مع صديق فيوصى له بشئ فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الارث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى الا الى من أريده فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله كان ذلك فى الكتاب مسطورا فيه وجهان (أحدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ * ثم قال تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبى اتق الله وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لكى لا يخشى فيها أحدا غيره وبين أنه لم يرتكب أمرا يوجب الخشية بقوله النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم أكده بوجه آخر وقال واذ أخذنا من النبيين كأنه قال اتق الله ولا تخف أحدا واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين فى انهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين ارسالهم وأمرهم بالتبليغ (المسئلة الثانية) خص بالذكر أربعة من الانبياء وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى لان موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما وابراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه فى الشعائر بعضها ونوحا لانه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الارشاد للاولاد ولهذا لم يكن فى زمانه اهلاك قوم ولا تعذيب وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا (المسئلة الثالثة) فى كثير من المواضع يقول الله

﴿ عيسى ﴾

عيسى بن مريم والمسيح بن مريم اشارة الى أنه لا أب له اذ لو كان لوقع التعريف به وقوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا فى الارسال كما قال تعالى ولنسئلن المرسلين وهذا لان الملك اذا أرسل رسولا وأمره بشئ وقبله فهو ميثاق فاذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله فى أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا هو الاخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبى عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤل وكان الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الانبياء قائمين بأمور أمتهم وارشادهم الى سبيل الرشاد * ثم قال تعالى (ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما) يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين اما حساب واما عذاب لان الصادق محاسب والكافر معذب وهذا كما قال على عليه السلام الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وهذا مما يوجب الخوف العام فبتأكد قوله يا أيها النبى اتق الله ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) تحقيقا لما سبق من الامر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لان فى واقعة اجتماع الاحزاب واشتداد الامر على الاصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبى عليه السلام الخندق كان الامر فى غاية الشدة والخوف بالغا الى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغى ان لا يخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادرا على أن يقهر المسلمين بالكفار مع انهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم وقوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اشارة الى ما فعل الله بهم من ارسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وارسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة وقوله وكان الله بما تعملون بصيرا اشارة الى ان الله علم التجاءكم اليه ورجاءكم فضله فنصركم على الاعداء عند الاستعداء وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون فان كان لا يظهر لكم وجه الأمن فلا تلتفتوا الى عدم ظهوره لكم لانكم لا ترون الاشياء فلا تخافون غير الله والله بصير بما تعملون فلا تقولوا أنا نفعل شيئا وهو لا يبصره فانه بكل شئ بصير وقوله اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بيان لشدة الامر وغاية الخوف وقيل من فوقكم أى من جانب الشرق ومن أسفل منكم من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الابصار أى مالت عن سننها

من الحديد وقرئ بكسر الهمزة وهى لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى ثواب الله أو لقاءه أو أيام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك أرجو زيدا وفضله فان اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثرون على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه (وذكر الله) أى وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيرا) أى ذكرا كثيرا أو زمانا كثيرا فان المثابرة على ذكره تعالى تؤدى الى ❊ ٧٧٥ ❊ ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولما رأى المؤمنون الاحزاب) بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) مشيرين الى ما شاهدوه من حيث هو من غير ان يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من أحكام اللفظ كما فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله اشارة الى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو (ما وعدنا الله ورسوله) فان ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الى قوله تعالى ألا ان نصر الله قريب وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الامر باجتماع الاحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله عليه الصلاة والسلام ان الاحزاب سائرون اليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرئ بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء واظهار الاسم للتعظيم (وما زادهم) أى ما رأوه (الا ايمانا) بالله تعالى وبمواعيده (وتسليما) لاوامره ومقاديره (من المؤمنين) أى المؤمنين بالاخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم

خاصة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لاعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى اذا قال ﴿٧٧٦﴾ لك الصدق ومحل ما عاهدوا النصب اما بطرح الخافض عنه وايصال الفعل اليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره أى فى سنه واما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكومائه * نحرتنى الاعداء ان لم تنحرى * وقالوا له سنفى بك وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوبا (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم الى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الانسان شيأ من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أى فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة بالياس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيدا أو كان مستعارا لالتزام على ما سيأتى * أتباعه (ومنهم) أى وبعضهم أو وبعض منهم (من ينتظر) أى قضاء نحبه لكونه موقتا كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال الى

فلم تلتفت الى العدو لكثرته وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وذلك لان القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى حتى اذا بلغت الحلقوم وقوله وتظنون بالله الظنونا الالف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة بمعنى تظنون كل ظن لان عند الامر العظيم كل أحد يظن شيئا ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة لان المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام ظنوا بالله خيرا ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا وقوله ان يتبعون الا الظن فان قال قائل المصدر لا يجمع فما الفائدة فى جمع الظنون فنقول لا شك فى انه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدرا كما يقال ضربته سياطا وأدبته مرارا فكأنه قال ظننتم ظنا بعد ظن أى ما ثبتم على ظن فالفائدة هى ان الله تعالى لو قال تظنون ظنا جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال ظنونا تبين ان فيهم من كان ظنه كاذبا لان الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها اذا كانت فى أمر واحد مثاله اذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون انه عمرو وقوم ثالث انه بكر ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجرا أو حجرا وقد يكون أحدهم مصيبا ولا يمكن ان يكونوا كلهم مصيبين فقوله الظنونا أفاد ان فيهم من أخطأ الظن ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان يفيد هذا * ثم قال تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق والامتحان من الله ليس لاستبانة الامر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه اراد اظهار الامر لغيره من الملائكة والانبياء كما أن السيد اذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالما بأنه يخالفه فيبين الامر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لاحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله وزلزلوا أى ازعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وبذكر الله تطمئن مرة أخرى وهم المؤمنون حقا * ثم قال تعالى (واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا) ظهر الظنون وبينها فظن المنافقون ان ما قال الله ورسوله كان زورا ووعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم أى لا وجه لاقامتكم مع محمد كما يقال لا اقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها ويثرب اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا أى عن محمد واتفقوا مع الاحزاب تخرجوا من الاحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على

حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضائه بعضها ... وهو القتال في سبيل ...
لا لتزام الموت شهيدا اما بتنزيل التزام أسبابه التي هي أفعال اختيارية بمنزلة التزام نفسه واما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه
وايراد الالتزام عليه وهو الانسب بمقام المدح وأياما كان ففي وصفهم بالانتظار المنبئ عن الرغبة في المنتظر شهادة حقة بكمال
اشتياقهم الى الشهادة واما ما قيل من أن النحب استعير للموت لانه كنذر لازم في رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة
وذهاب برونقها واخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله أي وما بدلوا عهدهم وما غيروه (تبديلا) أي تبديلا ما لا أصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الاول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحكم ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج الى بيان حالهم وقد روى أن طلحة رضي الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام أوجب طلحة الجنة وفي رواية أوجب طلحة وعنه عليه الصلاة والسلام في رواية جابر رضي الله عنه من سره أن ينظر الى شهيد يمشي على الارض فلينظر الى
طلحة ابن عبيد الله وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها من سره ان ينظر الى شهيد يمشي على الارض وقد
قضى نحبه فلينظر الى طلحة وهذا يشير الى أنه من الاولين حكما (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) تعليل غاية منتف
مسوق بطريق التمثيل لبيان ما هو داع الى وقوع ما حكى من الاحوال والاقوال على التفصيل وغاية له كما في قوله

اتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله وما هي بعورة وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار
وزوال القرار بسبب الخوف ثم قال تعالى (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة
لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا) اشارة الى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت
لان من يفعل فعلا لغرض فاذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته
فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو
دخلها الاحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضا وليس رجوعهم عنك الا بسبب كفرهم
وحبهم الفتنة وقوله ولو دخلت عليهم احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون
البيوت قوله وما تلبثوا بها يحتمل أن يكون المراد الفتنة الا يسيرا فانها تزول وتكون
العاقبة للمتقين ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أي ما تلبثوا بالمدينة الا يسيرا
فان المؤمنين يخرجونهم ثم قال تعالى (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار
وكان عهد الله مسئولا قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) بيانا لفساد
سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذرا وندما
وذكروا ان القتال لا يزال لهم قدما ثم هددهم بقوله وكان عهد الله مسئولا وقوله قل لن
ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل اشارة الى ان الامور مقدرة لا يمكن الفرار مما
وقع عليه القرار وما قدره الله كائن فمن أمر بشئ اذا خالفه يبقى في ورطة العقاب آجلا
ولا تنفع المخالفة عاجلا ثم قال تعالى (واذا لا تمتعون الا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه
في يومكم مع انه غير ممكن لما دمتم بل لا تمتعون الا قليلا فالعاقل لا يرغب في شئ قليل مع انه
يفوت عليه شيئا كثيرا فلا فراركم ولو كان لما متعتم بعد الفرار الا قليلا ثم قال تعالى (قل
من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله
وليا ولا نصيرا) بيانا لما تقدم من قوله لن ينفعكم الفرار وقوله ولا يجدون لهم من دون الله
تقرير لقوله من ذا الذي يعصمكم أي ليس لكم ولي يشفع لمحبته اياكم ولا نصير ينصركم
ويدفع عنكم السوء اذا أتاكم ثم قال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين
لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم) أي الذين يثبطون المسلمين
ويقولون تعالوا الينا لا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم وجهان (أحدهما)
انهم المنافقون الذين كانوا يقولون للانصار لا تقاتلوا وأسلموا محمدا الى قريش
(وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لاهل المدينة تعالوا الينا وكونوا معنا وهلم بمعنى
تعال أو احضر ولا يجمع في لغة الحجاز ويجمع في غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلممن
وقوله ولا يأتون البأس الا قليلا يؤيد الوجه الاول وهو ان المراد منهم المنافقون وهو
يحتمل وجهين (أحدهما) لا يأتون البأس بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم
وحينئذ قوله تعالى أشحة عليكم أي بخلاء حيث لا ينفقون في سبيل الله شيئا
(وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت

تعالى الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ماوقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا (ويعذب المنافقين) بما صدر عنهم من الاعمال والاقوال المحكية (ان شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) ان تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفى التبديل المنطوق واثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا * ٧٧٨ * وقيل لما فهم من قوله تعالى ومازادهم الا ايمانا وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق (ان الله كان غفورا رحيما) أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث الى التوبة وقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا) رجوع الى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار اليها اجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها معطوف اما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل اثر حكاية الامور المذكورة وقع ماوقع من الحوادث ورد الله الخ واما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون مانزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والافهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الاقدام وتفصل ماصدر عن فريقى أهل الايمان واهل الكفر والنفاق من الاحوال والاقوال لاظهار عظم النعمة وابانة خطرها الجليل ببيان وصولها اليهم عند غاية احتياجهم اليها أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة * وقد * وقوله تعالى (بغيظهم) حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيرا) بتداخل أو تعاقب أى غير ظافرين بخير أو الثانية بيان للاولى أو استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من ارسال الريح والجنود (وكان

الحضور معكم وقوله أشحة عليكم أى بانفسهم وأبدانهم * ثم قال تعالى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد اشحة على الخير) اشارة الى غاية جبنهم ونهاية روعهم واعلم ان البخل شبيه الجبن فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو ان الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لانه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لابدل له فيتوقف فيه وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه اخراج المال فى القتال طمعا فيما هو اضعاف ذلك واما بالنفس والبدن فكذلك فان الجبان يخاف قرنه ويتصور القتل فيجبن ويترك الاقدام واما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم وقوله تعالى فاذا ذهب الخوف سلقوكم أى غلبوكم بالسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الاوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالاياب وقوله أشحة على الخير قيل المال ويمكن ان يقال معناه انهم قليلو الخير فى الحالتين كثير والشر فى الوقتين فى الاول يبخلون وفى الآخر كذلك * ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) يعنى لم يؤمنوا حقيقة وان أظهروا الايمان لفظا فاحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله وكان ذلك على الله يسيرا اشارة الى مايكون فى نظر الناظر كما فى قوله تعالى وهو أهون عليه وذلك لان الاحباط اعدام واهدار واعدام الاجسام اذا نظر الناظر يقول الجسم اعدامه بتفريق اجزائه فان من أحرق شيئا يبقى منه رماد وذلك لان الرماد ان فرقته الريح يبقى منه ذرات وهذا مذهب بعض الناس والحق هو ان الله يعدم الاجسام ويعيد مايشاء منها وأما العمل فهو فى العين معدوم ان كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل اذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم * ثم قال تعالى (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون فى الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ماقاتلوا الا قليلا لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع انهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى ولو كانوا فيكم ماقاتلوا الا قليلا * ثم قال تعالى (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا ايمانا وتسليما) لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو انهم قالوا هذا ماوعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا وصدق الله ورسوله فى مقابلة قولهم ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ماوقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وانما هى اشارة الى بشارة وهو انهم قالوا هذا ماوعدنا الله

الله قويا) على احداث كل ما يريد (عزيزا) غالبا على كل شيء (وأنزل الذين ظاهروهم) أي عاونوا الأحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جمع صيصية وهي ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للاسر حسبما نطق به قوله تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون ✻ ✻ فريقا) من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء

روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون الى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح ان الله يأمرك أن تسير الى بني قريظة وانا عامد اليهم فاذن في الناس أن لا يصلوا العصر الا ببني قريظة فحاصروهم احدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمي فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم فكبر النبي عليه الصلاة والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة الى تسعمائة وأسر سبعمائة وقرئ تأسرون بضم السين كما قرئ الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول في الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما في قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقوله تعالى فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل (وأورثكم أرضهم وديارهم) أي حصونهم (وأموالهم) نقودهم وأثاثهم ومواشيهم

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار فقالت الانصار في ذلك فقال عليه الصلاة والسلام انكم في منازلكم فقال عمر رضي الله عنه أما تخمس كما خمست يوم

وقد وقع وصدق الله في جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله ما زادهم الا ايمانا بوقوعه وتسليما عند وجوده ✻ ثم قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) اشارة الى وفائهم بعهدهم الذي عاهدوا الله انهم لا يفارقون نبيه الا بالموت فمنهم من قضى نحبه أي قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هو بعد في القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا نولي الادبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله ليجزي الله الصادقين بصدقهم أي بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله ان شاء ذلك فيمنعهم من الايمان أو يتوب عليهم ان أراد وانما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبي عليه السلام عن ايمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله وكان الله غفورا رحيما حيث ستر ذنوبهم ورحم حيث رحمهم ورزقهم الايمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول ويعذب المنافقين مع انه كان غفورا رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال ورد الله الذين كفروا بغيظهم أي مع غيظهم لم يشفوا صدرا ولم يحققوا أمرا وكفى الله المؤمنين القتال أي لم يحوجهم الى قتال وكان الله قويا غير محتاج الى قتالهم عزيزا قادرا على استئصال الكفار واذلالهم ✻ ثم قال تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) أي عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف في قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي فريقا تقتلون وهم الرجال وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان فان قيل هل في تقديم المفعول حيث قال فريقا تقتلون وتأخيره حيث قال وتأسرون فريقا فائدة قلت قد أجبنا مرارا أن ما من شيء من القرآن الا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر والذي يظهر من هذا والله أعلم ان القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاعرف فالاعرف والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين فكان القتل واردا عليهم والاسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الاخفى وان شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله فريقا تقتلون فعل ومفعول والاصل في الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل اما انها جملة فعلية فلانها لو كانت اسمية لكان الواجب في فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقا تقتلون

بدر فقال عليه الصلاة والسلام لانما جاءت هذه لي طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضا لم تطؤها) أي
أورثكم في علمه وتقديره أرضا لم تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح الى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل
شيء قديرا) فقد شاهدتم بعض مقدوراته من ايراث الاراضي التي تسلمتموها فقيسوا عليها ما عداها (يا أيها النبي قل لأزواجك
ان كنتن تردن الحيوة الدنيا) أي السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها ﴿٧٨٠﴾ (فتعالين) أي أقبلن بارادتكن واختياركن
لاحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني (أمتعكن) بالجزم جوابا للامر وكذا (وأسرحكن) أي أعطكن المتعة وأطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وقرئ بالرفع على الاستئناف روي أنهن سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل لا يحل لك النساء من بعد واختلف في أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أولا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى أنه لم يكن تفويض الطلاق وانما كان تخييرا لهن بين الارادتين على أنهن ان أردن الدنيا فارقهن عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن وذهب آخرون الى أنه كان تفويضا للطلاق اليهن حتى لو أنهن اخترن
أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف في حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضي الله
عنهم اذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعي
وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان وروى

والحاصل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول وههنا كذلك لانه تعالى لما
ذكر حال الذين ظاهروهم وانه قذف في قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون الى أن يسمع
السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم انهم هم المقتولون فأما
اذا قال فريقا مع سبق في قلوبهم الرعب الى سمعه يستمع الى اتمام الكلام واذا كان
الاول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الاصل فقدم
تقديم الفعل لزوال موجب التقديم اذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفا اليهم
ولو قال بعد ذلك وفريقا تأسرون فمن سمع فريقا ربما يظن ان يقال فيهم يطلقون
أو لا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى وكذلك الكلام في قوله وأنزل الذين
ظاهروهم وقوله وقذف فان قذف الرعب قبل الانزال لان الرعب صار سبب الانزال
ولكن لما كان الفرح في انزالهم أكثر قدم الانزال على قذف الرعب والله أعلم ﴿ ثم قال
تعالى (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء
قديرا) فيه ترتيب على ما كان فان المؤمنين أولا تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء
عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم وقوله
وأرضا لم تطؤها قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ الى
يوم القيامة وكان الله على كل شيء قديرا هذا يؤكد قول من قال ان المراد من قولهم
وأرضا لم تطؤها هو ما سيؤخذ بعد بني قريظة ووجهه هو ان الله تعالى لما ملكهم تلك
البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوي الاتكال على الله تعالى وقال أليس
الله ملككم هذه فهو على كل شيء قدير يملككم غيرها ﴿ ثم قال تعالى (يا أيها النبي قل
لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا
وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما)
وجه التعلق هو ان مكارم الاخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على
خلق الله والى هذا أشار عليه السلام بقوله الصلاة وما ملكت أيمانكم ثم ان الله تعالى
لما أرشد نبيه الى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله يا أيها النبي اتق الله ذكر ما يتعلق
بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن في النفقة
وفي الآية مسائل فقهية منها ان التخيير هل كان واجبا على النبي عليه السلام أم لا
فيقول التخيير قولا كان واجبا من غير شك لانه ابلاغ الرسالة لان الله تعالى لما قال له قل
لهن صار من الرسالة وأما التخيير معنى فيبنى على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر انه
للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقا
والظاهر انه لا يصير فراقا وانما تبين المختارة نفسها بابانة من جهة النبي صلى الله عليه وسلم
لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ومنها ان واحدة منهن ان اختارت
نفسها وقلنا بأنها لا تبين الا بابانة من جهة النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه
السلام

عن زيد بن ثابت أنها ان اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن
مالك وروى عن علي رضي الله عنه أنها ان اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا
أنها ان اختارت زوجها لا يقع شيء أصلا وعليه اجماع فقهاء الامصار وقد روى عن عائشة رضي الله عنها خيرنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول
الامر والمتعة في المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهي درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار الا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الاقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وان كنتن تردن الله ورسوله) أي تردن رسوله وذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى (والدار الآخرة) أي نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعا (فان الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة احسانهن (أجرا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لان كلهن محسنات وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح وفي وصف السراح بالجميل (يانساء النبي) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهن لاظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالاضافة اليه
عليه الصلاة والسلام لانها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الاحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرئ بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هي عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه

السلام الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبي عليه السلام انه كان يجب لان الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ومنها ان المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا الظاهر انها لا تحرم والا لا يكون التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها ان من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ان النبي عليه السلام لا يباشره أصلا بمعنى انه لو أتى به يعوقب أو يعوتب وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا اشارة الى ان النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت الى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ومنها قوله عليه السلام أسرحكن سراحا جميلا اشارة الى ما ذكرنا فان السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة فعلم ان النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل ان التسريح الجميل منه ومنها قوله وان كنتن تردن الله اعلاما لهن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله أعد للمحسنات منكن أي لمن عمل صالحا منكن وقوله تردن الله ورسوله والدار الآخرة فيه معنى الايمان وقوله للمحسنات لبيان الاحسان حتى تكون الآية في المعنى كقوله تعالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن وقوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات الباقي في الاوقات وذلك لان العظيم في الاجسام لا يطلق الا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق حتى لو كان زائدا في الطول يقال له طويل ولو كان زائدا في العرض يقال له عريض وكذلك العميق فاذا وجدت الامور الثلاثة قيل عظيم فيقال جبل عظيم اذا كان عاليا ممتدا في الجهات وان كان مرتفعا فحسب يقال جبل عال اذا عرفت هذا فأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبح لما في مأكوله من الضرر والثقل وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم واجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم * ثم قال تعالى (يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) لما خيرهن النبي صلى الله عليه وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقي عما يسوء النبي عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته واوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (احداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما في الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب ان أتت به لذلك ولايذاء قلبه والازراء بمنصبه وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك ولان امرأة لو كانت تحت النبي صلى الله عليه وسلم واتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ويكون ذلك الغير خيرا عندها من النبي وأولى والنبي أولى من النفس التي هي أولى من الغير فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب

أو ما يضيق به ذرعه و يغتم لأجله وقرئ تأت بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لان الذنب منهن أقبح فان زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاقب به الامم وقرئ يضعف على البناء للمفعول و يضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب (وكان ذلك على الله يسيرا)

لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي عليه الصلاة والسلام بل يدعوه اليه لمراعاة حقه (ومن يقنت منكن) وقرئ بالتاء أى ومن يدم على الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة وقرئ يعمل بالياء حملا على لفظ من و يؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى (وأعتدنا لها) فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف (رزقا كريما) مرضيا (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع فى النفى مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف (ان اتقيتن) مخالفة حكم الله تعالى و رضا رسوله أو ان اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن (فلا تخضعن بالقول) عند مخاطبة الناس اى لا تجبن بقول لكن خاضعا لينا على سنن قول المريبات والمومسات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وريبة وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الاطماع بالقول ٭ تخضعن ٭ الخاضع كأنه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب (وقلن قولا معروفا) بعيدا عن الريبة والاطماع بجد وخشونة من غير تخنث أو قولا حسنا مع كونه خشنا (وقرن فى

ضعفين (ثانيتهما) ان هذا اشارة الى شرفهن لان الحرة عذابها ضعف عذاب الامة اظهارا لشرفها ونسبة النبي الى غيره من الرجال نسبة السادات الى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن امهات المؤمنين وام الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة وزوجته مأمورة محكوم له وتحت طاعته فصارت زوجة الغير بالنسبة الى زوجة النبي عليه السلام كالامة بالنسبة الى الحرة واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك فى قوة قوله لئن أشركت ليحبطن عملك من حيث ان ذلك ممكن الوقوع فى اول النظر ولا يقع فى بعض الصور جزما وفى بعض يقع جزما من مات فقد استراح وفى البعض يتردد السامع فى الامرين فقوله تعالى من يأت منكن بفاحشة عندنا من القبيل الاول فان الانبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة وقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا أى ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الاعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أوشفعائهم واخوانهم ٭ ثم قال تعالى (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا) بين الزيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين مع لطيفة وهى ان عند ايتاء الاجر ذكر المؤتى وهو الله وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يضاعف اشارة الى كمال الرحمة والكرم كما ان الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضر لا يذكر نفسه وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقا كريما) وصف رزق الآخرة بكونه كريما مع أن الكريم لا يكون الا وصفا للرازق اشارة الى معنى لطيف وهو ان الرزق فى الدنيا مقدر على أيدى الناس التاجر يسترزق من السوقة والمعاملين والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه وانما هو مسخر للغير يمسكه و يرسله الى الاغيار واما فى الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه فلاجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم الا الرازق وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق ٭ ثم قال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا اجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء فقال لستن كأحد ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس يعنى ليس فيه مجرد كونه انسانا بل وصف أخص موجود فيه وهو كونه عالما وعاملا أونسيبا أوحسيبا فان الوصف الاخص اذا وجد لا يبقى التعريف بالاعم فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيدا اوعمرا فكذلك قوله تعالى لستن كأحد من النساء يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين وكما ان محمدا عليه السلام ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام لست كأحد كم كذلك قرائبه اللاتى يشرفن به و بين الزوجين نوع من الكفاءة ٭ ثم قال تعالى (ان اتقيتن فلا

بيوتكن) أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقررن فحذفت الراء الاولى والقيت فتحتها على ماقبلها كما فى قولك ظلن
او من قار يقار اذا اجتمع وقرئ بكسر القاف من وقر يقر وقارا اذاثبت واستقر وأصله اوقرن ففعل به مافعل بعدن
من وعد أو من قر يقر حذفت احدى رائى اقررن ونقلت كسرتها الى القاف كما تقول ظلن (ولاتبرجن) أى لاتتبخترن
فى مشيكن (تبرج الجاهلية الاولى) أى تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية القديمة وهى مابين آدم ونوح
وقيل مابين ادريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولدفيه ابراهيم عليه السلام كانت ألمرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الاخرى مابين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الاولى جاهلية الكفر والجاهليه الاخرى الفسوق فى الاسلام ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لابى الدرداء ان فيك جاهلية قال جاهلية كفر أوجاهلية اسلام قال بل جاهلية كفر (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة) أمرن بهما لانافتهما على غيرهما وكونهما أصلى الطاعات البدنيه والماليه (وأطعن الله ورسوله) أى فى كل ماتأتين وماتذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لامرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم
الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح (أهل البيت) مراد ابهم من حواهم بيت النبوة
(ويطهركم) من اوضار الاوزار والمعاصى (تطهيرا) بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير
عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبى عليه الصلاة والسلام من أهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة
فى تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم وأما

تخضعن بالقول) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متعلقا بماقبله على معنى لستن كأحد
ان اتقيتن فان الاكرم عند الله هو الاتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقا بمابعده على معنى
ان اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لمامنعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من
مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق * وقوله تعالى (فيطمع
الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) أى ذكر الله وماتحتجن اليه
من الكلام والله تعالى لماقال فلا تخضعن بالقول ذكر بعده وقلن اشارة الى أن ذلك ليس
أمرا بالايذاء والمنكر بل القول المعروف عند الحاجة هو المأمور به لاغيره * ثم قال
تعالى (وقرن فى بيوتكن) من القرار واسقاط أحد حرفى التضعيف كما قال تعالى فظلتم
تفكهون وقيل بأنه من الوقار كما قال وعد يعد عد وقوله (ولاتبرجن تبرج الجاهلية
الاولى) قيل معناه لاتتكسرن ولاتتغنجن ويحتمل أن يكون المراد لاتظهرن زينتكن وقوله
تعالى الجاهلية الاولى فيه وجهان (أحدهما) ان المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية
الاخرى من كان بعده (وثانيهما) ان هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج
الجاهلية القديمة كقول القائل أين الاكاسرة الجبابرة الاولى * قال تعالى (وأقمن
الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله) يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل
بقوله تعالى لاتخضعن ولاتبرجن بل فيه وفى الاوامر فأقمن الصلاة التى هى ترك التشبه
بالجبار المتكبر وآتين الزكاة التى هى تشبه بالكريم الرحيم وأطعن الله أى ليس
التكليف منحصرا فى المذكور بل كل ماأمر الله به فأتين به وكل مانهى الله عنه فانتهين
عنه * ثم قال تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)
يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولاتنفعن الله فيما تأتين به وانما نفعه لكن وأمره
تعالى اياكن لمصلحتكن وقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس ويطهركم فيه لطيفة وهى ان
الرجس قد يزول عينا ولايطهر المحل فقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس أى يزيل عنكم
الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ثم ان الله تعالى ترك خطاب المؤنثات
وخاطب بخطاب المذكرين بقوله ليذهب عنكم الرجس ليدخل فيه نساء اهل بيته
ورجالهم واختلف الاقوال فى اهل البيت والاولى ان يقال هم اولاده وأزواجه
والحسن والحسين منهم وعلى منهم لانه كان من اهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى عليه
السلام وملازمته للنبى * ثم قال تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله) أى
القرآن (والحكمة) أى كلمات النبى عليه السلام اشارة الى ماذكرنا من ان التكاليف غير
منحصرة فى الصلاة والزكاة وماذكر الله فى هذه الآية فقال واذكرن مايتلى ليعلمن
الواجبات كلها فيأتين بها والمحرمات باسرها فينتهين عنها (ان الله كان لطيفا خبيرا) اشارة
الى انه خبير بالمواطن لطيف فعلمه يصل الى كل شئ ومنه اللطف الذى يدخل فى المسام
الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة * ثم قال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين

لما تمسكوا به من ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة وعليه مرط مرحل من شعر أسود وجلس فأتت فاطمة فادخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فانما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها فى مقابلة النص (واذكرن مايتلى فى بيوتكن) أى اذكرن للناس بطريق

العظة والتذكير مايتلى فى بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وماشاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الايمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنه الانسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبى عليه الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (ان الله كان لطيفا خبيرا) يعلم ويدبر مايصلح فى الدين ولذلك فعل مافعل من الامر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته (ان المسلمين والمسلمات) أى الداخلين فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والاناث ❊ فقال ❊ (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعات القائمين بها (والصادقين والصادقات) فى القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصى (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتصدقين

والمؤمنات) لما أمرهن ونهاهن بين مايكون لهن وذكر لهن عشر مراتب الاولى الاسلام والانقياد لامر الله والثانية الايمان بما يرد به أمر الله فان المكلف أولا يقول كل مايقوله اقبله فهذا اسلام فاذا قال الله شيئا وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو ايمان ثم اعتقاده يدعوه الى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله (والقانتين والقانتات) ثم اذا آمن وعمل صالحا كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح اخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله (والصادقين والصادقات) ثم ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر نصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى (والصابرين والصابرات) ثم انه اذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله (والخاشعين والخاشعات) أو نقول لما ذكر هذه الحسنات اشار الى مايمنع منها وهو اما حب الجاه أو حب المال من الامور الخارجية أو الشهوة من الامور الداخلة والغضب منهما يكون لانه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله والخاشعين والخاشعات أى المتواضعين الذين لايميلهم الجاه عن العبادة ❊ ثم قال تعالى (والمتصدقين والمتصدقات) أى الباذلين الاموال الذين لايكنزونها لشدة محبتهم اياها ❊ ثم قال تعالى (والصائمين والصائمات) اشارة الى الذين لاتمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ❊ ثم قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) أى الذين لاتمنعهم الشهوة الفرجية ❊ ثم قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) يعنى هم فى جميع هذه الاحوال يذكرون الله ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله واعلم أن الله تعالى فى أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفى قوله بعد هذا يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال من قبل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا لان الاكثار من الافعال البدنية غير ممكن أو عسر فان الانسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائما بالصلاة ولكن لامانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار والى هذا اشار بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ولان جميع الاعمال صحتها بذكر الله تعالى وهى النية ❊ ثم قال تعالى (أعد الله لهم مغفرة) تمحو ذنوبهم وقوله (وأجرا عظيما) ذكرناه فى نظائره ❊ ثم قال تعالى (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) قيل ان الآية نزلت فى زينب حيث أراد النبى صلى الله عليه وسلم تزويجها من زيد بن حارثة وكرهت الا النبى عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به والوجه أن يقال ان الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته انهن مخيرات فهم منه ان النبى صلى الله عليه وسلم لايريد ضرر الغير فمن كان ميله الى شئ يمكنه النبى عليه السلام من ذلك ويترك النبى عليه السلام حق نفسه لحظ غيره

والمتصدقات) بما وجب في مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بقلوبهم وألسنتهم (أعد الله لهم) بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة (وأجرا عظيما) على ما صدر عنهم من الطاعات والآية وعد لهن ولأمثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن قلن يارسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شيء فنزلت وعطف الاناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضروري وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك في قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار اعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أي ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (اذا قضى الله ورسوله أمرا) أي اذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره عليه الصلاة والسلام أو للاشعار بان قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لانه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة فأبت هي وأخوها عبد الله وقيل في أم كلثوم بنت عقبة بن ٩٩ راس أبي معيط وهبت نفسها للنبي عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسخطت هي وأخوها وقالا انما أردنا رسول الله فزوجنا عبده (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام

فقال في هذه الآية لا ينبغي أن يظن ظان ان هوى نفسه متبعه وان زمام الاختيار بيد الانسان كما في الزوجات بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فأمر الله هو المتبع وما أراد النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضل ضلالا مبينا لان الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعا * ثم قال تعالى (واذ تقول للذي انعم الله عليه) وهو زيد انعم الله عليه بالاسلام (وأنعمت عليه) بالتحرير والاعتاق (أمسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبي أمسك أي لا تطلقها (واتق الله) قيل في الطلاق وقيل في الشكوى من زينب فان زيدا قال فيها انها تتكبر علي بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) من انك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الابن (والله أحق أن تخشاه) ليس اشارة الى ان النبي خشي الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحدا معه وانت تخشاه وتخشى الناس أيضا فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله * ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) أي لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لان الزوجة ما دامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج اليها فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك اذا كان في العدة له بها تعلق لامكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره واما اذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضي منها الوطر وهذا موافق لما في الشرع لان التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال فلما قضى وكذلك قوله (لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) اي اذا طلقوهن وانقضت عدتهن وفيه اشارة الى أن التزويج من النبي عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبي عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبي وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أي مقضيا ما قضاه كائن ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع انه كان مبينا لشرع مشتملا على فائدة كان خاليا عن المفاسد فقال (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل) يعني كان شرع من تقدمه كذلك كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة ابكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي كل شيء بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق فقالوا بين القضاء والقدر فالقضاء ما كان مقصودا في الاصل والقدر ما يكون تابعا له مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت الى هذه القرية اني ما جئت الى هذه القرية وانما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقي وان كان قد جاءها ودخلها اذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء وما في العالم من الضرر بقدر فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهي ويغضب ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين

واختيارهم تلو الاختيار وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما في سياق النفي وقيل الضمير الثاني للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) في أمر من الامور و يعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلالا مبينا) أي بين الانحراف عن سنن الصواب (واذ تقول) أي واذكر وقت قولك (للذى أنعم الله عليه) بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وأنعمت عليه) بالعمل بما وفقك الله له من ﴿٧٨٦﴾ فنون الاحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وايراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من اظهار خلاف ما في ضميره اذ هو انما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور في حق زيد (أمسك عليك زوجك) أي زينب وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعد ما أنكحها اياه فوقعت في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها فأتى النبي عليه الصلاة والسلام وقال أريد أن أفارق صاحبتى فقال مالك أرابك منها شئ قال لا والله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها لشرفها تتعظم على فقال له أمسك عليك زوجك (واتق الله) في أمرها فلا تطلقها اضرارا و تعللا بتكبرها (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها ان طلقها أو ارادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم اياك به (والله أحق أن تخشاه) ان كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الاخفاء وحده بل على الاخفاء مخافة قالة الناس واظهار ما ينافي اضماره فان الاولى في امثال ذلك أن يصمت ﴿ بعده ﴾ أو يفوض الامر الى ربه (فلما قضى زيد منها وطرا) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي

عليهما مثابا عليه بأبلغ وجه فافضى ذلك في البعض الى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصودا منه القتل والزنا وان كان ذلك بقدر الله اذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا وكان أمر الله مفعولا وقوله ثانيا وكان أمر الله قدرا مقدورا لطيفة وهى انه تعالى لما قال زوجناكها قال وكان أمر الله مفعولا أى تزويجنا زينب اياك كان مقصودا متبوعا مقضيا مراعى ولما قال سنة الله في الذين خلوا اشارة الى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال وكان أمر الله قدرا مقدورا أى كان ذلك حكما تبعيا فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الاشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد ان يخلق ما ينضج الاشياء وهو لا يكون الا محرقا بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شئ لا باختياره ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أى وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة انضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ألا ترى انها لم تحرق ابراهيم عليه السلام مع قوتها و كثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض ارادته أو حكمة خفية ولا يسأل عما يفعل فنقول ما كان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ثم بين الذين خلوا بقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) يعنى كانوا هم أيضا مثلك رسلا ثم ذكر حالهم انهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله (ولا يخشون أحدا الا الله) فصار كقوله فبهداهم اقتده وقوله (وكفى بالله حسيبا) اى محاسبا فلا تخش غيره او محاسبا فلا تلتفت الى غيره ولا تجعله في حسابك ✲ ثم قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) لما بين الله ما في تزوج النبى عليه السلام بزينب من الفوائد بين انه كان خاليا من وجوه المفاسد وذلك لان ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرا في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى ان زيدا لم يكن ابنا له لا بل أحد من الرجال لم يكن ابن محمد فان قال قائل النبى كان أبا أحد من الرجال لان الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى وان كانوا اخوة رجالا ونساء والصبى داخل فيه فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبى عليه السلام ابن كبير يقال انه رجل (والثانى) هو انه تعالى قال من رجالكم ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ثم انه تعالى لما نفى كونه أبا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الابوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالاب للامة في الشفقة من جانبه وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فان النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم والاب ليس كذلك ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لان النبى الذى يكون بعده نبى ان ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتى بعده وأما من لا نبى

فيك (زوجناكها) وقرئ زوجتكها والمراد الامر بتزوجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد
ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى تولى نكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل
كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة ايمانه (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة
(في أزواج أدعيائهم) أي في حق تزوجهن (اذا قضوا منهن وطرا) فان لهم في رسول الله اسوة حسنة وفيه
دلالة على أن حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الامة سواء الا ما خصه الدليل (وكان أمر الله) أي ما يريد تكوينه من الامور أو مأموره الحاصل بكن (مفعولا) مكونا لا محالة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ما كان على النبي من حرج) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق (فيما فرض الله له) أي قسم له وقدر من قولهم فرض له في الديوان كذا ومنه فروض العساكر لاعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفي الحرج أي سن الله ذلك سنة (في الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم في باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين
مجرى الواحد للمسارعة الى تقرير نفي الحرج وتحقيقه (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب
أو بالرفع وقرئ رسالة الله (ويخشونه) في كل ما يأتون ويذرون لا سيما في أمر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا
ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم (ولا يخشون أحدا الا الله) فيه وصفهم بقصرهم

بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى اذ هو كالوالد لولده الذي ليس له غيره من
أحد وقوله (وكان الله بكل شيء عليما) يعني علمه بكل شيء دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من
الحكمة اكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك
من حيث ان قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن اذا امتنع هو عنه يبقى في بعض
النفوس نفرة الا ترى انه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في
النفوس شيء ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع انه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الارنب
* ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) وجه تعلق الآية بما قبلها
هو ان السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا أن الله تعالى
بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن
يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله بما أقر به بقوله يا أيها النبي قل لازواجك والله تعالى
يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به انبياءه المرسلين فارشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق
بجانبه من التعظيم فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا كما قال لنبيه يا أيها
النبي اتق الله (ثم ههنا لطيفة) وهي ان المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر أما النبي
لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال
اتق الله فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الاولياء سيئة الانبياء وقوله ذكرا كثيرا قد
ذكرنا ان الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة اذ لا مانع من الذكر على
ما بينا وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصيلا) أي اذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم اياه
على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل
للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا اشارة الى المداومة وذلك لان مريد العموم قد يذكر الطرفين
ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام لو أن أولكم وآخركم ولم يذكر وسطكم ففهم منه
المبالغة في العموم ثم قال تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات
الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وانتم لا تذكرونه فذكر
صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ليخرجكم من الظلمات الى النور يعني
يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بان اللفظ المشترك
يجوز استعماله في معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا
القول الى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فان أريد تقريبه بحيث يصير في غاية
القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد
هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما
بشارة لجميع المؤمنين واشارة الى أن قوله يصلي عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحي
* ثم قال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) لما بين الله عنايته في الاولى بين عنايته في
الآخرة وذكر السلام لانه هو الدليل على الخيرات فان من لقي غيره وسلم عليه دل على

المصافاة بينهما وان لم يسلم دل على المنافاة وقوله يوم يلقونه أى يوم القيامة وذلك لان الانسان فى دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه وامافى الآخرة فلا شغل لاحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء

* ثم قال تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) لو قال قائل الاعداد انما يكون ممن لايقدر عند الحاجة الى الشئ عليه واما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الاعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك اذا قيل له فلان واصل فاذا أراد اكرامه يهيئ له بيتا وانواعا من الاكرام ولايقول بأنه اذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد له اكراما كريما والكريم قد ذكرناه فى الرزق أى أعد له أجرا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه الا بقدر وقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مناسب لحالهم لانهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فاحسن اليهم بالرحمة كما قال تعالى هو الذى يصلى عليكم وقال وكان بالمؤمنين رحيما والمتعارفان اذا التقيا وكان أحدهما شفقا بالآخر والآخر مع صاله عظيم لايتحقق بينهما الا السلام وأنواع الاكرام

* ثم قال تعالى (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبى عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها يا أيها النبى اتق الله اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله يا أيها النبى قل لازواجك اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله يا أيها النبى انا أرسلناك اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى شاهدا يحتمل وجوها (أحدها) انه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا وعلى هذا فالنبى بعث شاهدا أى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيدا أى مؤديا لما تحمله (ثانيها) انه شاهد أن لا اله الا الله (وعلى هذه الطيفة) وهو ان الله جعل النبى شاهدا على الوحدانية والشاهد لايكون مدعيا فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعيا لها لان المدعى من يقول شيئا على خلاف الظاهر والوحدانية اظهر من الشمس والنبى عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهدا له فى مجازاة كونه شاهدا لله فقال تعالى والله يشهد انك لرسوله (وثالثها) انه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله ومبشرا ونذيرا وداعيا فيه ترتيب حسن وذلك من حيث ان النبى عليه السلام أرسل شاهدا بقول لا اله الا الله ورغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف ذلك يرهب بالانذار ثم لايكتفى بقولهم لا اله الا الله بل يدعوهم الى سبيل الله كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله وسراجا منيرا أى مبرهنا على ما يقول مظهرا له اوضح الحجج

الخشية على الله تعالى ثم بعض ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف فينبغى أن لا يخشى غيره أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه عليه الصلاة والسلام أبا الطاهر والقاسم وابراهيم لانهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجاله لا لهم عليه الصلاة والسلام لا لهم (ولكن رسول الله) أى كان رسول الله وكل رسول أبو أمته لكن لا حقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الابدية وما زيد الا واحد من رجالكم الذين لا ولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) أى كان آخرهم الذى ختموا به وقرئ بكسر التاء أى كان خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين وأياما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما روى أنه قال فى ابراهيم حين توفى لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لان معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل انما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا الى قبلته كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شئ عليما) ومن جملته هذه الاحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس (ذكرا كثيرا) يعم الاوقات والاحوال (وسبحوه) ونزهوه عما لا يليق به (بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس

لقصر التسبيح عليهما دون سائر الاوقات بل لابانة فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح
من بين الاذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيـل كلا الفعلين متوجه اليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة
وقيل المراد بالتسبيح الصلاة (هوالذى يصلى عليكم) الخ استئناف جارمجرى التعليل لماقبله من الامرين فان صلاته
تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم ﴿ ٧٨٩ ﴾ لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على مايستوجبه
تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعـالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لاعلى أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانيا فان استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين ممالا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقياله وهو الاعتناء بمافيه خيرهم وصلاح أمرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أوالترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هوالركوع والسجود ولاريب فى أن استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كماقيل فاعتباره ينزع الى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات الى النور) متعلق بيصلى أى يعتنى بامور كم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية الى نور الطاعة وقوله
تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك
يفعل بكم مايفعل من الاعتناء باصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم الى الايمان والطاعة أوكان بكم رحيما على أن المؤمنين
مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم وأشعارا بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان للاحكام الآجلة

وهوالمراد بقوله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة (وفيه لطائف احداها) قوله تعالى
وداعيا الى الله باذنه حيث لم يقل وشاهدا باذنه ومبشرا باذنه وعند الدعاء قال وداعيا باذنه
وذلك لان من يقول عن ملك انه ملك الدنيا لاغيره لايحتاج فيه الى اذن منه فانه وصفه بما
فيه وكذلك اذاقال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشرا ونذيرا ولايحتاج الى
اذن من الملك فى ذلك وأما اذاقال تعالوا الى سماطه واحضروا على خوانه يحتاج فيه الى
اذنه فقال تعالى وداعيا الى الله باذنه ووجه آخر وهوأن النبى يقول انى أدعوا الى الله
والولى يدعوا الى الله والاول لااذن له فيه من أحد والثانى مأذون من جهة النبى عليه
السلام كماقال تعالى قل هذه سبيلى أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وقال عليه
الصلاة والسلام رحم الله عبدا سمع مقالتى فاداها كما سمعها والنبى عليه السلام هو
المأذون من الله فى الدعاء اليه من غير واسطة (اللطيفة الثانية) قال فى حق النبى عليه
السلام سراجا ولم يقل انه شمس مع انه أشد اضاءة من السراج لفوائد منها أن الشمس
نورها لايؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفا الاول يبقى الذى أخذ
منه وكذلك ان غاب والنبى عليه السلام كان كذلك اذكل صحابى اخذ منه نور الهداية كما
قال عليه السلام أصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم وفى الخبر لطيفه وان كانت
ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهى ان النبى عليه السلام لم يجعل أصحابه
كاسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لايؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور اذا غرب هو
لايبقى نور مستفاد منه وكذلك الصحابى اذامات فالتابعى يستنير بنور النبى عليه السلام
ولايأخذ منه الاقول النبى عليه السلام وفعله فانوار المجتهدين كلهم من النبى عليه السلام
ولوجعلهم كالسرج والنبى عليه السلام أيضا سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أرادمنهم
ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك فان مع نص النبى عليه السلام لايعمل بقول
الصحابى فيؤخذ من النبى النور ولايؤخذ من صحابى فلم يجعله سراجا وهذا يوجب ضعفا
فى حديث سراج الامة والمحدثون ذكروه وفى تفسير السراج وجه آخر وهوان المراد منه
القرآن وتقديره انا أرسلناك وسراجا منيرا عطفا على محل الكاف أى وأرسلنا سراجا
منيرا وعلى قولنا انه عطف على مبشرا ونذيرا يكون معناه وذاسراج لان الحال لايكون
الاوصفا للفاعل أوالمفعول والسراج ليس وصفا لان النبى عليه السلام لم يكن سراجا
حقيقة أويكون كقول القائل رأيته أسدا أى شجاعا فقوله سراجا أى هاديا مبينا
كالسراج يرى الطريق ويبين الامر وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على مفهوم
تقديره انا أرسلناك شاهدا ومبشرا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه وأما
البشارة فانها ذكرت ابانة للكرم لانها غير واجبة لولا الامر وقوله تعالى (بأن لهم من الله
فضلا كبيرا) هومثل قوله وأعدلهم أجرا عظيما فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من
الله كبير فكيف اذا كان مع ذلك كبارا أخرى وقوله تعالى (ولاتطع الكافرين والمنافقين)

لرحمه الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم الى الطاعة أى مايحيون به على أنه
مصدر أضيف الى مفعوله يوم لقائه عند الموت أوعند البعث من القبور أوعند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز
وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكرمة لهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم
من كل باب سلام عليكم
أو اخبار بالسلامة عن كل
مكروه وآفة وقوله تعالى
(وأعد لهم أجرا كريما)
بيان لآثار رحمته الفائضة
عليهم بعد دخول الجنة عقيب
بيان آثار رحمته الواصلة اليهم
قبل ذلك ولعل ايثار الجملة
الفعلية على الاسمية المناسبة
لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم
أجر كريم أو ولهم أجر كريم
للمبالغة فى الترغيب والتشويق
الى الموعود ببيان أن الاجر
الذى هو المقصد الاقصى
من بين سائر آثار الرحمة
موجود بالفعل مهيأ لهم مع
مافيه من مراعاة الفواصل
(يأيها النبى انا أرسلناك
شاهدا) على من بعثت اليهم
تراقب أحوالهم وتشاهد
أعمالهم وتحمل منهم
الشهادة بما صدر عنهم من
التصديق والتكذيب وسائر
ماهم عليه من الهدى
والضلال وتؤديها يوم
القيامة أداء مقبولا فيما لهم
وماعليهم وهو حال مقدرة
(ومبشرا ونذيرا) تبشر
المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين
بالنار (وداعيا الى الله) أى
الى الاقرار به وبوحدانيته
وبسائر مايجب الايمان به
من صفاته وأفعاله (باذنه) أى بتيسيره أطلق عليه مجازا لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة ايذانا بأنها ❖ ان ❖
أمر صعب المنال وخطب فى غاية الاعضال لايتأتى الا بامداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبلة
المعبودة وادخال للاعناق فى قلادة غير معهودة (وسراجا منيرا) يستضاء به

اشارة الى الانذار يعنى خالفهم وردعليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أى دعه الى
الله فانه يعذبهم بأيديكم وبالنار ويبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)
أى الله كاف عبده. قال بعض المعتزلة لايجوز تسمية الله بالوكيل لان الوكيل أدون من
الموكل وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا حجة عليه وشبهته واهية من حيث ان الوكيل قد
يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف وقوله تعالى وكفى
بالله وكيلا يتبين اذا نظرت فى الامور التى لاجلها لايكفى الوكيل الواحد منها أن لايكون
قويا قادرا على العمل كالملك الكثير الاشغال يحتاج الى وكلاء لعجز الواحد عن القيام
بجميع أشغاله ومنها أن لايكون عالما بمافيه التوكيل ومنها أن لايكون غنيا والله تعالى
عالم قادر غير محتاج فيكفى وكيلا ❊ ثم قال تعالى (يأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم
طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن
سراحا جميلا) وجه تعلق الآية بماقبلها هو ان الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم
الاخلاق وأدب نبيه على ماذكرناه لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه
المرسل فكلما ذكر للنبى مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين مايناسبه فكما بدأ الله فى تأديب
النبى عليه الصلاة والسلام بذكر مايتعلق بجانب الله بقوله يأيها النبى اتق الله وثنى بما
يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد يأيها النبى قل لازواجك وثلث بما
يتعلق بجانب العامة بقوله يأيها النبى انا أرسلناك شاهدا كذلك بدأ فى ارشاد المؤمنين
بما يتعلق بجانب الله فقال يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق
بجانب من تحت أيديهم بقوله يأيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم كما ثلث فى تأديب
النبى بجانب الامة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا يأيها الذين
آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى وبقوله يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وفى الآية مسائل
(احداها) اذا كان الامر على ماذكرت من ان هذا ارشاد الى مايتعلق بجانب من هو من
خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر فنقول هذا ارشاد الى
أعلى درجات المكرمات ليعلم منها مادونها وبيانه هو ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم
يحصل بينهما تأكد العهد ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد
أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا واذا أمر الله بالتمتع والاحسان مع من
لامودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء أو حصل تأكدها
بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتفى بها الاقلام ولا
تكفى لها الاوراق وهذا مثل قوله تعالى فلا تقل لهما أف لو قال لاتضربهما أو لاتشتمهما
ظن انه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم أما اذا قال لاتقل لهما أف علم منه معان كثيرة
وكذلك ههنا لما أمر بالاحسان مع من لامودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن
لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقوله اذا نكحتم المؤمنات التخصيص بالذكر ارشاد الى

في ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بانواره الى مناهج الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كانه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم (بان لهم من الله فضلا كبيرا) أى على مؤمنى سائر الامم فى الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهى عن مداراتهم فى أمر الدعوة واستعمال ﴿٧٩١﴾ لين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الانذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم بالغة فى الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه فى سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهى على التهييج والالهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) أى لاتبال باذيتهم لك بسبب تصلبك فى الدعوة والانذار (وتوكل على الله) فى كل ماتاتى وماتذر من الشؤن التى من جملتها هذا الشان فانه تعالى يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) موكولا اليه الامور فى كل الاحوال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتاكيد استقلال الاعتراض التذييلى ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الامر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الامر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهى عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة فى انذارهم كاتحققته وقوبل الداعى الى الله باذنه بالامر بالتوكل عليه من حيث انه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدى الخلق من ظلمات

ان المؤمن ينبغى أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصينا لدينه وقوله ثم طلقتموهن يمكن التمسك به فى ان تعليق الطلاق بالنكاح لايصح لان التطليق حينئذ لايكون الابعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم وهى للتراخى وقوله فمالكم عليهن من عدة بين ان العدة حق الزوج فيها غالب وان كان لايسقط باسقاطه لمافيه من حق الله تعالى وقوله تعتدونها أى تستوفون أنتم عددها فمتعوهن قيل بانه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها اذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة وقيل بانه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة ايضا ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشئ وقوله تعالى وسرحوهن سراحا جميلا الجمال فى التسريح أن لا يطالبها بما آتاها ❊ ثم قال تعالى (ياايها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وماملكت يمينك مماافاءالله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم وماملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) ذكر للنبى عليه السلام ماهو الاولى فان الزوجة التى أوتيت مهرها أطيب قلبا من التى لم توت والمملوكة التى سباها الرجل بنفسه أطهر من التى اشتراها الرجل لانها لايدرى كيف حالها ومن هاجرت من أقارب النبى عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ومن الناس من قال بان النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه اعطاء المهر أولا وذلك لان المرأة لها الامتناع الى أن تاخذ مهرها والنبى عليه السلام ماكان يستوفى مالايجب له والوطء قبل ايتاء الصداق غير مستحق وان كان حلالا لنا وكيف والنبى عليه السلام اذا طلب شيأ حرم الامتناع على المطلوب والظاهر ان الطالب فى المرة الاولى انمايكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبى عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم ان يجب وأن لايجب وهذا محال ولا كذلك احدنا وقال ويؤكد هذا قوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى يعنى حينئذ لايبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها وقوله تعالى ان اراد النبى أن يستنكحها اشارة الى ان هبتها نفسها لابد معها من قبول وقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين قال الشافعى رضى الله عنه معناه اباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لاتحل لغيرك أبدا والترجيح يمكن ان يقال بان على هذا فالتخصيص بالواهبة لافائدة فيه فان ازواجه كلهن خالصات له وعلى ماذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله قد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم وماملكت أيمانهم معناه ان ماذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك واماحكم امتك فعند ناعلمه ونبينه لهم وانما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ماكان للنبى عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست

النحي الى نور الرشاد حقيق بان يكتفى به عن كل ماسواه (يا ايها الذين امنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أى تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بايام يتربصن فيها بانفسهن (تعتدونها) تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والاسناد الى الرجال للدلالة على أن العدة حق الازواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرئ تعتدونها على ابدال ❊٧٩٣❊ احدى الدالين بالتاء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة فى حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شانه أن يتخير لنطفته ولا ينكح الا مؤمنة وفائدة ثم ازاحة ماعسى يتوهم أن تراخى الطلاق ريثما تمكن الاصابة يؤثر فى العدة كما يؤثر فى النسب (فمتعوهن) أى ان لم يكن مفروضا لها فى العقد فان الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فانها مستحبة عندنا فى رواية وفى أخرى غير مستحبة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم اذ ليس لكم عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السنى لانه انما يتسنى فى المدخول بهن (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى مهورهن فانها أجور الابضاع وايتاؤها اما اعطاؤها معجلة أو تسميتها فى العقد وأياما كان فتقييد الاحلال له عليه الصلاة والسلام به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديرى الدخول وعدمه بل لايثار الافضل والاولى له عليه الصلاة والسلام كتقييد احلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) فان المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك

لغيره وكذلك فى السرارى وقوله تعالى لكيلا يكون عليك حرج أى تكون فى فسحة من الامر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك وقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما يغفر الذنوب جميعا ويرحم العبيد * ثم قال تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) لما بين انه أحل له ماذكر من الازواج بين انه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم وذلك لان النبى عليه السلام بالنسبة الى أمته نسبة السيد المطاع والرجل وان لم يكن نبيا فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبى عليه السلام بالنسبة اليه فاذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات والارجاء التأخير والايواء الضم ومن ابتغيت ممن عزلت يعنى اذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك فى شئ من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجبا مع انه ضعيف بالنسبة الى المفهوم من الآية قال المراد ترجى من تشاء أى تؤخرهن اذا شئت اذ لا يجب القسم فى الاول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن وان ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والاول أقوى * ثم قال تعالى (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) يعنى اذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم تقر أعينهن لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك فليلة تكون عند احداهن تقول ما جاءنى لهوى قلبه انما جاءنى لامر الله وايجابه عليه ويرضين بما آتيتهن من الارجاء والايواء اذ ليس لهن عليك شئ حتى لا يرضين * ثم قال تعالى (والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما) أى ان أضمرن خلاف ما أظهرن فانه يعلم ضمائر القلوب فانه عليم فان لم يعاتبهن فى الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل * ثم قال تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبى عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله ولا أن تبدل بهن وفيه مسائل (المسألة الاولى) قوله لا يحل لك النساء من بعد قال المفسرون من بعدهن والاولى أن يقال لا تحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان (المسألة الثانية) قوله ولا أن تبدل بهن يفيد حرمة طلاقهن اذ لو كان جائزا لجاز أن يطلق الكل وبعدهن اما ان يتزوج بغيرهن أو لا يتزوج فان لم يتزوج يدخل فى زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبى وكيف وهو يقول النكاح سنتى وان تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل (المسألة الثالثة) من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتى ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك واما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله ولا أن

وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه عليه الصلاة والسلام خاصة ويعضده قول أم
هاني بنت أبي طالب خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأني لم
أهاجر معه كنت من الطلقاء (وامرأة مؤمنة) بالنصب عطفا على مفعول أحللنا اذ ليس معناه انشاء الاحلال الناجز بل اعلام
مطلق الاحلال المنتظم لماسبق ولحق * ٧٩٣ * وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى أحللناها لك أيضا (ان
وهبت نفسها للنبي) أي ملكته بضعها بأي عبارة كانت بلا مهر ان اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها لكن لا مطلقا بل عند ارادته عليه الصلاة والسلام استنكاحها كما نطق به قوله عزوجل (ان أراد النبي أن يستنكحها) أي أن يتملك بضعها كذلك أي بلا مهر فان ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصا في كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مناطا للخلاف في انعقاد النكاح بلفظ الهبة ايجابا أوسلبا واختلف في اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام أحد منهن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الانصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وايراده عليه الصلاة والسلام في الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب
اختصاصها به كما نطق به * ١٠٠ * س قوله تعالى (خالصة لك) أي خلص لك احلالها خالصة أي خلوصا فان الفاعلة في المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أوخلص لك احلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى (من دون المؤمنين) على الاول أن الاحلال المذكور في المادة المعهودة غير متحقق في حقهم وانما

تبدل بهن منع من شغل الجاهلية فانهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته وعلى التفسيرين وقع خلاف في مسئلتين احداهما حرمة طلاق زوجاته والثانية حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الاول حرم الطلاق ومن فسر على الثاني حرم التزوج بالكتابيات (المسئلة الرابعة) قوله ولو أعجبك حسنهن أي حسن النساء قال الزمخشري قوله ولو أعجبك في معنى الحال ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله من أزواج لغاية التنكير فيه ولكون ذي الحال لا يحسن أن يكون نكرة فاذن هو النبي عليه السلام يعني لا تحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن (المسئلة الخامسة) ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من انه اذا رأى واحدة فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها وهذه المسئلة حكمية وهي ان النبي عليه السلام وسائر الانبياء في أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحي ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ففي أول الامر أحل الله من وقع في قلبه تفريغا للقلب وتوسيعا للصدر لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ثم لما استأنس بالوحي وبمن على لسانه الوحي نسخ ذلك اما لقوته عليه السلام للجمع بين الامرين واما لانه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا فلم يبق له التفات الى غير الله فلم يبق له حاجة الى احلال التزوج بمن وقع بصره عليها (المسئلة السادسة) اختلف العلماء في أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا فقال الشافعي نسخ وقد قالت عائشة مامات النبي الا وأحل له النساء وعلى هذا فالناسخ قوله يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الى أن قال وبنات عمك وقال وامرأة مؤمنة على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد اذا الناسخ غير متواتر ان كان خبرا * ثم قال تعالى (الا ماملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لان الايذاء لا يحصل بالمملوكة ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين في بيت لحصول التسوية بينهما وامكان المخاصمة ويجوز أن يجمع الزوجة وجمعا من المملوكات لعدم التساوي بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد * ثم قال تعالى (وكان الله على كل شئ رقيبا) أي حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه لان الحفظ لا يحصل الا بهما * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه) لما ذكر الله تعالى في النداء الثالث يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا بيانا لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا ارشادا لهم وبيانا لحالهم مع النبي عليه السلام من الاحترام ثم ان حال الامة مع النبي على وجهين (أحدهما) في حال الخلوة والواجب هناك عدم ازعاجه وبين ذلك بقوله لا تدخلوا بيوت النبي (وثانيهما) في الملأ والواجب هناك اظهار التعظيم كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وقوله الى طعام غير ناظرين اناه أي لا تدخلوا بيوت النبي الى طعام الا أن يؤذن لكم * ثم قال تعالى (ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا

أو يتفيها وروى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ماشاء كما شاء وكانت ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وارجى خمسا وآوى اربعا وروى انه كان يسوى بينهن مع ما اطلق له وخير الا سودة فانها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهن وقالت لا تطلقنى حتى احشر فى زمرة نسائك (ذلك) اى ما ذكر من تفويض الامر الى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين ﴿ ٧٩٥ ﴾ بما آتيتهن كلهن) اى اقرب الى قرة عيونهن ورضاهن جميعا لانه حكم كلهن فيه سواء ثم ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن انه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب اعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرئ بالنصب على أنه تأكيد لهن (والله يعلم ما فى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى احسانها (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فانه امهال لا اهمال (لا يحل لك النساء) بالياء لان تأنيث الجمع غير حقيقى ولوجود الفصل وقرئ بالتاء (من بعد) اى من بعد التسع وهو فى حقه كالاربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترتك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران (ولا ان تبدل) أى تتبدل بحذف احدى التاءين (بهن) أى بهؤلاء التسع (من أزواج) بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها اخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وام حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبى

جاز الدخول (المسئلة الرابعة) قوله فاذا طعمتم فانتشروا كان بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبى عليه السلام فى عرس زينب والنبى عليه السلام لم يقل له شيئا فوردت الآية جامعة لآداب منها المنع من اطالة المكث فى بيوت الناس وفى معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده وقوله ولا مستأنسين لحديث قال الزمخشرى هو عطف على غير ناظرين مجرور ويحتمل أن يكون منصوبا عطفا على المعنى فان معنى قوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى الا ان يؤذن لكم لا تدخلوها هاجمين فعطف عليه ولا مستأنسين ثم ان الله تعالى بين كون ذلك أدبا وكون النبى حليما بقوله ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق اشارة الى أن ذلك حق وأدب وقوله كان اشارة الى تحمل النبى عليه السلام ثم ذكر الله أدبا آخر وهو قوله واذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب لما منع الله الناس من دخول بيوت النبى عليه السلام وكان فى ذلك تعذر الوصول الى الماعون بين ان ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب وقوله ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يعنى العين روزنة القلب فاذا لم تر العين لا يشتهى القلب أما ان رأت العين فقد يشتهى القلب وقد لا يشتهى فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر ثم ان الله تعالى لما علم المؤمنين الادب أكده بما يحملهم على محافظته فقال وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه وقوله تعالى ولا أن تنكحوا ازواجه من بعده أبدا قيل سبب نزوله ان بعض الناس قيل هو طلحة ابن عبيد الله قال لئن عشت بعد محمد لانكحن عائشة وقد ذكرنا ان اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول فان المراد أن ايذاء الرسول حرام والتعرض لنسائه فى حياته ايذاء فلا يجوز ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقا ثم أكده بقوله ان ذلكم كان عند الله عظيما أى ايذاء الرسول * ثم قال تعالى (ان تبدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شئ عليما) يعنى ان كنتم لا تؤذونه فى الحال وتعزمون على ايذائه أو نكاح أزواجه بعده فالله عليم بذات الصدور * ثم ان الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن) وفى الآية مسائل (الاولى) فى الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال فلم يستثن الرجال عن الجناح ولم يقل لا جناح على آبائهن فنقول قوله تعالى فاسئلوهن من وراء حجاب امر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون الا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ثم أمر الرجال بتركهن كذلك ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والابناء (وفيه لطيفة) وهى ان عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الاولى وعند الاستثناء قال تعالى لا جناح عليهن عند رفع الحجاب عنهن فالرجال أولى بذلك

تحقق هنالك الاحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن احلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه احلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرئ خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ذلك خلوص لك وخصوص أوهى أى تلك المرأة أوالهبة خالصة لك لاتتجاوز المؤمنين حيث لاتحل لهم بغير مهر ولاتصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا مافرضنا عليهم) أى على ❁ ٧٩٤ ❁ المؤمنين (فى أزواجهم) أى فى حقهن اعتراض مقرر

لماقبله من خلوص الاحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه مالم يفرض عليه عليه الصلاة والسلام تكرمة له وتوسعة عليه أى قد علمنا ما ينبغى أن يفرض عليهم فى حق أزواجهم (وماملكت أيمانهم) وعلى أى حد وأى صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا مافرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) اى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لاباعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لان مدار انتفاء الحرج هو الاول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع الامر فى مواقع الحرج (ترجى من تشاء منهن) أى تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوى اليك من تشاء) وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها اوتطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ ترجئ ❁ جاز ❁ بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أى طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعة (فلا جناح عليك) فى شئ مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق او يمسك فاذا امسك ضاجع اوترك وقسم اولم يقسم واذا طلق فاما أن يخلى المعزولة

ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما) لما بين من حال النبى انه داع الى الله بقوله وداعيا الى الله قال ههنا لاتدخلوا الا اذا دعيتم يعنى كما انكم مادخلتم الدين الا بدعائه فكذلك لاتدخلوا عليه الا بعد دعائه وقوله غير ناظرين منصوب على الحال والعامل فيه على ماقاله الزمخشرى لاتدخلوا قال وتقديره لاتدخلوا بيوت النبى الا مأذونين غير ناظرين وفى الآية مسائل (الاولى) قوله الا أن يؤذن لكم الى طعام اما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولاتدخلوا الى طعام الا أن يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول فى غير وقت الطعام بغير الاذن واما أن لايكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولاتدخلوا الا أن يؤذن لكم الى طعام فيكون الاذن مشروطا بكونه الى الطعام فان لم يؤذن لكم الى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لا لاكل طعام لايجوز نقول المراد هو الثانى ليعم النهى عن الدخول وأما قوله فلا يجوز الا بالاذن الذى الى طعام نقول قال الزمخشرى الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فمنعوا من الدخول فى وقته بغير اذن والاولى أن يقال المراد هو الثانى لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفى ماعداه لاسيما اذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله الى غير طعامه باذنه فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام فان من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه الى طعام ويستقضيه فى حوائجه ويعلمه مماعنده من العلوم مع زيادة الاطعام فاذا رضى بالكل فرضاه بالبعض أقرب الى العقل فيصير من باب لاتقل لهما أف وقوله غير ناظرين يعنى أنتم لاتنتظروا وقت الطعام فانه ربما لايتهيأ (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا فيه لطيفة وهى أن فى العادة اذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير اذن لاتدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لايدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال لاتفعلوا مثل مايفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين اذا قيل لكم لاتدخلوا لاتدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا واناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله الا أن يؤذن يفيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فقوله ولكن اذا دعيتم ليس تأكيدا بل هو يفيد فائدة جديدة (المسئلة الثالثة) لايشترط فى الاذن التصريح به بل اذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال الا أن يؤذن من غير بيان فاعل فالآذن ان كان الله أو النبى أو العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى أو صديقكم وحد الصداقة لما ذكرنا فلوجاء أبو بكر وعلم أن لامانع فى بيت عائشة من بيوت النبى عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الاهل أو هى محتاجة الى اطفاء حريق فيها أو غير ذلك

النبيه وصفية بنت حيى الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال
عكرمة المعنى لايحل لك النساء من بعد الاجناس الاربعة اللاتى احللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الاعرابيات والغرائب
أو من الكتابيات أو من الاماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى ولا أن تبدل بهن فان معنى احلال الاجناس المذكورة احلال نكاحهن فلابد
أن يكون معنى التبدل بهن احلال نكاح غيرهن بدل احلال * ٧٩٦ * نكاحهن وذلك انما يتصور بالنسخ الذى
ليس من الوظائف البشرية (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن الازواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لامن مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضا اعجابك بهن وقدم تحقيقه فى قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم وقيل هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر ابن أبى طالب أى هى ممن أعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف فى أن الآية محكمة او منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء وقيل بقوله تعالى انا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال أنس رضى الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم (الا ماملكت يمينك) استثناء لانه يتناول الازواج والاماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شئ رقيبا) حافظا مهيمنا
فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله الى حرامه (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) شروع فى بيان مايجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى عليه الصلاة والسلام اثر بيان مايجب مراعاته عليه عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى

(المسئلة الثانية) قدم الآباء لان اطلاعهم على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر انما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم انما هم أزواج خالات أبنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم أيضا ففى بنى الاخوات مفسدة ما وهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة (المسئلة الثالثة) لم يذكر الله من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين أحدهما أن ذلك علم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم ان بنى الاخ للعمات محارم علم أن بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال فى أمر الخال ثانيهما أن الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال فى ابن الخال (المسئلة الرابعة) ولانسائهن مضافة الى المؤمنات حتى لايجوز التكشف للكافرات فى وجه (المسئلة الخامسة) ولاماملكت أيمانهن هذا بعد الكل فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة ومن الائمة من قال المراد من كان دون البلوغ * ثم قوله تعالى (واتقين الله) عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور وقوله (ان الله كان على كل شئ شهيدا) فى غاية الحسن فى هذا الموضع وذلك لان ماسبق اشارة الى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم فقال ان الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا * ثم قال تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى) لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر الى وجوه نسائه احتراما كمل بيان حرمته وذلك لان حالته منحصرة فى اثنتين حالة خلوته وذكر مايدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله لاتدخلوا بيوت النبى وحالة يكون فى ملأ والملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى أما فى الملأ الاعلى فهو محترم فان الله وملائكته يصلون عليه وأما فى الملأ الادنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفى الآية مسائل (الاولى) الصلاة الدعاء يقال فى اللغة صلى عليه أى دعا له وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى فانه لايدعو له لان الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث فقال الشافعى رضى الله عنه استعمل اللفظ بمعان وقد تقدم فى تفسير قوله هو الذى يصلى عليكم وملائكته والذى نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك هو الذى يصلى عليكم وملائكته جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة اليهم فقال يصلون وفيه تعظيم النبى عليه الصلاة والسلام وهذا لان افراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف كما ان الملك اذا قال يدخل فلان وفلان أيضا يفهم منه تقديم لايفهم لوقال فلان وفلان يدخلان اذا علمت هذا فقال فى حق النبى عليه السلام انهم يصلون اشارة الى أنه فى الصلاة على النبى عليه السلام كالاصل وفى الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ثم ان الملائكة يوافقونه فهم

(الا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لاتدخلوها فى حال من الاحوال الا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من أ
الاوقات أى لاتدخلوها فى وقت من الاوقات الا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص
بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصيح الديك وانما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى (الى طعام) متعلق بيؤذن
بتضمين معنى الدعاء للاشعار بأنه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وان تحقق الاذن كما يشعر به قوله
تعالى (غير ناظرين اناه) أى
غير منتظرين وقته أو ادراكه
وهو حال من فاعل لاتدخلوا
على أن الاستثناء واقع على
الوقت والحال معا عند من
يجوزه أو من المجرور فى لكم
وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون
جاريا على غير من هو له بلا ابراز
الضمير ولامساغ له عند
البصريين وقرئ بالامالة
لانه مصدر أنى الطعام أى
ادرك (ولكن اذا دعيتم
فادخلوا) استدراك من النهى
عن الدخول بغير اذن وفيه
دلالة بينة على أن المراد بالاذن
الى الطعام هو الدعوة اليه
(فاذا طعمتم فانتشروا)
فتفرقوا ولا تلبثوا والانه خطاب
لقوم كانوا يتحينون طعام النبى
عليه الصلاة والسلام
فيدخلون ويقعدون منتظرين
لادراكه مخصوصة بهم
وبامثالهم والا لما جاز لاحد أن
يدخل بيوته عليه الصلاة
والسلام باذن لغير الطعام ولا
اللبث بعد الطعام لامر مهم
(ولا مستأنسين لحديث) أى
لحديث بعضكم بعضا أو
لحديث أهل البيت بالتسمع له
عطف على ناظرين أو مقدر
بفعل أى ولاتدخلوا أو لاتمكثوا مستأنسين الخ (ان ذلكم) أى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى
النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وايجابه للاشتغال بما لايعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيى منكم)
أى من اخراجكم لقوله تعالى (والله لايستحيى من الحق) فانه يستدعى

فى الصلاة على النبى عليه السلام يصلون بالاضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء
صلى الله عليه أو لم يصل وفى المؤمنين ليس كذلك (المسئلة الثانية) هذا دليل على مذهب
الشافعى لان الامر للوجوب فتجب الصلاة على النبى عليه السلام ولا تجب فى غير التشهد
فتجب فى التشهد (المسئلة الثالثة) سئل النبى عليه السلام كيف نصلى عليك يارسول الله
فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم
وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد
(المسئلة الرابعة) اذا صلى الله وملائكته عليه فاى حاجة الى صلاتنا نقول الصلاة عليه
ليس لحاجته اليها والا فلا حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه وانما هو لاظهار
تعظيمه كما ان الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له اليه وانما هو لاظهار تعظيمه منا
شفقة علينا ليثيبنا عليه ولهذا قال عليه السلام من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا
(المسئلة الخامسة) لم يترك الله النبى عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه
بأمره بالصلاة على الامة حيث قال وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وقوله وسلموا تسليما
أمر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا سلام عليك أيها النبى فى التشهد
وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد
الصلاة بهذا التأكيد لانها كانت مؤكدة بقوله ان الله وملائكته يصلون على النبى ❊ ثم
قال تعالى (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا
مهينا) فصل الاشياء بتبيين بعض اضدادها فبين حال مؤذى النبى ليبين فضيلة المسلم عليه
واللعن أشد المحذورات لان البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره
ألا ترى أن الملك اذا تغير عن مملوك ان كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم
أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد
ولاسيما اذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده وقوله فى الدنيا والآخرة اشارة الى بعد لارجاء
للقرب معه لان المبعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة فاذا أبعد فى الآخرة فقد خاب
وخسر لان الله اذا أبعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ثم انه تعالى لم يحصر جزاءه
فى الابعاد بل أوعده بالعذاب بقوله وأعد لهم عذابا مهينا وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
ذكر ايذاء الله وايذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء ايذاء الله
لان من آذى الملك يبعده عن بابه اذا كان لا يأمر بعذابه والتعذيب جزاء ايذاء الرسول
لان الملك اذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله
ولا يؤذى الرسول لا يعذب لانا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال
لان من آذى الله فقد آذى الرسول وأما على الوجه الآخر وهو ان من يؤذى النبى عليه
السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير اشراك كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر فقد
آذى النبى عليه السلام غير ان الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه

يكون ... متعلقا بهم لا بأنفسهم وما ذاك الا اخراجهم فينبغي أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرئ لا يستحى بحذف الياء الاولى والقاء حركتها الى ماقبلها (واذا سألتموهن) الضمير لنساء النبي المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام (متاعا) أى شيئا يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) أى المتاع (من وراء حجاب) أى ستر روى أن عمر رضى الله عنه قال يارسول الله * ٧٩٨ * يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل انه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه فاصابت يد رجل منهم يد عائشة رضى الله عنها فكره النبي ذلك فنزلت (ذلكم) أى ماذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى أكثر تطهيرا من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) أى وما صح وما استقام لكم (ان تؤذوا رسول الله) أى ان تفعلوا فى حياته فعلا يكرهه ويتأذى به (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى من بعد وفاته أو فراقه (ان ذلكم) اشارة الى ماذكر من ايذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشر والفساد (كان عند الله عظيما) أى أمرا عظيما وخطبا هائلا لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشان رسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا مالا يخفى ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال (ان تبدوا شيئا) مما لاخير فيه كنكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) فى صدوركم (فان الله كان بكل شئ عليما) فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصى البادية والخافية لا محالة وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة فى الوعيد

بكونه ببعده عن الباب (المسئلة الثانية) أكد العذاب بكونه مهينا لان من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضرب به فان أمر بحبسه فى موضع مميزا أو أمر بضرب به رجلا كبيرا يدل على ان الامر هين وان أمر بضرب به على ملأ وحبسه بين المفسدين ينبئ عن شدة الامر فمن آذى الله ورسوله من المخلدين فى النار فيعذب عذابا مهينا وقوله أعد لهم للتأكيد لان السيد اذا عذب عبده حالة الغضب من غير اعداد يكون دون ما اذا أعد له قيدا وغلا فان الاول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فاذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثانى * ثم قال تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) لما كان الله تعالى مصليا على نبيه لم ينفك ايذاء الله عن ايذائه فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين انكم ان أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبى كما صليت عليه لا ينفك ايذاؤكم عن ايذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون ايذائكم ايذاء الرسول كما ان ايذائى ايذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك ايذاء أحد منهم عن ايذاء الآخر كما يكون حال الاصدقاء الصادقين فى الصداقة وقوله بغير ما اكتسبوا احتراز عن الامر بالمعروف من غير عنف زائد فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ومن جلد على الزنا أو حد على الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ويمكن ان يقال لم يؤذ أصلا لان ذلك اصلاح حال المضروب وقوله فقد احتملوا بهتانا البهتان هو الزور وهو لا يكون الا فى القول والايذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنا بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتانا فنقول المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول وهذا لان الله تعالى أراد اظهار شرف المؤمن فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن وايذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج فى وجوده الى موجد وهو قول ذكر ايذاء المؤمن بالقول وعلى هذا خص الايذاء بالقولى بالذكر لانه أعم وأتم وذلك لان الانسان لا يقدر ان يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ ما يحتاج اليه فيؤذيه بالقول ولان الفقير الغائب لا يمكن ايذاؤه بالفعل ويمكن ايذاؤه بالقول بان يقول فيه ما يصل اليه فيتأذى والوجه الثانى فى الجواب هو أن نقول قوله بعد ذلك واثما مبينا مستدرك فكأنه قال احتمل بهتانا ان كان بالقول واثما مبينا كيفما كان الايذاء وكيفما كان فان الله خص الايذاء القولى بالذكر لما بينا انه أعم ولانه أتم لانه يصل الى القلب فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل فى القلب والاذان سبيله ثم قال تعالى (يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن ايذاء المؤمن أمر المؤمن باجتناب المواضع التى فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه ولما كان الايذاء القولى مختصا بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب لايذاء

الفعلى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من
ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى
ولا يتأذى نساؤه وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والامة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع
التهم فامر الله الحرائر بالتجلبب * وقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) قيل يعرفن
انهن حرائر فلا يتبعن ويمكن ان يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع
أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن انهن مستورات لا يمكن طلب
الزنا منهن * وقوله (وكان الله غفورا رحيما) يغفر لكم ما قد سلف برحمته و يثيبكم على
ما تأتون به راحما عليكم * وقوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض
والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها الا قليلا) لما ذكر حال المشرك
الذى يؤذى الله ورسوله والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين ذكر حال المسر الذى يظهر الحق
ويضمر الباطل وهو المنافق ولما كان المذكور من قبل اقواما ثلاثة نظرا الى اعتبار
أمور ثلاثة وهم المؤذون الله والمؤذون الرسول والمؤذون المؤمنين ذكر من المسرين
ثلاثة نظرا الى اعتبار أمور ثلاثة (أحدها) المنافق الذى يؤذى الله سرا (والثانى) الذى فى
قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه
السلام بالارجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء وان كانوا قوما
واحدا الا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات
والمؤمنين والمؤمنات حيث ذكر أصنافا عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص
كثير بالاعتبار وقوله لنغرينك بهم أى لنسلطنك عليهم لتخرجنهم من المدينة ثم
لايجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت او الاخراج ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم
فاذا أغريناك لايجاورونك * والاول كقول القائل يخرج فلان ويقرأ اشارة الى أمرين
والثانى كقوله يخرج فلان ويدخل السوق ففى الاول يقرأ وان لم يخرج وفى الثانى
لايدخل الا اذا خرج والاستثناء فيه لطيفة وهى ان الله تعالى وعد النبى عليه السلام
انه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده اظهارا لشوكته ولو كان النفى بارادة الله
من غير واسطة النبى لاخلى المدينة عنهم فى الطف آن كن فيكون ولكن لما أراد الله أن
يكون على يد النبى لايقع ذلك الا بزمان وان لطف فقال ثم لايجاورونك فيها الا قليلا وهو
أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج * ثم قال تعالى (ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا)
أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك
واذا خرجوا لاينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون
ويقتلون * ثم قال تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) يعنى
هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ولن تجد لسنة الله
تبديلا أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى

(لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء أخواتهن) استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب
عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يارسول الله أونكلمهن أيضا من وراء الحجاب فنزلت وانما لم يذكر
العم والخال لانهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أولانه اكتفى عن ذكرهما
بذكر أبناء الاخوة وأبناء الاخوات فان مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم
والخال من العمومة والخؤلة
لما انهن عمات لابناء الاخوة
وخالات لابناء الاخوات
وقيل لانه كره ترك الاحتجاب
منهما مخافة أن يصفاهن
لابنائهما (ولانسائهن)
أى نساء المؤمنات (ولا
ماملكت أيمانهن) من
العبيد والاماء وقيل من الاماء
خاصة وقدمر فى سورة النور
(واتقين الله) فى كل ما تأتين
وما تذرن لاسيما فيما أمرتن
به ونهيتن عنه (ان الله كان على
كل شئ شهيدا) لاتخفى عليه
خافية ولا تتفاوت فى علمه
الاحوال (ان الله وملائكته)
وقرئ وملائكته بالرفع عطفا
على محل ان واسمها عند
الكوفيين وحملا على حذف
الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه
على رأى البصريين (يصلون
على النبى) قيل الصلاة من الله
تعالى الرحمة ومن الملائكة
الاستغفار وقال ابن عباس
رضى الله عنهما أراد أن الله
يرحمه والملائكة يدعون له
وعنه أيضا يصلون يبركون
وقال أبو العالية صلاة الله
تعالى عليه ثناؤه عليه عند
الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له
فينبغى أن يراد بها فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقياله أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح
أمره ويهتمون باظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (ياأيها الذين آمنوا
صلوا عليه) اعتنوا أنتم أيضا بذلك فانكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم أونحو ذلك

وقيل المراد بالتسليم انقياد امره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه
وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله عليه الصلاة
والسلام من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى بى ملكين
فلا اذكر عند مسلم فيصلى على الاقال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله ❁ ٨٠٠ ❁ تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين

الاحكام اما الافعال والاخبار فلا تنسخ ❁ ثم قال تعالى (يسئلك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله) لما بين حالهم فى الدنيا انهم يلعنون و يهانون و يقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسئلك الناس عن الساعة أى عن وقت القيامة قل انما علمها عند الله لا يتبين لكم فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت ❁ ثم قال تعالى (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) اشارة الى التخويف وذلك لان قول القائل الله يعلم متى يكون الامر الفلانى ينبئ عن ابطاء الامر الا ترى أن من يطالب مديونا بحقه فان استمهله شهرا أو شهرين ربما يصبر ذلك وان قال له اصبر الى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجئ فلان ويمكن أن يكون مجئ فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا يعنى هى فى علم الله فلا تستبطؤها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث قال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة ❁ ثم قال تعالى (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا) يعنى كما انهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله واعد لهم سعيرا كما قال تعالى لعنهم الله فى الدنيا والآخرة واعد لهم عذابا مهينا خالدين فيها أبدا مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم * وقوله (لا يجدون وليا ولا نصيرا) لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لان المعذب لا يخلصه من العذاب الا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع * ثم قال تعالى (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا) لما بين انه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين ان بعض أعضائهم أيضا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الانسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كى لا يصيب وجهه وفى الآخرة تقلب وجوههم فى النار فما ظنك بسائر اعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فيتحسرون و يندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة لحصول علمهم بأن الخلاص ليس الا للمطيع ثم يقولون انا أطعنا سادتنا وكبراءنا يعنى بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الاكابر فبدلنا الخير بالشر فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ثم انهم يطلبون بعض التشفى بتعذيب المضلين و يقولون ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا أى بسبب ضلالهم واضلالهم وفى قوله تعالى ضعفين ولعنا كثيرا معنى لطيف وهو ان الدعاء لا يكون الا عند عدم حصول الامر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ضعفين وزيادة اللعن

آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى على الاقال ذانك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مرة وان تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى اظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شانه عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه فى الصلاة بان يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن ابراهيم النخعى رحمه الله ان الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك أيها النبى وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطا وأما الصلاة على غير الانبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا وتكره استقلالا لانه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزا جليلا ❁ (ان الذين يؤذون الله ورسوله) أريد بالايذاء أما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصى مجازا لاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى ايذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين ❁ بقولهم

يدالله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقيل قول الذين يلحدون في آياته وفي ايذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم في نكاح صفية والحق هو العموم فيهما وأما ايذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكرالله عزوجل لتعظيمه والايذان بجلالة مقداره عنده تعالى وأن ايذاءه عليه الصلاة والسلام ايذاءله سبحانه (لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من رحمته (في الدنيا والآخرة) بحيث لايكادون ينالون فيهما شيئا منها (وأعدلهم) مع ذلك (عذابا مهينا) يصيبهم في الآخرة خاصة * ٨٠١ * (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم مايتأذون به من قول أوفعل وتقييده بقوله تعالى (بغيرما اكتسبوا) أي بغير جناية يستحقون بها الاذية بعد اطلاقه فيما قبله للايذان بان اذى الله ورسوله لايكون الاغيرحق وأما اذى هؤلاء فنه ومنه (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) أي ظاهرا بينا قيل انها نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليا رضي الله عنه و يسمعونه مالاخيرفيه وقيل في أهل الافك وقال الضحاك والكلبي في زناة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لايتعرضون الاللاماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر ايضا جهلا وتجاهلا لاتحاد الكل في الزي واللباس والظاهر عمومه لكل ماذكر ولماسيأتي من أراجيف المرجفين (ياايها النبي) بعدما بين سوء حال المؤذين زجرالهم عن الايذاء أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض * ١٠١ * س المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم في الجملة من التستر والتميز عن مواقع الايذاء فقيل (قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ماترسله على صدرها وقيل هي الملحفة وكل مايتستر به أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن اذابرزن لداعية من الدواعي ومن للتبعيض لمامر من أن المعهود التلفع ببعضها وارخاء بعضها وعن السدي تغطي احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر الاالعين (ذلك) أي ماذكر من التغطي (أدنى) أقرب (أن يعرفن) ويميزن عن الاماء والقينات اللاتي

بقولهم لعنا كثيرا * ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين اذواموسى فبرأه الله مماقالوا) لمابين الله تعالى ان من يؤذي الله ورسوله يلعن و يعذب وكان ذلك اشارة الى ايذاء هو كفر أرشد المؤمنين الى الامتناع من ايذاء هودونه وهولايورث كفراوذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام و بحكمه بالفيء لبعض وغيرذلك فقال ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذواموسى وحديث ايذاء موسى مختلف فيه قال بعضهم هو ايذاؤهم اياه بنسبته الى عيب في بدنه وقال بعضهم قارون قررمع أمرأة فاحشة حتى تقول عند بني اسرائيل ان موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها انها صدقت ولم تقل ماالقنت و بالجملة الايذاء المذكور في القرآن كاف وهو انهم قالواله اذهب انت وربك فقاتلا وقولهم لن نؤمن لك حتى نرالله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحدا الى غيرذلك فقال للمؤمنين لاتكونوا أمثالهم اذا طلبكم الرسول الى القتال اي لاتقولوا اذهب أنت وربك فقاتلا ولاتسألوا مالم يؤذن لكم فيه واذا أمركم الرسول بشئ فأتوا منه مااستطعتم وقوله فبرأه الله مماقالوا على الاول ظاهر لانه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا بهرون عليهم فرأوه غيرمجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به وعلى ماذكرنا فبرأه الله مماقالوا أي أخرجه عن عهدة ماطلبوا باعطائه البعض اياهم واظهاره عدم جواز البعض و بالجملة قطع الله حججهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم * وقوله (وكان عندالله وجيها) أي ذاوجاهة ومعرفة والوجيه هوالرجل الذي يكون له وجه أي يكون معروفا بالخير وكل أحد وان كان عندالله معروفا لكن المعرفة المجردة لاتكفي في الوجاهة فان من عرف غيره لكونه خادماله وأجيراعنده لايقال هو وجيه عند فلان وانما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولاينكر وكان كذلك * ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاسديدا يصلح لكم أعمالكم و يغفرلكم ذنوبكم) أرشدهم الى ماينبغي أن يصدر منهم من الافعال والاقوال اما الافعال فالخير واما الاقوال فالحق لان من اتى بالخير وترك الشرفقد اتقى

عن مواقع تعرضهم وايذائهم (فلا يؤذين) من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بعباده حيث يراعى من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للايذاء (والذين فى قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه (والمرجفون فى المدينة) من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الاراجيف الملفقة المستتبعة للاذية وأصل الارجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم واجلائهم او بما يضطرهم الى الجلاء ولنحرضنك على ذلك (ثم لا يجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم ما يصيبهم (فيها) اى فى المدينة (الا قليلا) زمانا او جورا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه (ملعونين) نصب على الشتم او الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضا على رأى من يجوزه كما مر فى قوله تعالى غير ناظرين اناه ولا سبيل الى انتصابه عن قوله تعالى (اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) لان ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الامم الماضية سنة وهى أن يقتل الذين نافقوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أصلا لابتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب (قل انما علمها عند الله) لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى (وما يدريك) خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الامر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجىء عن قريب أى أى شىء يعلمك بوقت قيامها أى لا يعلمك به شىء أصلا (لعل الساعة تكون قريبا) اى شيئا قريبا أو تكون الساعة فى وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون

الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الامرين بأمرين على الخيرات باصلاح الاعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا فى الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب * ثم قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) فطاعة الله هى طاعة الرسول ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه بفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول يدا وقوله فقد فاز فوزا عظيما جعله عظيما من وجهين (احدهما) انه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظيم بعظم العذاب حتى ان من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لا يقال فاز فوزا عظيما لان العذاب الذى نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الامر تفاوتا كثيرا (والثانى) انه وصل الى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الابدى * ثم قال تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) لما أرشد الله المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبى عليه السلام بأحسن الآداب بين أن التكليف الذى وجهه الله الى الانسان أمر عظيم فقال انا عرضنا الامانة أى التكليف وهو الامر بخلاف ما فى الطبيعة واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه الجبل لا يطلب منه السير والارض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لان الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالاكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه وفى الآية مسائل (الاولى) فى الامانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لان من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفر فله الكرامة ومنهم من قال هو قول لا اله الا الله وهو بعيد فان السموات والارض والجبال بالسنتها ناطقة بأن الله واحد لا اله الا هو ومنهم من قال الاعضاء فالعين أمانة ينبغى أن يحفظها والاذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم (المسئلة الثانية) فى العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أى قابلنا الامانة

التذكير باعتبار ان الساعة فى معنى اليوم او الوقت وفيه تهديد ...
للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما أشير اليه (ان الله لعن الكافرين) على الاطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (وأعد لهم) مع ذلك (سعيرا) نارا شديدة الاتقاد يقاسونها فى الآخرة (خالدين فيها أبدا لايجدون وليا) يحفظهم (ولانصيرا) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم فى النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة الى جهة كلحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة الى جهة أو من حال الى حال ﴿٨٠٣﴾ أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرئ تقلب بحذف احدى التاءين من تتقلب ونقلب باسناد الفعل الى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب باسناده الى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الاعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر وتهويل للخطب ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على مافاتهم (ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل فى يوم (وقالوا) عطف على يقولون والعدول الى صيغة الماضى للاشعار بان قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم فى تلك الورطة وان علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم منها (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرئ ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والافهم فى مقام التحقير والاهانة (فأضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الاباطيل والالف للاطلاق كما فى وأطعنا الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) اى مثلى العذاب الذى آتيتناه لانهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كبيرا) أى شديدا عظيما وقرئ كثيرا وتصدير الدعاء بالنداء مكرر للمبالغة فى الجؤار واستدعاء الاجابة (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت

فى السموات فرجعت الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الثالثة) فى السموات والارض وجهان (أحدهما) أن المراد هى بأعيانها (والثانى) المراد أهلوها ففيه اضمار تقديره انا عرضنا الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الرابعة) قوله فأبين أن يحملنها لم يكن اباؤهن كاباء ابليس فى قوله تعالى فأبى أن يكون مع الساجدين من وجهين (أحدهما) ان هناك السجود كان فرضا وههنا الامانة كانت عرضا (وثانيهما) ان الاباء كان هناك استكبارا وههنا استصغارا استصغرن أنفسهن بدليل قوله وأشفقن منها (المسئلة الخامسة) ماسبب الاشفاق نقول الامانة لاتقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزا صعب الحفظ كالاوانى من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها فى الاول لامانه من هلاكها و فى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) أن يكون الوقت زمان نهب وغارة فلا يقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع والامر كان كذلك لان الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين اذ العرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الامانة والاتيان بما يجب كايداع الحيوانات التى تحتاج الى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج الى تربية وتنمية (المسئلة السادسة) كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الاشياء فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن ولهذا قال تعالى انه كان ظلوما جهولا (والثانى) ان الاشياء نظرت الى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن والانسان نظر الى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لايعرض الامانة الاعلى اهلها واذا أودع لايتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال اياك نعبد واياك نستعين (المسئلة السابعة) قوله تعالى انه كان ظلوما جهولا فيه وجوه (أحدها) ان المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم مايعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان و يجهل ماعليه من العقاب (ثالثها) انه كان ظلوما جهولا أى كان من شأنه الظلم والجهل يقال

[illegible] مما قالوا) اى فاظهر براءته عليه الصلاة والسلام مما قالوا فى حقه أى
من مضمونه ومؤداه الذى هو الامر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بان دفع اليها
مالا عظيما فاظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بان أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها و بين قارون وفعل
بقارون مافعل كما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عند خروجه معه الى الطور فمات هناك فحملته
الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل احياه الله تعالى فاخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعيب فى بدنه من برص أو أدرة
لفرط تستره حياء فاطلعهم الله تعالى على براءته بان فر الحجر بثوبه حين ﴿ ٨٠٤ ﴾ وضعه عليه عند اغتساله والقصة
مشهورة (وكان عند الله
وجيها) ذا قربة ووجاهة
وقرئ وكان عبد الله وجيها
(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله)
اى فى كل ما تأتون وما تذرون
لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه
فضلا عما يؤذى رسوله
عليه الصلاة والسلام
(وقولوا) فى كل شان من
الشؤن (قولا سديدا) قاصدا
الى الحق من سد يسد سدادا
يقال سدد السهم نحو الرمية
اذا لم يعدل به عن سمتها
والمراد نهيهم عما خاضوا
فيه من حديث زينب الجائر
عن العدل والقصد (يصلح
لكم أعمالكم) يوفقكم
للاعمال الصالحة او يصلحها
بالقبول والاثابة عليها
(ويغفر لكم ذنوبكم)
ويجعلها مكفرة باستقامتكم
فى القول والعمل (ومن
يطع الله ورسوله) فى الاوامر
والنواهى التى من جملتها
هذه التكليفات (فقد فاز)
فى الدارين (فوزا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ﴿ فلم يكن ﴾
فابين أن يحملنها وأشفقن منها) لما بين عظم شان طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنهما من العذاب الاليم ومثل المراعين
لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شان ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع
الايذان بان ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صادر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالامانة تنبيها على أنها حقوق
مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها

فرس شموس ودابة جموع وماء طهور أى من شأنه ذلك فكذلك الانسان من شأنه الظلم
والجهل فلما أودع الامانة بقى بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى
الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام
وعلم آدم الاسماء كلها وقال فى حق المؤمنين عامة والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وقال
تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء (رابعها) انه كان ظلوما جهولا فى ظن الملائكة
حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و بين علمه عندهم حيث قال تعالى أنبئونى بأسماء
هؤلاء وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك والمدرك
منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير
الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الامور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ومنه من يدرك
الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والاكل قالوا والى
هذا اشار الله تعالى بقوله ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء فاعترفوا
بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن الا على مدرك الامرين اذ له لذات بأمور
جزئية فيمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته واما غيره
فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الامر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان
المخاطب يسمى مكلفا لما ان المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفا وفى الآية لطائف
(الاولى) الامانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أمينا عليها والقول قول الامين فهو
فائز بقى أولاده أخذوا الامانة منه والآخذ من الامين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع
لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهدا
فصار أمينا من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز ولهذا قال تعالى
ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى فتاب عليه والكافر
صار آخذا للامانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ثم ان المؤمن اذا أصاب الامانة فى يده شئ
بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والامين لا يضمن ما فات بغير تقصير والكافر
اذا أصاب الامانة فى يده شئ ضمن وان كان بقضاء الله وقدره لانه يضمن ما فات وان

والمحافظة عليها وادائها من غير اخلال بشئ من حقوقها و...
وغيرها بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بامرها والرغبة فى قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالاباء والاشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الاجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى أشدها وأعظمها مافيهن من القوة والشدة والمعنى ان تلك الامانة فى عظم الشان بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وادراك لأبين قبولها وأشفقن

منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الانسان) اى عند عرضها عليه اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده أو بتكليفه اياها يوم الميثاق أى تكلفها والتزمها مع مافيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهواما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى أوعن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (انه كان ظلوما جهولا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من أول الامر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا والى الفريق الاول أشير بقوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى حملها الانسان ليعذب بعض الله أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فان التعذيب وان لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة الى بعض أفراده ترتب الاغراض على الافعال المعللة بها أبرز فى معرض الغرض اى كان عاقبة حمل الانسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من افراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية والى الفريق الثانى اشير بقوله تعالى (و يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى كان عاقبة حمله لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من افراده اى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات فلما يخلو عنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها

لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الاشياء الثلاثة بالذكر لانها أشد الامور وأحملها للأثقال اما السموات فلقوله تعالى وخلقنا فوقكم سبعا شدادا والارض والجبال لاتخفى شدتها وصلابتها ثم ان هذه الاشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الامانة عليها واكتفى بشدتهم وقوتهن فامتنعن لانهن وان كن اقوياء الأن أمانة الله تعالى فوق قوتهن وحملها الانسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه وخلق الانسان ضعيفا ولكن وعده بالاعانة على حفظ الامانة بقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر نقول قال الله تعالى انا أعين من يستعين بى و يتوكل على والكافر لم يرجع الى الله تعالى فتركه مع نفسه فيبقى فى عهدة الامانة (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى فأبين أن يحملنها وقوله تعالى وحملها الانسان اشارة الى أن فيه مشقة بخلاف مالوقال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لايستحق أجرة فقال تعالى وحملها اشارة الى انه ممايستحق الاجر عليه أى على مجرد حمل الامانة واما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها غاية مافى الباب ان الكافر لم يأت بشئ زائد على الحمل فينبغى أن يستحق الاجر على الحمل فنقول الفعل اذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الاجرة الاترى انه لوقال احمل هذا الى الضيعة التى على الشمال فحمل ونقلها الى الضيعة التى على الجنوب لايستحق الاجرة و يلزمه ردها الى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الاذن فغرم وزالت حسناته التى عملها بسببه ❊ ثم قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات و يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى حملها الانسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكليف امانة والامانة من حكمها اللازم ان الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم ان الامين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والاجر على الحفظ احسان والعدل قبل الاحسان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم عطف المشرك على المنافق ولم يعد اسمه

بالتوبة والاثابة والالتفات الى الاسم الجليل اولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والاظهار فى موقع الاضمار ثانيا لابراز
مزيد الاعتناء بامر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى اعلم وجعل الامانة التى شانها
ان تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير
الوعد الكريم الذى ينبئ عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما بجعل تعظيم شان الطاعة ذريعة
الى ذلك بان من قام بحقوق مثل هذا الامر العظيم الشان وراعاها فهو جدير بان يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم
والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانيا وقيل المراد بالامانة مطلق الانقياد

الشامل للطبيعي والاختياري وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وارادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الاباء امتناعا عن الخيانة واتيانا بالمراد فالمعنى ان هذه الاجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لامانتها واتين بما امرناهن به كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها الانسان حيث لم يأت بما أمرناه به انه كان ظلوما جهولا وقيل انه تعالى لما خلق هذه الاجرام خلق فيها فهما وقال لها انى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن اطاعنى فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لانحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله مايشق عليه
جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالامانة العقل او التكليف و بعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن
وباباءهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها و بحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما
جهولا لما غلبت عليه من القوة الغضبية والشهوية هذا قريب من التحقيق فتأمل والله الموفق وقرئ و يتوب الله
على الاستئناف (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا فى المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم واثاب بالفوز
على طاعاتهم ٭ قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الاحزاب وعلمها اهله وماملكت يمينه اعطى الامان
من عذاب القبر والله اعلم

تعالى فلم يقل و يعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال و يتوب الله ولو قال
و يتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله
كالكلام المستأنف و يجب هناك ذكر الفاعل فقال و يتوب الله و يحقق هذا قراءة من قرأ
و يتوب الله بالرفع (المسئلة الثانية) ذكر الله فى الانسان وصفين الظلوم والجهول
وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفورا رحيما) اى كان غفورا للظلوم رحيما
على الجهول وذلك لان الله تعالى وعد عباده بانه يغفر الظلم جميعه الا الظلم العظيم الذى
هو الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم واما الوعد فقوله تعالى ان الله
لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء واما الرحمة على الجهل فلان
الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسئ بقوله ماعلمت (وههنا
لطيفة) وهى ان الله تعالى اعلم عبده بانه غفور رحيم
و بصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه
الامانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعلمه فيما
يجبرها من الغفران والرحمة والله اعلم
والحمد لله رب العالمين وصلى الله
على سيدنا محمد النبى
الامى وآله

٭(تم الجزء السادس و يليه الجزء السابع أوله سورة سبأ)٭